

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de L'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique



كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
Faculté des sciences humaines et de la civilisation islamique
قسم العلوم الإسلامية
Département des sciences islamiques

الصوت والدلالة في القرآن الكريم

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية
تخصص لغة ودراسات قرآنية

تحت إشرافه:
أ. د: زعراط محمد

من إعداد:
الطالب: كاملي بشير

لجنة المناقشة: 2013/06/20

أ. د جيلالي سلطاني..... أستاذ جامعة وهران..... رئيسا
أ. د زعراط محمد..... أستاذ جامعة وهران مقرا
أ. د العربي قلايلية..... أستاذ جامعة وهران..... مناقشا
أ. د سليمان عبد القادر..... أستاذ جامعة وهران مناقشا

السنة الجامعية 1432 - 1433 هـ / 2012 م - 2013 م

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين عرفانا

إلى الزوجة الكريمة تقديرا

إلى ولديّ سيدي محمد وعبد الكريم محبة

إلى جميع الأهل والأحباب مودة

شكر وثناء :

أرى لزاماً علي أن أجزى جزيل الشكر والثناء إلى كل من أعانني على إتمام هذا البحث ، فالشكر لله عز وجل أولاً على منه وفضله وكرمه ، فليس لنعمه حد تنتهي إليه .

والشكر إلى الوالدين الكريمين : والدي الذي كان له الفضل في توجيهي منذ نعومة أظفري إلى حفظ كتاب الله والعناية بدراسته ، أسأل المولى عز وجل أن يبارك في عمره ، وأن يجزيه عني خير الجزاء .

وأسأل الله العلي القدير أن يرحم والدي ، وأن يجعل ثواب هذا العمل في ميزان حسناتها .

ثم أتقدم بحالص الشكر والتحية والتقدير إلى فضيلة الأستاذ الدكتور محمد زعراط الذي تفضل بالإشراف والرعاية لهذا البحث ، وقد أعطاني من وقته ورشيد توجيهه وجميل صبره وسعة عطائه الشيء الكثير ، ولم يحرمني من صائب رأيه وعميق خبرته ، فجزاه الله عني وعلما قدم خير الجزاء .

كما أتقدم بخالص الشكر والتحية والتقدير إلى أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة أصحاب الفضيلة: الأستاذ الدكتور جيلالي سلطاني رئيساً ، والأستاذ الدكتور العربي قلايلية ، والأستاذ الدكتور عبد القادر سليمانني ، أشكرهم جزيلاً على تفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث وقراءته وتمحيصه وإبداء ملاحظاتهم لتقويمه ، مع كثرة أعبائهم وانشغالاتهم ، فشكر الله لهم ما بذلوا من جهد ووقت ، ونفعي الله بعلمهم وبارك في عملهم .

كما أتقدم بالشكر إلى هذه المؤسسة العلمية كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، وأحيي كافة إداراتها وأساتذتها وعمالها ، هذا الخراب العلمي الذي كنت ممن درجوا في رحابه ، واغترفوا من نهر فضله ثمار الخير ، وكان لنا وسيظل دوماً منارة للعلم وقبلة للراغبين في المزيد .

تحية خاصة إلى من شجعني دوماً وشد من أزرعي وكان لي نعم السند والعون أخي الأستاذ الفاضل عبد الحق جبار ، والشكر موصول إلى كل من مد لي يد العون خلال مشواري في إنجاز هذا البحث .

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ، وبعد:

لقد توسعت دائرة البحث اللغوي بشكل متسارع خاصة في مجال الصوتيات باعتبارها اللبنة الأولى في تشكيل البناء اللغوي.

وإن كان البحث الصوتي قد بلغ مرحلة متقدمة من النضج في المجالين الفونيتيكي - الفزيائي والفزيولوجي - والفنولوجي ، فإن الأصوات اللغوية ما زالت بحاجة إلى تعميق الدرس لاستثمار طاقاتها الدلالية ، وابتعث إيجاءهما من خلال تفاعلها الدائب مع السياقات الأدبية.

ورغبة مني في استثمار الطاقات الدلالية والإيجائية للأصوات ، ارتأيت أن أتناول موضوع " الصوت والدلالة في القرآن الكريم " ، وفضلت أن تكون دراسة الظاهرة من خلال نصوص القرآن الكريم بالذات ، لأنه النص الإلهي الذي يقدم لنا أكمل صورة للعلاقة التوحيدية بين الصوت والمعنى.

نتذكر جميعاً عندما كنا في سن الطفولة نقرأ القرآن في الكتاب ، والعادة في بلدنا أن يبدأ الطفل بحفظ قصار السور ، التي يبرز فيها جلياً أثر الأصوات في رسم المعاني وتصوير المشاهد. بمجرد القراءة للآيات ترتسم في المخيلة صورة ما عن المعنى ، وينشأ نوع من الإحساس أن هنا حديثاً عن النعيم ، وأن هناك تصويراً للعذاب والسعير ، والطفل في كل هذا لا حظ له في إدراك معاني الألفاظ والعبارات ، ولكنه مجرد انطباع نفسي قل ما يخطئ ، تولد عن حس فطري بملامح الأصوات وتنوع جرسها بتنوع المواضيع والأغراض .

قد يعتري هذا الإحساس أحياناً بعض الأعاجم الذين لا حظ لهم في فهم معاني كلام العرب ، وليس لهم من سماع القرآن إلا التأثير بجرس الألفاظ وإيقاع العبارات ، وقد رويت قصص كثيرة من هذا النوع .

ما سر هذا الإحساس إذن؟ وما أساس ذلك الانطباع؟ هل هناك صلة ما للصوت بالمعنى؟ ما طبيعة هذه الصلة؟ وما منشؤها؟ ولماذا تبرز بالذات بهذه القوة في نصوص القرآن الكريم؟

للإجابة عن هذه الإشكالات وما يدور في فلكها من فروع وجزئيات، ارتأيت أن أتناول موضوع: "الصوت والدلالة في القرآن الكريم"، أتطلع من خلاله إلى دراسة الدلالة الصوتية للمفردة اللغوية، بالنظر إلى السمات النطقية والسماعية للأصوات، وباعتبار ما يصاحب الكلمة عند النطق بها من ظواهر صوتية، وبحث العلاقة بين تلك السمات الصوتية ومناسبتها لسياقها ونسقتها الدلالي، إضافة إلى دلالة البنية الصوتية للتركيب اللغوي على مستوى إيقاع الجمل والعبارات.

ومع حداثة البحث في هذا المجال، فإنني لا أزعم أنني أبدأ فيه من فراغ، فإن ثمة محاولات عديدة قديماً وحديثاً، حاولت الولوج إلى هذا الميدان. أما الدراسات القديمة في تراثنا اللغوي، فإننا نستطيع أن نقف على معالم هادية ومحاولات جادة، عند الخليل بن أحمد وسيبويه، كما نجدها أكثر نضجا عند ابن جني من بعدهما.

وتأتي الدراسات الأسلوبية على رأس الدراسات الحديثة التي اهتمت بالدلالة الصوتية، فقدمت أبحاثاً قيمة وعرضت نماذج من الإجراءات التطبيقية الرائدة في هذا المجال.

والملاحظ أن أغلب تلك الدراسات التطبيقية تشترك في سمة عامة بينها في الوقوف على هذه الظاهرة، وهي اعتماد ذاتية الإحساس والتذوق للعمل الأدبي، وهنا تكمن إحدى أهم الصعوبات في ولوج هذا الموضوع الموغل في الرمزية، والذي يأبي على التقعيد والتقنين. ولعل هذا ما يفسر شح المراجع والدراسات التي تنصب حول التنظير للدلالة الصوتية، إذ أن أغلب ما يصادفنا من دراسات في هذا المجال يهتم أساساً بالجانب التطبيقي منها، أو التعرض للجدل القديم حول ظاهرة مناسبة الصوت للمعنى، والذي لا يزال مستمراً إلى يوم الناس هذا.

ولمحاولة تذليل هذه الصعوبات حاولت جهدي استثمار ما يقدمه علم الأصوات الذي بلغ مرحلة متقدمة من النضج، بفضل التطور الذي عرفته الدراسات المخبرية التي

تمكنت من ضبط السمات النطقية والسماعية للأصوات اللغوية ، وكان لا بد لي أيضا من سير أغوار الدلالة بمفاهيمها وتحليل مكوناتها ومعرفة أبعادها ، حتى يتسنى لنا بعد ذلك معرفة الصلة بين قطبي هذه الثنائية : (الصوت - الدلالة) ، وهي الثنائية التي شغلت الدارسين قديما وحديثا .

لنصل في الأخير إلى تتبع ظاهرة مناسبة الصوت للمعنى من خلال نماذج من النصوص القرآنية .

ولقد امتزجت في هذه الدراسة جملة من المناهج اقتضتها طبيعة الموضوع ، فقد اعتمدت منهجاً وصفيّاً تحليليّاً في وصف النظام الصوتي وفي تحليل النماذج القرآنية من الجانب الصوتي والدلالي بغرض الوقوف على الدلالات المستوحاة منها .

وكان من الضروري اتباع المنهج التاريخي لاستعراض آراء العلماء قديما وحديثا حول صلة اللفظ بمدلوله ، دون إغفال للمنهج المقارن للموازنة بين مختلف الآراء والتصورات .

وقد جاءت الدراسة موزعة على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الصوت والدلالة

وهو بمثابة مدخل ضروري تناولت فيه ما يتعلق بالمفردات الأساسية لهذه الثنائية التي تشكل موضوع الدراسة وهي : (صوت - دلالة) ، باعتبار هذين العنصرين أحد أهم المفاتيح الرئيسية التي لا بد من تدارسها وفك رموزها ، تمهيدا للولوج إلى صلب الموضوع، المتمثل في علاقة الصوت بالمعنى ، وعليه تضمن هذا الفصل مبحثين :

– المبحث الأول : الصوت اللغوي ، بينت فيه ماهية الصوت من حيث هو ظاهرة فزيائية ، وكيفية حدوثه وانتقاله ، وآلية إنتاج الصوت اللغوي ، وصولا إلى أهم جزء في

هذا المبحث وهو تصنيف الأصوات اللغوية ، استعرضت فيه آراء الدارسين اللغويين الذين تناولوا دراسة وتحليل الأصوات اللغوية ، محاولاً الاستفادة مما وصلت إليه الدراسات اللغوية الحديثة ، دون إغفال ما أنتجه التراث اللساني العربي ، مع وضع مقارنات أحيانا تبين عمق تحليلات علمائنا القدامى الذين توصلوا إلى وصف دقيق يتفق كثيراً مع ما توصلت إليه الدراسات المخبرية الحديثة .

— المبحث الثاني : تناولت فيه مصطلح الدلالة ، وما يرتبط به من إشكالات خاصة على مستوى الثنائية المتداولة في الدراسات الدلالية (الدال — المدلول) .

انتقلت بعدها إلى تفكيك عناصر الدلالة ، على الرغم من أن المعنى اللغوي كُـلُّ لا يتجزأ على مستوى الاستعمال الحقيقي للغة ، إلا أنه على مستوى البحث والدراسة يتم وضع فواصل افتراضية تجزئ هذا الكل وفق مبادئ تفرضها غاية الدراسة ، منها: نوع الوحدات اللغوية الدالة على المعنى ، وكذلك دور المعنى في الإبلاغ والإفهام .

لأصل في آخر هذا المبحث إلى تصنيف للدلالات اللغوية بحسب مدى ارتباطها بالبنية اللغوية.

الفصل الثاني : الدلالة الصوتية — دراسة نظرية لعلاقة الصوت بالمعنى . تضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث رئيسية . حيث تتبعت في المبحث الأول منها آراء الدارسين قديماً وحديثاً في مسألة علاقة الصوت بالمعنى ، وتحليل هذه الآراء ومناقشتها مطولاً ، بغرض الوصول في المبحثين المواليين إلى رأي يأخذ بعين الاعتبار طبيعة النفس البشرية من جهة ، ومن جهة أخرى يراعي خصوصية اللغة العربية ، التي امتازت بجملة من الخصائص الصوتية والموسيقية ، التي تتجلى في أبهى صورها في نصوص القرآن الكريم الذي بلغ حد الإعجاز، ومن هنا تظهر أهمية دراسة الدلالة الصوتية في القرآن الكريم.

الفصل الثالث : خصصته للدراسة التطبيقية للدلالة الصوتية ، من خلال تحليل نماذج من النصوص القرآنية التي يجتهد فيها اتحاد المعنى والمبنى ، وصنفت هذه النماذج - تبعا للعناصر الرئيسية في بناء الدلالة الصوتية - إلى ثلاثة مباحث:

عرضت في المبحث الأول جملة من النماذج القرآنية التي تبرز الطاقات الدلالية والإيحائية للصوت اللغوي ، بتتبع مناسبة السمات النطقية والسماعية للأصوات لمداول البنية اللغوية. وتناولت في المبحث الثاني دلالة الصيغ الصرفية ، باستعراض بعض النصوص والسياقات التي تظهر ارتباط بعض الأوزان الصرفية بدلالات خاصة .

وخصصت المبحث الثالث لبعض الظواهر الدلالية التي تندرج تحت مسمى الإيقاع ، ومن ضمنها الفاصلة القرآنية.

وخلصت في النهاية إلى تدوين أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وكان لزاما علي في هذا البحث اعتماد أنواع من المصادر والمراجع في مجالات وحقول معرفية متنوعة ، أهمها :

النوع الأول : كتب لجأت إليها في وصف الأصوات وتحليلها ، وهي كتب الدراسات الصوتية الحديثة ، ومصادر من التراث اللغوي العربي وجدت فيها عمقا في التحليل ودقة في وصف الأصوات ، وأهمها كتاب " العين " للخليل بن أحمد ، و" الكتاب " لسيبويه ، و" سر صناعة الإعراب " لابن جني ، و" المقتضب " للمبرد ، إضافة إلى كتب القراءات القرآنية وأهمها كتاب " النشر في القراءات العشر " لابن الجزري .

النوع الثاني : كتب الدراسات اللسانية الحديثة ، وبعض المراجع الخاصة بعلم الدلالة الذي ظهرت فيه مدارس ومناهج حديثة كان لها أثرها في إثراء البحث في هذا المجال.

النوع الثالث : كتب الدراسات اللغوية والنقدية والبلاغية عند العرب. كـ " الخصائص " لابن جني ، و " البيان والتبيين " و " الحيوان " للجاحظ ، و كتاب " الصناعتين " و " العمدة " و " سر الفصاحة " ، و " المثل السائر " ، ، و " دلائل الإعجاز " ... وغيرها من كتب التراث البلاغي والنقدي عند العرب إضافة إلى جملة من كتب النقد الحديثة ، كما استعنت في هذا المجال أيضا ببعض المراجع النقدية الغربية ، وكذا الدراسات الأسلوبية الحديثة.

النوع الرابع : كتب التفسير وعلوم القرآن ، وقد لجأت إلى كتب التفسير بخاصة في الفصل الأخير من البحث ، حين قمت بتحليل نماذج من النصوص القرآنية بغرض إبراز الدلالة الصوتية فيها.

النوع الخامس : كتب السنة التي اعتمدت عليها في تخريج الأحاديث النبوية ، فإن كان الحديث قد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما فقد اكتفيت بهما ، وإلا لجأت إلى غيرهما من سائر كتب السنة النبوية.

الفصل الأول: الصوت و الدلالة

المبحث الأول : الصوت

المبحث الثاني : الدلالة

المبحث الأول : الصوت

المطلب الأول : ماهية الصوت

المطلب الثاني : تصنيف الأصوات

المبحث الأول : الصوت

أساس اللغة الصوت ، ولذلك عرفها ابن جني (ت 392هـ) بقوله : " أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " (1).

وعليه فإن دراسة اللغة تبدأ بدراسة وتحليل أصواتها ، وكل لغة تتكون من عدد محدود من الأصوات ، يتألف منها عدد لا متناه من الكلمات والعبارات . وقد بين الجاحظ (ت255هـ) أن الصوت عنصر جوهري في اللغة ، فقال : " والصوت هو آلة اللفظ ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظا ، ولا كلاما موزونا ولا منثورا ، إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف " (2).

لذلك كانت دراسة الأصوات أول مبحث من مباحث اللسانيات .

المطلب الأول : ماهية الصوت

1. تعريف الصوت وكيفية حدوثه وانتقاله :

حاول العلماء المعنيون بدراسة اللغة تحديد ماهية "الصوت" فوضعوا تعريفات لهذا المصطلح تباينت بين قديمهم وحديثهم.

الصوت لغة: من صات يصوت ويصات : نادى (3)

¹ أبو الفتح عثمان بن جني : الخصائص - تحقيق : د. عبد الحميد هندراوي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - (1421هـ - 2001م) - ج 1 - ص 87

² أبو عثمان عمرو الجاحظ : البيان والتبيين - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط7 (1418هـ - 1998م) - ج 1 - ص 79

³ الفيروزآبادي : القاموس المحيط - مؤسسة الرسالة - ط 8 (1426 هـ - 2005 م) - مادة (ص و ت) - ص 155

واصطلاحاً: عرف الشريف الجرجاني (ت 816هـ) بقوله: "الصوت كيفية قائمة بالهواء يحملها إلى الصماخ" (1)

وعرفه ابن سينا (ت 428هـ) بأنه: "موج الهواء دفعه بسرعة وبقوة من أي سبب كان" (2).

ويضيف في موضع آخر قائلاً: "ثم ذلك الموج يتأدى إلى الهواء الراكد في الصماخ فيموجه فتحس به العصبه المفروشة في سطحه" (3)

وقد أثبتت الدراسات المخبرية أن الصوت ظاهرة فيزيائية ، ناجمة عن اهتزاز جسم محدثا تذبذبات في ذرات الهواء المحيط في شكل موجات ، تنتشر في الهواء حتى تصل آلة التلقي التي قد تكون طبيعية كالأذن ، أو اصطناعية تقوم مقام الأذن. (4)

فالعلمية الصوتية تستلزم ثلاثة عناصر أساسية (5)

✓ مصدر للصوت وهو وجود جسم يهتز (في حالة تذبذب) ، وذلك ما أشار إليه ابن سينا بقوله: "من أي سبب كان"

✓ وسط ناقل تنتقل فيه تلك التذبذبات الصوتية الصادرة عن اهتزاز الجسم ، قد يكون الوسط الناقل غازي (كما في حالة الصوت) - وهو ما أشار إليه ابن سينا

¹ علي بن محمد الشريف الجرجاني : معجم التعريفات - تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي - دار الفضيلة - القاهرة - مادة (صوت) - ص 115

² أبو علي ابن سينا : أسباب حدوث الحروف - تحقيق : محمد حسان الطيان - يحيى مير علم - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ص 7

³ المصدر نفسه - ص 58

⁴ عبد الفتاح ابراهيم : مدخل في الصوتيات - دار الجنوب للنشر - تونس - ص 25

⁵ د. أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي - عالم الكتب - القاهرة - ط 1990 م - ص 21 - 22

بقوله : " تموج الهواء ودفعه " - ، وقد يكون الوسط الناقل سائلاً (تواصل الحيوانات البحرية فيما بينها) ، أو جسماً صلباً (كانتقال الذبذبات الصوتية هاتفياً من خلال السلك)

✓ وجهاز يستقبل هذه الذبذبات ، كالأذن أو الآلات الاصطناعية.

2. الصوت اللغوي:

عرف ابن جني الصوت اللغوي بأنه : " عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً ، حتى يعرض له في الحلق والقم والشفيتين مقاطع تشبه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها " (1)

إن هواء الزفير الخارج من الرئتين هو مادة الصوت الإنساني وهو يشكل المصدر الأساس لإصدار الصوت في معظم اللغات ، يبدأ إصدار الصوت بانطلاق الهواء من الرئتين ماراً بالقصبه الهوائية ثم الحنجرة التي فيها الوتران الصوتيان ليصل الهواء بعد ذلك إلى التجويف الحلقي ، ثم إلى التجويف الفموي في حالة النطق بالأصوات الفموية ، أو التجويف الأنفي في حالة نطق الأصوات الأنفية (م ، ن) ، ثم إلى الخارج ، لينتقل عبر الهواء على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن ، ويتم تشكيل هذا الهواء في التجاويف المختلفة على حسب مواضع وتحركات أعضاء الكلام (2).

ليس كل ما يصدر من الإنسان من صوت يمكن أن يقال إن ه صوت لغوي ، فالجهاز النطقي للإنسان قادر على إنتاج أصوات كثيرة ، كما أنه قادر على إنتاج أنواع من الضجيج والضوضاء ، ولكي يكون الصوت لغوياً ، يجب أن يكون حاملاً لمعنى معين ،

¹ ابن جني ، سر صناعة الأعراب : دراسة وتحقيق د. حسن هندراوي - دار القلم - دمشق - ط 2 (1413 هـ - 1993 م) ج 1 - ص 6

² إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - 1971م - ص 8

وينقل رسالة محددة من عقل إنسان إلى آخر (1). هذا يعني أن الصوت اللغوي لا يتألف من عملية عضوية جسمية فقط ، بل يتألف أيضا من عملية نفسية عقلية(2).

وتتم عملية إصدار الصوت اللغوي بالمراحل التالية:

1. الأحداث النفسية والعمليات العقلية التي تجري في ذهن المتكلم قبل الكلام أو أثناءه
2. عملية إصدار الكلام الممثل في أصوات ينتجها جهاز النطق
3. الموجات والذبذبات الصوتية الواقعة بين فم المتكلم وأذن السامع
4. العمليات العضوية التي يخضع لها الجهاز السمعي لدى المستمع نتيجة استقبال الأذن للموجات والذبذبات المنتشرة في الهواء
5. الأحداث النفسية والعمليات العقلية التي تجري في ذهن المستمع عند استقباله لتلك الموجات والذبذبات الصوتية.

المطلب الثاني : تصنيف الأصوات:

تنقسم أصوات اللغة عدة تقسيمات أساسها التصنيف الثنائي المشهور : صوامت وصوائت، وهناك تقسيمات فرعية أخرى .

I. تقسيم الأصوات إلى صوامت وصوائت:

■ الأصوات الصائتة - Vowels ، ويسمى البعض الحركات (3) أو العلل القصيرة (4)

¹ ماريو باي : أسس علم اللغة - تر .د. أحمد مختار عمر - منشورات جامعة طرابلس كلية التربية - ليبيا - 1973م - ص38

² عبدالرحمن أيوب : أصوات اللغة - مطبعة الكيلاني - القاهرة - ط 2 - 1968 م - ص 95 .

³ د. كمال بشر : علم الأصوات - دار غريب - القاهرة - ط (2000 م) - ص 149

⁴ عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 66

■ الأصوات الصامتة - Consonants . ويسمى بعضها الأصوات الساكنة ،

ويسمى آخرون الحروف (1)

والصوائت في اللغة العربية هي الحركات الثلاث الفتحة والضمة والكسرة ، وكذا حروف المد الثلاثة الألف والواو والياء ، وسماها البعض الصوائت الطويلة مقابل الصوائت القصيرة وهي الحركات الثلاث . وما عدا هذا فصوائت (2).

ينبغي هذا التصنيف على معيارين أساسيين هما :

1. كيفية مرور الهواء في الحلق والفم ، فعند النطق بالصوائت يمر الهواء عبر الحلق والفم حرا دون أي عائق يعترضه ، أما الصوائت فيحدث أثناء النطق بها اعتراض في مجرى الهواء ، سواء كان هذا الاعتراض كاملا يوقف مرور الهواء مدة من الزمن ثم يفتح ، كما في الحروف الانجاسية (ويسمى بعضها البعض وقفية أو غلقية ، وسماها العرب الحروف الشديدة) ، أو كان هذا الاعتراض جزئيا يضيق مجرى الهواء دون أن يوقفه كما في الحروف الاحتكاكية (وسماها العرب الحروف الرخوة) (3)
2. وضع الأوتار الصوتية : وهي تكون غالبا في وضع تذبذب عند النطق بالصوائت ، لذلك فإن الصوائت كلها مجهورة في الكلام العادي ، أما الصوائت فمنها ما هو مجهور ومنها ما هو مهموس (4).

¹ المرجع نفسه - ص 65

² إبراهيم أنيس : المرجع السابق - ص 28

³ كمال بشر : المرجع السابق - ص 149 - 150 - مختار عمر : المرجع السابق - ص 135 - عبد الفتاح ابراهيم : المرجع السابق - ص 65 - 66

⁴ كمال بشر : المرجع السابق - ص 149 - 151

معايير التصنيف عند علماء العربية:

اتجه العرب في مسألة تصنيف الأصوات منهجا خاصا بهم ، فقد اهتموا بالأصوات الصامتة التي أطلقوا عليها اسم " الحروف " ، وأخضعوها للتصنيف والتقسيم من حيث مخارجها وصفاتها دون الحركات.

ولعل من بين أسباب اهتمامهم بالصوامت أنها تعتبر عندهم المادة الصوتية الخام التي تتألف منها أصول الكلمات ، مهما اختلفت صورها وأشكالها الصرفية ، وإن كان للحركات أيضا دور في تأليف الصيغ الصرفية المتفرعة عن الأصول.⁽¹⁾

وهناك سبب آخر لاهتمامهم بالصوامت ، هو تأثرهم بالكتابة التي خصت الصوامت برموز لها مستقلة ، في حين نجد رموز الصوائت القصيرة وضعت متأخرة نسبيا ، إذ هي من ابتكار الخليل بن أحمد. ولتأثرهم بالكتابة في تصنيف الأصوات اعتبروا الصوائت الطويلة (الألف والواو والياء) من الحروف لأنها تكتب برموز مستقلة.⁽²⁾

ولكن بالرغم من ذلك فإننا نجد في بعض أقوالهم إشارات إلى الخصائص الصوتية للحركات ، وخاصة الحركات الطويلة (الألف والواو والياء) ، بصورة تتفق عموما مع ما قرره علماء الأصوات المحدثون .

حين نتبع وصفهم لحروف المد الثلاثة (الألف والواو والياء) ، نلاحظ تمييزهم لها عن سائر الحروف الأخرى اعتمادا على معيار كيفية مرور الهواء في مجرى الصوت ، يقول الخليل : " في العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحيحا لها أحياء ومخارج ، وأربعة أحرف جوف وهي الواو والياء والألف اللينة والمهزمة ، وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مخرج من مخارج اللسان ولا من مخرج الحلق ولا من

¹ المرجع نفسه – ص 153 – 154

² المرجع نفسه – ص 155

مخرج اللهاة ، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف. وكان يقول كثيرا : الألف اللينة والواو والياء هوائية أي أنها في الهواء" (1).

ويزيد ابن جني هذا المعنى تأكيدا بقوله : " والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو وأوسعها وألينها الألف" (2).

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن علماء العربية القدامى قد اعتبروا الحركات الثلاث أبعاضاً لحروف المد ، وفي ذلك يقول ابن جني : " اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي الألف والياء والواو... فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضممة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ، والضممة الواو الصغيرة وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة" (3).

وفي موضع آخر يعتبر الألف فتحة مشبعة ، والياء كسرة مشبعة ، والواو ضمة مشبعة. (4) كأن ابن جني يعتبر أن أصوات اللين في الحقيقة ثلاثة فقط : الفتحة والكسرة والضممة ، بغض النظر عن طول الصوت وقصره.

وإن كان هذا مقبولاً إلى حد ما من الناحية الصوتية ، إلا أنه من الناحية الوظيفية الصوتية فالأمر مختلف تماماً لعدة اعتبارات ، أهمها أن التقابل بين الحركة الطويلة والحركة القصيرة قد يؤدي إلى تغير المعنى أو الصيغة ، ومعنى ذلك أن كل واحد منهما يعتبر فونيمًا (حرفاً)

¹ الخليل بن أحمد: كتاب العين - تحقيق: مهدي مخزومي - إبراهيم السامرائي - ج 1 - ص 57 - سلسلة المعاجم والفهارس ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن اعتبار الخليل الهمزة مع حروف المد قد ناقشه فيه غير واحد من العلماء ، فهذا ابن الجزري يقول : " الصواب اختصاص هذه الثلاثة (أي الألف والواو والياء) بالجوف دون الهمزة ، لأنهن أصوات لا

يعتمدن على مكان حتى يتصلن بالهواء بخلاف الهمزة " ابن الجزري : النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 158 . وقد ذكر الدكتور كمال بشر احتمال أن يكون الخليل قصد الهمزة عند تسهيلها ، انظر : كمال بشر: المرجع السابق - ص

157

² ابن جني : سر صناعة الإعراب - ج 1 - ص 7 - 8

³ ابن جني - سر صناعة الإعراب - ج 1 - ص 17

⁴ المصدر نفسه - ج 1 - ص 23

مستقلا يصلح أن يقع موقع الآخر وينتج عنه تغير في المعنى ، ويمكن توضيح ذلك بأمثلة كثيرة منها (1):

ضرب - ضارب

قوتل - قتل

مدرسو العربية - مدرس العربية

الواو والياء نظرة خاصة :

الواو والياء في مثل (بيت - يوم) يستحقان دراسة خاصة من الناحية الصوتية ، لأنهما يقعان في منطقة وسط بين الصوامت والصوائت ، لذلك ارتأى البعض تسميتهما أشباه أصوات اللين (2) ، وسماههما آخرون أنصاف الحركات (3) semi- vowels أو أنصاف السواكن semi consonant (4) ، أما من الناحية الوظيفية فقد عددهما علماء العربية من الصوامت .

● الناحية الصوتية (النطقية) :

بتتبع الخصائص النطقية للياء والواو يتبين أنهما يقعان في نقطة وسط بين الصوائت والصوامت ، ذلك أن موضع اللسان أثناء النطق بالياء يكون مشابها تقريبا لموضعه في نطق الكسرة ، مع فارق طفيف ، هو أنه حين النطق بالياء يكون الفراغ الفاصل بين مقدم اللسان ووسط الحنك الأعلى أضيق منه عند النطق بالكسرة الطويلة (ياء المد) . ونفس الشيء أيضا بالنسبة للواو مع الضمة الطويلة ، لا فرق بينهما إلا في كون الفراغ الفاصل

¹ أحمد مختار عمر : المرجع السابق - ص 329

² إبراهيم أنيس : المرجع السابق - ص 42

³ كمال بشر : المرجع السابق - ص 168

⁴ أحمد مختار عمر : المرجع السابق - ص 330

بين أقصى اللسان وأقصى الحنك أثناء النطق بالواو يكون أضيّق منه في حال النطق بالضمّة ، مما يترتب عنه سماع نوع من الحفيف مع الواو.⁽¹⁾

● الناحية الوظيفية :

بالرجوع إلى الخواص الوظيفية للواو والياء في النظام الصوتي للغة العربية يتبين أنهما من الصوامت ، لأنهما يقومان بوظيفة الصوامت ، بحيث يتبادلان الموقع مع الأصوات الصامتة ، ويترتب عن ذلك تغير في المعنى في مثل :

ولد - بلد - خلد - جلد

يترك - تترك - نترك - أترك

II. التقسيمات الفرعية :

درج الدارسون على تقسيم كل من الصوامت والصوائت إلى فئات من الأصوات تجمعها سمات مشتركة ، ثم النظر في مفردات كل فئة تبعا لما يختص به كل صوت من صفات وميزات فارقة .

تقسيم الصوامت :

يقسم علماء الأصوات الصوامت بناء على اعتبارات ثلاثة رئيسية وهي :

- وضع الأوتار الصوتية
- المخارج و الأحياز
- كيفية مرور الهواء عند النطق بالصوت .

¹ إبراهيم أنيس : المرجع السابق - ص 42

أولاً : تقسيم الصوامت باعتبار وضع الأوتار الصوتية :

تنقسم الأصوات الصامتة - بحسب ذبذبة الأوتار أو عدم ذبذبتها أثناء عملية النطق - إلى ثلاث فئات:

- أصوات مهموسة
- أصوات مجهورة
- أصوات لا مهموسة ولا مجهورة

1) الأصوات المهموسة: **voiceless أو unvoiced**

والصوت المهموس هو الصوت الذي لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به ، بحيث ينفرج الوتران الصوتيان بعضهما عن بعض خلال عملية مرور الهواء من الرئتين فتأخذ فتحة المزمار وضع الانفتاح ، فيمر الهواء حرا طليقا دون نزيز للأوتار الصوتية. والأصوات المهموسة في اللغة العربية 12 صوتا هي: ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك هـ⁽¹⁾

2) الأصوات المجهورة:

والصوت المجهور تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به ، بحيث يقترب الوتران الصوتيان من بعضهما البعض ، فيضيق فراغ فتحة المزمار ، ثم يتباعدان بفعل قوة التيار الهوائي المتدفق ، وتكرر عملية التقريب والتفريق مكونة ذبذبات سريعة منتظمة للأوتار الصوتية ، والصوامت المجهورة في اللغة العربية 15 صوتا هي: " ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن و الواو في نحو (ولد و حوض) و الياء في نحو (يترك بيت) ."⁽²⁾

¹ أحمد مختار عمر : المرجع السابق - ص 127 ، 324 / كمال بشر : المرجع السابق - ص 174

² أحمد مختار عمر : المرجع السابق - ص 127 - 128 / كمال بشر : المرجع السابق - ص 174 / عبد الفتاح

إبراهيم : المرجع السابق - ص 81

3) الصوت اللامجهور واللامهموس :

ويمثله في العربية صوت الهمزة الذي ليس مجهوراً ولا مهموساً ، لأن فتحة الزمار تكون حال النطق به مغلقة غلقاً تاماً ، وينطبق الوتران الصوتيان انطباقاً تاماً محكماً ، فلا نسمع لهما ذبذبة (ولذلك فهو صوت ليس مجهوراً) ، ولا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق إلا حين ينفرج الوتران الصوتيان ، فيخرج صوت انفجاري نتيجة لاندفاع الهواء الذي كان محبوساً مدة الإغلاق التام لفتحة الزمار.⁽¹⁾

ظاهرتا الجهر والهمس عند علماء العربية القدامى :

إن علماء العربية حين فرقوا بين الأصوات المجهورة والمهموسة ، لم يشيروا إلى وضع الأوتار الصوتية ، كما فعل الدارسون المحدثون ، بل كان اعتمادهم على مصطلحات ذكرها سيبويه ، ورددها من جاء بعده⁽²⁾ ، وما زالت تثير تساؤلات لدى المحدثين حول المقصود منها بدقة⁽³⁾.

عرف سيبويه (ت 180هـ) الصوت المجهور بقوله : " حرف أشبع الاعتماد عليه في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت "⁽⁴⁾ والمهموس : " حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه "⁽⁵⁾

¹ كمال بشر : المرجع السابق - ص 175 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 90 - 91

² أبو العباس المبرد : كتاب المقتضب - تحقيق : محمد عبد الخالق عزيمة - المجلس الأعلى للمنشورات الإسلامية - وزارة الأوقاف - مصر - (1415 هـ - 1994م) - ج 1 - ص 330 / السكاكي : مفتاح العلوم - تحقيق د. عبد الحميد هندراوي - ط 1 (1420 هـ - 2000م) - دار الكتب العلمية - بيروت (لبنان) - ص 43 / ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد - تحقيق د. علي حسين النواب - ط 1 (1405 هـ - 1985م) - مكتبة المعارف - الرياض (م ع السعودية) - ص 86 - 87

³ كمال بشر : المرجع السابق - ص 176 - 178

⁴ سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان : الكتاب - تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون - ط 2 (1402 هـ - 1982 م) - مكتبة الخانجي بالقاهرة - دار الرفاعي بالرياض - ج 4 - ص 434

⁵ المرجع نفسه - نفس الجزء والصفحة

وقد يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة أن المعيار الذي اعتمده سيبويه في التفريق بين الجهر والهمس - منع جريان النفس وعدمه - ، هو نفسه المعيار المعتمد في الفرق بين الشدة والرخاوة ، إلا أن هذا الفهم سرعان ما يتلاشى ، حين نرى أن تصنيف سيبويه الأصوات إلى مجهورة ومهموسة ، لا يختلف عما وصل إليه المحدثون ، إلا في صوتي الطاء والقاف ، يضاف إليهما صوت الهمزة.

وهذا ما حدا بالدكتور إبراهيم أنيس إلى محاولة توجيه مصطلحات سيبويه بما يقترب مما عليه علماء الأصوات المحدثون ، فاعتبر مصطلح " إشباع الاعتماد " معناه تلك العملية العضوية المطلوبة في إحداث الصوت ، بحيث يندفع الهواء الخارج من الرئتين بقوة إلى الحنجرة ، التي يكون فيها الوتران الصوتيان متقاربين تقارباً يكاد ينسد معه مجرى النفس ، مما يضطر هواء النفس إلى الاندفاع من بينهما بقوة تحرك الوترين الصوتيين ، وتجعلهما يتذبذبان ، إلى أن ينقضي الاعتماد ، وهو ما عبر عنه سيبويه بقوله : " منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه " ، فكأن سيبويه ذكر ما يسبب اهتزاز الوترين الصوتيين⁽¹⁾ .

ومما يثير الانتباه أيضاً في دراسة علماء العربية لظاهري الجهر والهمس عدهم الهمزة والقاف والطاء أصواتاً مجهورة ، بينما هي عند الدارسين المحدثين ليست كذلك ، فالقاف والطاء مهموستان ، والهمزة ليست مجهورة ولا مهموسة.⁽²⁾

ثانياً : تقسيم الصوامت باعتبار المخارج والأحياز :

مخرج الصوت يعني النقطة الدقيقة التي يقوم فيها حاجز في جهاز النطق يعترض مسار الهواء فيصدر عندها الصوت ، وبما أن تحديد هذه النقطة أمر عسير جداً فإن علماء الأصوات

¹ إبراهيم أنيس : المرجع السابق - ص 124 - 126

² كمال بشر : المرجع السابق - ص 179

يتحدثون عن " حيز النطق " (zone) وبيني المنطقة التي قد ينسب إليها صوت أو أكثر فتنعت به. فالحيز مساحة أوسع تتجاوز المخرج الذي يعتبر نقطة محددة. (1)
ويفترض المخرج وجود عضوين في جهاز النطق يتلامسان ، أحدهما ثابت والآخر متحرك ، يكون عادة في الأسفل ونقطة النطق تكون في الأعلى. (2)
ونظرا لاتساع مخرج النطق ، نجد علماء الأصوات يختلفون في بعض المخارج المتقاربة ، فبعضهم يدمجها في مخرج واحد والبعض الآخر يفصل بينها في مخارج متقاربة ، ويقع الاختلاف تبعا لذلك في كيفية الفصل وإطلاق التسميات والمصطلحات لكل مجموعة.
يمكن تصنيف الأصوات تبعا للمخارج والأحياز إلى المجموعات التالية :

1. أصوات شفوية bilabical – bilabicales:

تنطق بإطباق الشفتين ، وهي في العربية : الباء والميم
الباء : تنتج بإقفال الشفتين ثم فتحهما فتحا فجائيا.
الميم : تنتج بقفل الشفتين مع إنزال الطبقة اللينة ليسمح بمرور الهواء من تجويف الأنف ، فهي لذلك صوت أنفي.
وقد عد علماء العربية في القديم (الواو) أيضا في نحو (وعد) من الحروف الشفوية (3)
، وقد ذهب إلى ذلك أيضا بعض المحدثين (4) ، في حين اعتبر آخرون مخرجها من أقصى الحنك ، باعتبار اقتراب اللسان حين النطق بها من أقصى الحنك (5) ، ووجه من نسب الواو إلى الشفتين أن لهما دخلا كبيرا في نطق هذا الصوت.

1 كمال بشر : المرجع السابق – ص 181 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق – ص 73

2 د. مبارك مبارك : معجم المصطلحات الألسنية – ص 229 – ط 1 (1995) – دار الفكر اللبناني (بيروت)

3 ابن الجزري : النشر في القراءات العشر – قدم له: علي محمد الضباع – دار الكتب العلمية – بيروت – ط 1 (1418 هـ - 1998 م) - ج 1 – ص 160

4 انظر على سبيل المثال عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق – ص 73 / ريمون طحان : الألسنية العربية – ص 46

5 كمال بشر : المرجع السابق – ص 183

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن علماء العربية القدماء وإن كانوا قد عدوا الواو من مخرج الشفتين ، إلا أنهم تنبهوا إلى خاصية امتدادها داخل الفم. يقول المبرد : " ومن الشفة مخرج الواو والباء والميم ، إلا أن الواو تهوي في الفم حتى تتصل بمخرج الطاء والضاد ، وتتفشى حتى تتصل بمخرج اللام ، فهذه الاتصالات تقرب بعض الحروف من بعض وإن تراخت مخارجها " (1)

وإلى نفس الخاصية يشير ابن الجزري (ت 833هـ) بقوله : " والواو تهوي في مخرجها في الفم لما فيها من اللين حتى تتصل بمخرج الألف " (2)

2. أصوات شفوية أسنانية : labiodentales / labiodental

ويتم إنتاجها بضم الشفة السفلى إلى الثنايا العليا بصورة تسمح بمرور الهواء مع حدوث احتكاك ، وهي في العربية صوت واحد هو : الفاء. (3)

3. أصوات أسنانية أو ما بين الأسنان : interdentes / interdental

وتنطق بوضع طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى بصورة تسمح بمرور الهواء ولكن مع حدوث احتكاك ، وهي في العربية ثلاثة أصوات هي : الذال والطاء والظاء. (4)

4. أصوات أسنانية لثوية : apicale alveolaire

¹ المبرد : المصدر السابق - ج 1 - ص 330

² ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد : التمهيد في علم التجويد - ص 99

³ كمال بشر : المرجع السابق - ص 183 / عبد الفتاح إبراهيم: المرجع السابق - ص 73 / أحمد مختار عمر: المرجع السابق - ص 315

⁴ كمال بشر : المرجع السابق - ص 184 / عبد الفتاح إبراهيم: المرجع السابق - ص 74 / ريمون طحان : المرجع السابق - ص 46

وذلك عند اتصال حد اللسان وطرفه مع الأسنان العليا واللثة (وهي أصول الشايبا). ويتم في هذا المخرج إنتاج سبعة أصوات تشكل نوعين من الأصوات :

- الدال والتاء والضاد والطاء (انفجارية)
- السين والزاي والصاد (استمرارية) (¹)

5. أصوات لثوية : **alveolaire / alveolar**

وتنطق باتصال طرف اللسان مع اللثة ، ويتم في هذا المخرج إنتاج ثلاثة أنواع من الأصوات:

1. النون الأنفية : تنطق باتصال طرف اللسان باللثة اتصالا محكما يمنع مرور الهواء ، وتخفيض الطبقة اللينة ليسمح بمرور الهواء من تجويف الأنف (أنفي) .
2. اللام الجانبية : وتنطق حين يلتقي طرف اللسان باللثة فيمنع مرور الهواء من الأمام ، ولكن يسمح بمروره إما من أحد جانبي اللسان أو من كلا الجانبين (جانبي) .
3. الراء المكرورة : ويتم نطقها عن طريق ضرب طرف اللسان في اللثة ضربات متتالية (مكرر) (²)

6. أصوات غارية أو نطعية : **palatales / palatal**

وسماها آخرون غارية أمامية **prepalatales** (³) وهي الحروف التي تتكون من ملامسة سطح اللسان أو مقدمه أو وسطه للحنك الأمامي أو الغار (¹) ، ويتم في هذا المخرج إنتاج الأصوات الصامتة التالية :

¹ ريمون طحان : المرجع السابق - ص 46 / أحمد مختار عمر: المرجع السابق - ص 316 /

² أحمد مختار عمر: المرجع السابق - ص 316 - 317

³ ريمون طحان : المرجع السابق - ص 47

1. الياء في نحو (بيت) : برفع مقدم اللسان في اتجاه منطقة الغار بشكل يسمح بمرور الهواء ، ولكن مع حدوث احتكاك طفيف.
2. الشين : وتنطق بنفس طريقة نطق الياء ، لكن مع ارتفاع مقدم اللسان أكثر بصورة تسمح بحدوث احتكاك زائد (هشيبي).
3. الجيم : تنطق باتصال مقدم اللسان بمنطقة الغار اتصالاً محكماً يعقبه وقفة قصيرة يليها تسريح بطيء للهواء ، مما ينتج صوتاً يجمع بين الانفجار والاحتكاك (مركب).⁽²⁾
وقد سمي العرب القدماء هذه الأصوات الثلاثة شجرية نسبة إلى شجر الفم⁽³⁾

7. أصوات طبقية velaires / velar

- ويتم إنتاجها باتصال سطح اللسان بالطبق وهو الجزء الرخو من مؤخر سقف الحنك .
وهذه الأصوات هي : الكاف والعين والحاء.⁽⁴⁾
وسماها بعضهم أصوات أقصى الحنك وأضاف إليها الواو⁽⁵⁾ ، كما سبق أن ذكرنا ذلك في مخرج الشفتين.

8. أصوات لهوية uvulaire / uvular

- ويتم إنتاجها بضغط مؤخر اللسان على اللهاة مع الطبق اللين بصورة لا تسمح بمرور الهواء يعقبه تسريح فجائي له (انفجاري).

¹ أحمد مختار عمر: المرجع السابق - ص 317 / ريمون طحان : المرجع السابق - ص 44 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 74

² أحمد مختار عمر: المرجع السابق - ص 317

³ ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد - ص 84

⁴ ريمون طحان : المرجع السابق - ص 47

⁵ كمال بشر - المرجع السابق - ص 184

وهو في العربية صوت القاف (1).

وسمى بعضهم هذا النوع الأصوات الغارية الخلفية² postpalatale

9. أصوات حلقيه : pharyngales / pharyngals

ويتم إنتاجها عن طريق تقريب جذر اللسان من الجدار الخلفي للحلق ، وإحداث انقباض في التجويف الحلقي ، بصورة تسمح بمرور الهواء مع حدوث احتكاك (استمراري) وهي في العربية الحاء والعين (3).

10. أصوات حنجرية : laryngales / laryngeals نسبة إلى الحنجرة

larynx

وتسمى أيضا مزمارية glottales / glottal نسبة إلى المزمار glotte / glottes ويتم إنتاج هذه الأصوات بغلق فتحة المزمار ، فينتج صوت الهمزة ، أو بتضييقها فيحدث صوت الهاء(4).

مخارج الحروف عند علماء العربية :

تناول الكثير من علماء العربية مخارج الحروف بالدرس والتحليل ، كالخليل بن أحمد وسيبويه والمبرد وابن سينا والفارابي وابن جني وغيرهم ، على اختلاف طفيف بينهم في

¹ كمال بشر : المرجع السابق – ص 184 / أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 318

² ريمون طحان : المرجع السابق – ص 47

³ أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 319 / ريمون طحان : المرجع السابق – ص 45 ، 47 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق – ص 75

⁴ أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 115 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق – ص 75

عدد هذه المخارج ، ولعل أنضح دراسة تقدم لنا ما انتهت إليه جهود اللغويين والقراء في هذا المجال ما نجده عند ابن الجزري الذي اعتبر مخارج الحروف سبعة عشر⁽¹⁾ :

1) مخرج الجوف : وهو لحروف المد الثلاثة : الألف والواو والياء ، وقد اعتبرناها من الصوائت.

2) أقصى الحلق : للهمزة والهاء.

3) وسط الحلق : للعين والحاء.

4) أدنى الحلق : للغين والحاء.

وهذه الحروف الستة هي الحروف الحلقية.

5) أقصى اللسان مما يلي الحلق وما فوقه من الحنك : وهو مخرج القاف.

وقد اعتبر معظم علماء العربية المحدثين القاف صوتا لهويا ، ينتج بضغط مؤخر اللسان على اللهاة مع الطبقة اللينة⁽²⁾.

نجد هذا الرأي أيضا عند بعض المتقدمين ، فقد نقل ابن الجزري أن شريحا اعتبر أن مخرج القاف من اللهاة مما يلي الحلق مع مخرج الحاء ، بل إن ابن الجزري نفسه مع عده مخرج القاف من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك ، قد قال في مخرج الكاف : " وهذان الحرفان - أي القاف والكاف - يقال لكل منهما لهوي نسبة إلى اللهاة ، وهي بين الفم والحلق " ⁽³⁾.

ولعل سبب هذا الاضطراب والاختلاف في مخرج القاف ، ما أشار إليه **ladefoged** من عدم إمكانية رسم حدود فاصلة بين أعضاء النطق خاصة بين أقسام تجويف الفم ،

¹ ابن الجزري : النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 158 - 160

² : كمال بشر : المرجع السابق - ص 184 / أحمد مختار عمر : المرجع السابق - ص 318 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 75

³ : ابن الجزري : النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 159

فمن الصعب واقعيًا تحديد موضع انتهاء اللثة وبداية الطبق الصلب في نقطة محددة ، كما أن الفصل بين الطبق واللهاة يعد أكثر تحكما.⁽¹⁾

(6) أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف من اللسان قليلا وما يليه من الحنك : مخرج الكاف ، فهي من أقصى الحنك أيضا ، ولكنها أدنى إلى مقدم الفم .

(7) من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك : للجيم والشين والياء غير المدية ، وهذه هي الحروف الشجرية ، نسبة إلى " الشجر وهو مفرج الفم أي مفتحه " ⁽²⁾.

(8) من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر عند الأكثر ، ومن الأيمن عند الأقل ، وكلام سيويوه يدل على أنها تكون من الجانبين ⁽³⁾ ، وهو مخرج الضاد.

فالضاد عندهم قريبة من وسط الحنك أو هي أقرب أن تكون لثوية حنكية ، ولكن مع السماح بمرور الهواء من أحد جانبي الفم أو منهما معا.⁽⁴⁾

(9) من حافة اللسان من أدناها إلى طرفه وما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والنايب الرباعية والثنية : مخرج اللام.⁽⁵⁾

(10) من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا أسفل اللام قليلا : مخرج النون

(11) من مخرج النون ، من اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا العليا ، غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا : مخرج الراء.

وهذه الحروف الثلاثة يقال لها الذلقية ، والذولقية نسبة إلى موضع مخرجها وهو طرف اللسان ، وطرف كل شيء ذلقه.⁽¹⁾

¹ : نقلا عن : أحمد مختار عمر - المرجع السابق - ص 108

² : ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد - ص 84

³ : ابن الجزري : النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 159

⁴ : كمال بشر : المرجع السابق - ص 186

⁵ : ابن الجزري : النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 159

12) من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مصعدا إلى جهة الحنك : مخرج الطاء والذال والتاء.

ويقال لها الحروف النطعية لأنها تخرج من نطع الغار الأعلى وهو سقفه.⁽²⁾

13) من بين طرف اللسان فوق الثنايا السفلى : مخرج حروف الصفيير ، وهي الصاد والسين والزاي ، ويقال لها الأسلية ، لأنها تخرج من أسلة اللسان وهو مستدقه.

14) من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا : مخرج الظاء والذال والتاء ، ويقال لها الحروف اللثوية ، نسبة إلى اللثة وهو اللحم المركب فيه الأسنان.⁽³⁾

ومن الغريب تسميتهم لهذه الأصوات لثوية مع أنه لا علاقة لها باللثة كما صرحوا بذلك عندما ذكروا مخرجها.

15) من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا : مخرج الفاء .

16) ما بين الشفتين : مخرج الواو غير المدية والباء والميم.⁽⁴⁾

وقد ذكرنا اختلاف المتقدمين عن المتأخرين في مخرج الواو.⁽⁵⁾

17) الخيشوم : وهو للغنة ، وهي تكون في النون والميم الساكنتين حالة الإخفاء ، أو ما في حكمه من الإدغام بالغنة.⁽⁶⁾

¹ابن الجزري : النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 159 و التمهيد في علم التجويد - ص 85

²ابن الجزري : النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 156 - 160

³المصدر نفسه - ج 1 - ص 160

⁴المصدر نفسه - ج 1 - ص 160

⁵ص من هذا البحث

⁶المصدر نفسه - ج 1 - ص 160

ثالثا : تقسيم الصوامت باعتبار كيفية مرور الهواء :

أثناء النطق بالصوامت يكون مجرى الهواء إما مغلقا غلقا تاما أو ضيقا ، وتختلف درجات الضيق والاتساع في نطق الصوامت بين حدين هما : الانسداد التام (الأصوات الانفجارية) والتضييق (الأصوات الاحتكاكية) ، بحيث لو زاد الاتساع وخرج عن النسبة المعينة للأصوات الاحتكاكية ، لدخلنا منطقة الصوائت .

ويلاحظ هنا وجود طائفة من الأصوات لها سمات خاصة ، بحيث يعترض مرور الهواء عند النطق بها وقوف تام في موضع النطق ، ولكنه يخرج حرا طليقا من موضع آخر : من جانبي الفم (في الأصوات الجانبية) ، ومن الأنف (في الأصوات الأنفية) ، ومن الفم بصورة متقطعة (كما في الرءاء المكررة) .

بناء على ذلك قسم علماء الأصوات الصوامت بهذا الاعتبار إلى مجموعات فرعية هي :

1) الوقفات الانفجارية : **plosive stops**

ويحدث أثناء النطق بها حبس للهواء حبسا تاما في إحدى نقاط جهاز النطق من الحنجرة إلى الشفاه ، ثم ينفصل العضوان اللذان سببا هذا الانسداد بشكل سريع مفاجئ فيندفع الهواء المنحبس بشدة محدثا انفجارا ، فتحدث الأصوات الانفجارية / **explosive plosive** ويعد عاملا السرعة والمفاجأة شرطين أساسيين في حدوث هذا الانفجار.⁽¹⁾

وتسمى أيضا وقيية (**stops**) نسبة إلى وقف الهواء ، أو انحباسية (**occlusives**) لحبس الهواء أو انسدادية أو غلقية نسبة إلى الانسداد والغلق الذي حصل في جهاز النطق.⁽²⁾

¹ كمال بشر : المرجع السابق – ص 196 – 197 / ريمون طحان : المرجع السابق – ص 48

² ريمون طحان : المرجع السابق – ص 48 - 49 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق – ص 68

ولكن الوصف الأدق لها أن يقال : " وقفية انفجارية " ليكون الوصف كاملا شاملا
للحدين معا وهما الغلق والانفجار.

وبناء على هذا التعريف فإن الوقفات الانفجارية في اللغة العربية هي : ب ت د ط ض ك
ق ء = عددها ثمانية.

2. الأصوات الاحتكاكية : (fricatives)

وهي الأصوات التي يمر الهواء حال النطق بها من الفم من خلال منفذ ضيق نسبيا (لا
مسدود) محدثا احتكاكا مسموعا قد يكون صغيرا أو حفيفا ، تختلف نسبته تبعا لنسبة
ضيق المجرى.⁽¹⁾

وتسمح هذه الوضعيات باستمرار إصدار الهواء واسترساله في الزمن – على خلاف ذلك
في الوقفات الانفجارية – ولذلك سماها بعضهم الأصوات الاستمرارية (
continuant²)

فعند النطق بأصوات الصفيير على سبيل المثال (السين والزاي والصاد) يتصل أول اللسان
بأصول الثنايا بحيث يكون بينهما فراغ صغير جدا كاف لمرور الهواء ، فنسمع ذلك الصفيير
، وإذا اتسع الفراغ نسبيا قلت نسبة الصفيير وحينئذ يمكن تسميته حفيفا ، وهذا ما يحدث
عند النطق بالفاء ، فتلتقي الشفة السفلى بالأسنان العليا تاركة بينهما فراغا كافيا لمرور
الهواء.⁽³⁾

والأصوات الاحتكاكية في اللغة العربية ثلاثة عشر صوتا هي : ف ذ ث ظ ز س ص ش
خ غ ع ح هـ –⁽⁴⁾.

¹ كمال بشر : المرجع السابق – ص 198

² عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق – ص 69 / أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 118 – 322

³ إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية – ص 24

⁴ أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 322 / كمال بشر : المرجع السابق – ص 213 / ريمون طحان : المرجع

السابق – ص 49

3. الأصوات المركبة : affriqués / affricates

وهي الأصوات التي يتم نطقها بغلق المجرى وحبس الهواء في نقطة الغلق ثم فتحه تدريجياً فيتسرب الهواء ببطء محدثاً احتكاكاً ، ولذلك سماها بعضهم انحباسية احتكاكية أو وقفات احتكاكية (fricative stops) ، فهي مركبة من انحباس (وقف) واحتكاك (أو من قفل وتضييق)⁽¹⁾ ، وسماها آخرون مزجية⁽²⁾ أو مزدوجة⁽³⁾ ، وسموها أيضاً نصف وقفية (semi- stop)⁽⁴⁾ .

فالأصوات المركبة تشترك مع الوقفات الانفجارية في خاصية انحباس الهواء ، ولكنها تفترق عنها في أن انفتاح المجرى يكون بشكل سريع ومفاجئ في الوقفات الانفجارية ، وبشكل تدريجي في الأصوات المركبة مما يحدث احتكاكاً .

وفي اللغة العربية صوت مركب وحيد هو : الجيم الفصيحة كما ينطقها القراء.⁽⁵⁾

4. أصوات التكرار : vibrantes / rolled

وهي في العربية صوت الراء فقط ، وقد سماه علماء العربية بصوت التكرار ، إشارة إلى تكرار ضربات اللسان في مواضع النطق وتكرار خروج الهواء ، بسبب غلق مجرى الهواء وفتحه لمرات متتالية.⁽⁶⁾

¹ أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 119 ، 322 / كمال بشر : المرجع السابق – ص 196 – 197 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق – ص 69

² عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق – ص 69

³ ريمون طحان : المرجع السابق – ص 48

⁴ أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 119

⁵ كمال بشر : المرجع السابق – ص 197 – 198 ، 213 / ريمون طحان : المرجع السابق – ص 49 / أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 322

⁶ كمال بشر : المرجع السابق – ص 200-201 / أحمد مختار عمر : المرجع السابق – ص 322

5. الأصوات الجانبية: latérales / laterals

وتسمى في كتب التراث الحرف الانحرافي ، وهو اللام ويتم إنتاجه بانطباق طرف اللسان على اللثة دون أن يكون هذا الحاجز حاجزا كلياً ، لأن الهواء يتسرب منحرفاً من أحد جانبي اللسان ، أو منهما جميعاً.⁽¹⁾

وتجدر الإشارة هنا أن كثيراً من الدارسين يجمعون الحرف الجانبي والحرف المكرر في قسم واحد ويسمونها الحروف المائعة liquides⁽²⁾ ، ويضيف إليها آخرون الحروف الأنفية ويسمونها أشباه الحركات vowel- like consonants⁽³⁾ ، لأن لها شبيهاً بالحركات من جهة الانفتاح وحرية مرور الهواء ، وإن كانت هذه الحرية من جانبي الفم في حالة (اللام) ، ومن الفم وبشكل متقطع في حالة (الراء) ، ومن الأنف في حالة (الميم والنون)⁽⁴⁾.

6. الأصوات الأنفية: nasale / nasal

ويتم إنتاجها بغلق المجرى في إحدى مواضع جهاز النطق ، وتسريح الهواء من الأنف ، فتنشأ سمة الأنفية (nasalité).

وفي اللغة العربية صوتان أنفيان هما : الميم والنون.⁽⁵⁾

7. أشباه أصوات اللين أو أنصاف الحركات semi-vowels

وهما في العربية الواو والياء في نحو (وجد ، يجد) فهما من الناحية الوظيفية يؤديان دور الصوامت ، ولكن طريقة نطقهما من حيث انفتاح المجرى الفموي تجعلهما يتأرجحان بين

¹ عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 70

² ريمون طحان : المرجع السابق - ص 50 - عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 70

³ كمال بشر : المرجع السابق - ص 202

⁴ كمال بشر : المرجع السابق - ص 201 - 202

⁵ عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 69 - 70 / أحمد مختار عمر : المرجع السابق - ص 322

الصوامت والصوائت ، ففيهما درجة انفتاح في المجرى الفموي بين أدنى انفتاح في الحروف وأقصى انفتاح في الحركات ، أي أن فيهما حاجزا ولكنه حاجز ضئيل يكاد يندم. (1)

رأي علماء العربية :

قسم علماء العربية القدامى الأصوات بهذا الاعتبار- كيفية مرور الهواء في جهاز النطق- إلى ثلاثة أقسام:

- حروف شديدة: الحرف الشديد عندهم حرف اشتد لزومه لموضعه وقوى فيه حتى منع الصوت أن يجري معه عند اللفظ به. والشدة من علامات قوة الحرف ".....وإنما لقبت بالشدة لاشتداد الحرف في مخرجه حتى لا يخرج معه صوت، ألا ترى أنك تقول في الحرف الشديد (اج) (ات)، فلا يجري النفس مع الجيم والتاء وكذا أخواتها" (2)

وهي ثمانية يجمعها قولك: أجد قط بكت.

- حروف رخوة: ومعنى الرخو " أنه حرف ضعف الاعتماد عليه عند النطق به فجرى معه الصوت، فهو أضعف من الشديد، ألا ترى أنك تقول (اس)، (اش) فيجري النفس والصوت معهما وكذا أخواتها، وإنما لقبت بالرخوة لأن الرخاوة اللين، واللين ضد الشدة" (3)

وهي ثلاثة عشر حرفا : ث - ح - خ - ذ - ز - ظ - ص - ض - غ - ف - س - ش - ه .

¹ عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 66 / كمال بشر : المرجع السابق - ص 202 - 203 ، 214

² ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد - ص 87 - 88

³ المصدر نفسه - ص 88

- حروف متوسطة بين الشدة والرخاوة، يجمعها قولك: لن عمر، وأضاف بعضهم إليها الياء والواو.⁽¹⁾

يلاحظ أن هذا التقسيم يقترب في مجمله من تقسيم علماء الأصوات المحدثين، ولعل السبب في ذلك هو اعتمادهم نفس المعيار، وهو كيفية مرور الهواء في جهاز النطق، وقد عبروا عنه بجران النفس، فالشديدة "حروف تمنع النفس"⁽²⁾ بمعنى أن مجرى الهواء يكون فيها مغلقا غلقا تاما، ويكون ضيقا بنسب متفاوتة في الحروف الرخوة وهي "حروف تجري على النفس"⁽³⁾

وقد استعمل ابن سينا في التعبير عن هذا المعيار مصطلح "الجبس التام" وهو يتوافق مع تسمية بعض المحدثين "الأصوات الانجاسية" يقول: "القاف تحدث حيث تحدث الخاء ولكن بجبس تام.... وأما الشين فهي حادثة حيث يحدث الجيم بعينه، ولكن بلا جبس البتة، فكأن الشين جيم لم يجبس، وكأن الجيم ابتدئت بجبس ثم أطلقت"⁽⁴⁾

ويستعمل الزمخشري عبارة (انحصار الصوت - وامتداده) فيقول: "الشدة أن ينحصر صوت الحرف في مخرجه فلا يجري... تقول (الحج والطمش) فإنك تجد صوت الجيم واكدا محصورا لا تقدر على مده، وصوت الشين جاريا تمده"⁽⁵⁾

وقد لاحظ علماء العربية منذ القديم أن هناك أصواتا ذات سمة خاصة ترشحها لتشكيل فئة مستقلة متميزة سموها "المتوسطة بين الشدة والرخاوة" فهي تشترك مع الشديدة في وجود

¹ ابن الجزري: النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 161

² المبرد: المصدر السابق - ج 1 - ص 330

³ المصدر نفسه - ج 1 - ص 330

⁴ ابن سينا- أسباب حدوث الحروف - ص 74- 76

⁵ ابن يعيش: شرح المفصل للزمخشري - إدارة الطباعة المنيرية بمصر - ج 10 - ص 128

وقف للهواء في موضع من مواضع النطق ، ولكن في نفس الوقت يجري معها الهواء في موضع آخر بكيفية خاصة ولذلك اشتركت أيضا مع الرخوة .

ويوضح ابن الجزري الفرق بين هذه الفئة وبين الشديدة والرخوة بقوله في اللام : " فلم يعترض في منع خروج الصوت اعتراض الشديد ، ولا خرج مع الصوت كله كخروجه مع الرخو ، فهو بين صفتين " (1) ويزيد سيبويه هذا الأمر توضيحا فيقول : " وليس يخرج الصوت من موضع اللام ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فويق ذلك " (2)

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام اختلاف علماء العربية القدامى عن المحدثين في عدمهم "العين" من الأصوات المتوسطة ، في حين يعتبره المحدثون صوتا رخوا ، بحيث يرى أكثرهم أنه لا فرق بين العين والحاء إلا الجهر في الأولى والهمس في الثانية.

وقد قال ابن جني : " ولولا بحة في الحاء لكانت عيننا.... وذلك لان الحاء مهموسة ومضارعة بالحلقية والهمس للهاء الخفية وليست فيها نضاعة العين ولا جهرها" (3)

وقد رأى بعض الباحثين أن هناك مبررا لعدمهم (العين) صوتا متوسطا باعتبار أنها "أقل الأصوات الاحتكاكية احتكاكا" (4)

¹ ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد- ص 95

² سيبويه : المصدر السابق - ج 4 - ص 435

³ ابن جني : سر صناعة الإعراب - ج 1 - ص 241 - 242

⁴ كمال بشر : المرجع السابق - ص 207 ، 353

صفات الأصوات عند علماء العربية :

وقد أضاف علماء العربية تقسيمات أخرى للأصوات تبعا لجملة من الصفات تتوزع في مجموعتين : صفات لها ضد – صفات لا ضد لها

I. الصفات التي لها ضد :

إضافة إلى ما تقدم ذكره من تصنيفهم الأصوات تبعا للجهر والهمس إلى مجهورة ومهموسة ، وتبعا لمعيار جريان النفس ومنعه إلى شديدة ورخوة ومتوسطة بينهما ، فقد قسموا الأصوات أيضا وفق الثنائيات التالية :

1. الإطباق والانفتاح:

معيار الإطباق والانفتاح هو وضع اللسان عند النطق بالصوت. فالإطباق : أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له ، وحروفه هي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء.

ويتولد عن الإطباق صفة التفخيم لصوت الحرف المطبق.⁽¹⁾

أما الانفتاح : فهو ضد الإطباق ، حيث يفتح ما بين اللسان والحنك الأعلى ويخرج الهواء من بينهما ، وحروف الانفتاح هي باقي حروف الهجاء، بعد حذف حروف الإطباق الأربعة.⁽²⁾

¹ ابن جني : سر صناعة الإعراب- ص 61 - 62

² ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد- ص 90

2. الاستعلاء والاستفال:

معيار الاستعلاء والاستفال هو نفس معيار الإطباق والانفتاح ، والفرق بين الإطباق والاستعلاء هو وضع اللسان ، فيكون الإطباق بارتفاع اللسان حتى ينطبق على الحنك الأعلى ، في حين أن الاستعلاء يحدث بارتفاع اللسان إلى أعلى ، لكن دون انطباق على الحنك الأعلى (1).

والعلاقة بين الإطباق والاستعلاء علاقة عموم وخصوص، فكل مطبق مستعلٍ وليس العكس.

والاستعلاء ارتفاع اللسان إلى الحنك أطبقت أو لم تطبق (2).

وحروف الاستعلاء هي: " حروف الإطباق الأربعة: " ص، ض، ط، ظ "، يضاف إليها حروف: القاف والغين والحاء .

أما بالنسبة للاستفال: فيكون وضع اللسان أسفل في قاع الفم ، وهي ما عدا الحروف المستعلية (3).

3. التفخيم والترقيق:

والتفخيم صفة متولدة عن صفتي الاستعلاء والإطباق، فجميع أصوات الاستعلاء والإطباق مفخمة دائماً في العربية ، وهي: " خ، ص، ض، ط، ظ، غ، ق " ، وأقواها تفخيماً الطاء ، كما أن أسفل المستفلة الياء ، وبعض الحروف في العربية تفخّم في سياقات صوتية وترقّق في سياقات أخرى، وهذه الأصوات هي: اللام والراء (4).

¹ المصدر نفسه - ص 90

² ابن يعيش : شرح المفصل - ج 10 - ص 128

³ ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد - ص 91

⁴ ابن الجزري : المصدر نفسه - ص 92 - 93 - النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 202 - 203

وما عدا الأصوات المفخمة ، وحالات تفخيم اللام والراء ، فإن باقى أصوات العربية مرققة.

4. الإذلاق والإصمات :

يطلق مصطلح الإذلاق على الأحرف التي تخرج من طرف اللسان ، وطرف كل شيء ذلقه ، وهي أخف الحروف على اللسان ، وهي ستة أحرف : ثلاثة تخرج من الشفتين ، وهي "ب، ف، م" ، وثلاثة يخرجن من أسفل اللسان إلى مقدم الغار الأعلى ، وهي "ل، ن، ر" ، وما عدا هذه الستة فهي الحروف المصمتة ، من الإصمات وهو المنع ، سميت بذلك لكونها ممنوعة من أن تكون منفردة لوحدها في كلمة طويلة لصعوبتها على اللسان (1).

II. الصفات التي لا ضدها :

1. الصَّفِير:

وحروف الصفير تخرج من بين الثنايا وطرف اللسان ، ويحدث الصفير بسبب انحصار الصوت وضيق مجراه ، وأصواته ثلاثة: "الصاد، الزاي، السين." (2)

2. الانحراف :

وهو صفة لللام ، لأن اللسان ينحرف فيه مع الصوت ، ويعترض الهواء عند اللثة ، ويسمح له بالخروج من جانبي الفم من ناحيتي مستدق اللسان ومما فويقهما (3).

¹ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد - ص 98

²ابن يعيش : المرجع السابق - ج 10 - ص 130

³ابن جنى : سر صناعة الإعراب - ص 63

3. التكرير:

وهي صفة خاصة بالراء ، لأنها تتكرر على اللسان عند النطق بها ، كأن طرف اللسان يرتعد بها ،

وأظهر ما يكون إذا اشتدت ، وينبغي الحذر من المبالغة في إظهار تكرار الراء بتوالي ضربات اللسان ، وقد عدوا ذلك عيباً في القراءة.⁽¹⁾

4. التفشي:

هو صفة للشين ، والتفشي كثرة انتشار خروج الهواء بين اللسان والحنك ، وانبساطه في الخروج عند النطق بها حتى يتصل الحرف بمخرج غيره.⁽²⁾

5. اللين:

اللين صفة لصوتي الواو والياء حال سكونهما، ويكون ما قبلهما مفتوحاً؛ كما في : خَوْف، بَيْت ، سميتا بذلك لأتهما يخرجان في لين وقلة كلفة على اللسان.⁽³⁾

6. القلقة:

وهي صفة خاصة بتلاوة القرآن الكريم ، وتكون في أصوات يجمعها قولك : "قطب جد" ، بشرط أن تكون هذه الأصوات ساكنة ، سميت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقف عليها وزيادة إتمام النطق بها.⁽⁴⁾

¹ ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد - ص 95 - النشر في القراءات العشر - ج 1 - ص 203

² ابن الجزري : التمهيد في علم التجويد - ص 97

³ المرجع نفسه - ص 92

⁴ المرجع نفسه - ص 91

7. الاستطالة:

وهي صفة خاصة بصوت الضاد، لأنها استطالت على الفم عند النطق بها حتى اتصلت بمخرج اللام (1)، ويتبع استطالة المخرج استطالة الصوت، حيث يستغرق زمناً أكبر.

☆ ☆ ☆

ما يمكن استخلاصه من هذا المبحث أن دراسة علماء العرب القدامى، بالرغم من بساطة أدوات الملاحظة في عصرهم، إلا أنهم تمكنوا من سبر أغوار العملية الصوتية، ووصفها وصفاً دقيقاً يتوافق في مجمله مع ما توصلت إليه الدراسات الحديثة في هذا المجال. يتضح ذلك من خلال وصفهم لحروف المد الثلاثة، وكذا في تقسيمهم للأصوات باعتبار مخارجها.

وكانت دراستهم لصفات الأصوات - وقد قسموها إلى صفات ثنائية (لها ضد) وصفات أحادية لا ضد لها - تقسيماً شاملاً أتى على الكثير من الظواهر الصوتية التي تصاحب عملية النطق، وقد انفردوا بإضافة بعض التقسيمات والصفات. وتبقى نظرتهم لثنائية الجهر والهمس مثيرة للانتباه، إذ بالرغم من أنه لم يرد في صريح عباراتهم ذكر للأوتار الصوتية، إلا أن نتيجة تصنيفهم كانت شبه موافقة لما توصل إليه المحدثون، فيما عدا صوتي الطاء والقاف، وكذا صوت الهمزة.

ومهما يكن فإن الدراسة بينت في هذا المبحث اختلاف الأصوات، بسبب اختلاف كفاءات النطق، وتبعاً لتنوع الأوضاع التي تأخذها أعضاء جهاز النطق، وينتج عن ذلك كله اختلاف أيضاً في الملامح الصوتية لكل حرف من جهر وهمس، أو شدة ورخاوة، أو إطباق وانفتاح...، ولهذا الملامح آثار سمعية تدركها حاسة الأذن، وتميز من خلالها بين الأصوات قوة وضعفاً.

¹ المرجع نفسه - ص 96

فهل يمكن أن تكون لهذه الاختلافات آثار دلالية ؟

لا بد قبل الإجابة على هذا السؤال بحث موضوع الدلالة ، وحاوله معرفة ماهيتها وأبعادها ، وهو ما سيتم تناوله في المبحث الموالي.

المبحث الثاني : الدلالة

المطلب الأول : ماهية الدلالة

المطلب الثاني : عناصر الدلالة

المطلب الثالث : تصنيف الدلالات

المطلب الأول : ماهية الدلالة:

1. تعريف الدلالة:

تنوعت تعريفات الدارسين لموضوع الدلالة من مناطقة وأصوليين ولغويين.

وهي في مفهومها العام كما عرفها الشريف الجرجاني (ت 816هـ) بقوله: "الدلالة هي كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، و الشيء الأول هو الدال، و الثاني هو المدلول" (1).

وهو التعريف الذي اعتبره التهانوي (ت 1223هـ) اصطلاح أهل الميزان و الأصول و العربية والمناظرة (2).

و بتعريف مقارب عرفها الإمام السبكي (ت 756هـ) بقوله: "كون الشيء يلزم من فهمه فهم شيء آخر" (3).

و نبه السبكي إلى أن الدلالة نسبة مخصوصة بين الدال و المدلول بقوله: "نسبة مخصوصة بين شيء يسمى الدال و شيء آخر يفهم منه و هو المدلول" (4).

فالدلالة إذن في جوهرها تربط بين شيئين متلازمين:

¹ الجرجاني: التعريفات - ص 34

² محمد علي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم - تحقيق: د. علي دحروج - ترجمة: د. جورج زيناتي - مكتبة لبنان ناشرون - ط 1 (1996م) - ج 2 ص 486

³ تقي الدين علي السبكي وولده تاج الدين: الإبهاج في شرح المنهاج (شرح منهاج الوصول إلي علم الأصول للقاضي البيضاوي) - دار الكتب العلمية - بيروت - ط (1416هـ - 1995 م) - ج 1 - ص 204

⁴ المصدر نفسه - ج 1 - ص 204

الأول: الدال ، والثاني: المدلول ، ونسبة مخصوصة بينهما . فالدال هو العلامة التي يتخذها الإنسان وسيطا للإنباء والإخبار عن المفاهيم والأفكار والتصورات الماثلة في الذهن. والمدلول هـ و الأفكار والمفاهيم والتصورات (التي هي صور ذهنية للأشياء الموجودة في الخارج) والأغراض القائمة في الذهن ، و التي لا يستطيع الإنسان إنباء غيره وإخباره بها إلا باتخاذ وسيط حامل لها وهو الدال ، من حيث هو وسيلة حسية حاضرة ، تحيل إلى شيء غائب ، و كما قال ابن عبد الشكور : "الدلالة هي الوجود ذهنيا بتوسيط الدال".(1) والنسبة المخصوصة بينهما هي العلاقة الاصطلاحية ، التي تجعل من اللغة حاجة اجتماعية وضرورة إنسانية.

فالإنسان مضطر للتواصل ، من حيث هو كائن اجتماعي ، لا يستغني عن غيره ، وعلى حد قول ابن سينا (ت 428هـ) : " الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة ، لا اضطرارها إلى المشاركة و المحاورة "(2).

و لأجل تحقيق هذه العملية التواصلية ، يتخذ الإنسان وسائل مختلفة للإخبار عن التصورات و المفاهيم و الأغراض و المقاصد القائمة في الذهن ، فيصطنع علامات هي في حقيقتها عقد اصطلاحية على وضع شيء (و هو الدال) ، بإزاء شيء آخر (هو المدلول) متى أدرك الأول أدرك الثاني ، فيقال إنه دال عليه .

فللدلالة لا تحصل إلا بالاقتران الثنائي بين الدال و المدلول .

نورد فيما يلي هاذين العنصرين - باعتبارهما ركيزتين أساسيتين لحصول الدلالة - لتدارسهما و مقاربتهما عن كتب ، وتعميق النظر فيهما أكثر .

¹ الأنصاري عبد العلي محمد بن نظام الدين : فواتح الرحموت ، بهامش المستصفي للغزالي- ج 1 - ص 418 - نقلا عن : أحمد حساني : العلامة في التراث اللساني العربي- رسالة دكتوراة في اللسانيات- جامعة وهران - السنة 1998-1999-ص 130

² ابن سينا : العبارة (الشفاء)- ص 4 -5- نقلا عن د. فايز الداية : علم الدلالة العربي- النظرية والتطبيق - دار الفكر - دمشق - ط 2 - 1417هـ - 1996م) - ص 17

2. الدال وأشكاله :

بالعودة إلى تعريف الجرجاني للدلالة - والذي اخترناه عنواناً للتعريف السابقة ، لدقته المتناهية - : " كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر " .

نلمح من خلال اختياره لفظ "شيء" للتعبير عن الدال دقة ، تجعل تعريفه شاملاً وجامعاً لكل أنواع الأدلة الممكنة ، التي يلجأ إليها الإنسان كوسائط وعلامات ، تنوب عن المدلولات القائمة في الذهن ، سواء كانت هذه العلامات لسانية أو غير لسانية (رموزاً أو إشارات أو أشكالاً أو حالاً وهيئة ...).

نجد هذا الملمح أيضاً بارزاً بصورة جلية في تعريف الراغب الأصفهاني (ت502هـ) للدلالة ، يقول: "الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء ، كدلالة الألفاظ على المعنى ، ودلالات الإشارات و الرموز و الكتابة و العقود في الحساب" (1).

و من الذين أولعوا إيلاعاً شديداً بتصنيف الدلالات ، حسب طبيعة و نوع الدال ، الإمام الجاحظ (ت255هـ) ، حيث يقول في هذا الصدد: " جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ خمسة أشياء ، لا تنقص ولا تزيد ، أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة ، و النصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف " (2).

وقد كان الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ) على وعي عميق بفعل الدلالة في المحيط الطبيعي والاجتماعي للإنسان ، حين انبرى يصنف الأشياء التي تحيط بالإنسان في هذا الكون إلى قسمين :

¹ الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن- تحقيق : نديم مرعشلي- دار الفكر - بيروت - مادة (دل) - ص 173

² الجاحظ : البيان والتبيين- تحقيق وشرح : عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي بالقاهرة- ط 7 (1418 هـ - 1998 م) - ج 1 -

■ أشياء دالة .

■ أشياء غير دالة : و هي لا تعيننا في هذا المجال ، إذ هي غفل بلا دلالة .

أما الأشياء الدالة فتنقسم بدورها إلى :

○ أشياء دالة بذاتها : وهي الدلالة العقلية ، والتي تخلو من أي تواطؤ أو اتفاق مسبق ، كدلالة النصيق أو الحال .

○ أشياء دالة بالمواضعة والاتفاق : وهذا النوع قسمان أيضا:

- علامات لسانية: وهي الأصوات المنطوقة المسموعة ، التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، بناء على اتفاق وتواطؤ بين أفراد المجتمع اللغوي .

- علامات غير لسانية: وهي العلامات البديلة عن العلامات اللسانية ، و يلجأ إليها الإنسان لتحقيق العملية التواصلية كالإشارات والرموز والأشكال ...

يقول الإمام الغزالي في عبارة موجزة : " إن الأمور منقسمة إلى ما يدل على غيره وإلى ما لا يدل ، فأما ما يدل فينقسم إلى ما يدل بذاته و هو الأدلة العقلية و إلى ما يدل بالوضع، وهو ينقسم إلى صوت و غير صوت كالإشارة و الرمز " (1).

إن الدلالة قد تتحقق في الواقع بوسائل مختلفة لسانية وغير لسانية ، كالإشارات والرموز ، وكلها أنظمة تتكون من علامات دالة . إلا أن اللسان أكثر هذه الأنظمة شيوعا وأوسعها استعمالا.

وقد صرح بذلك الزمكاني (ت651هـ) حين تحدث عن هذه الوسائل التي يستخدمها

الإنسان في التواصل ، وهي الكلام والخط والإشارة والعقد والنسبة ، حيث قال : " اللفظ أعلاها دلالة " (2)

¹ أبو حامد الغزالي : المستصفى من علم الأصول- دار الفكر - ج 1 - ص 333

² الزمكاني : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن- ص 83 - نقلا عن : أحمد حساني : المرجع السابق- ص 143

ذلك أن دور اللفظ في التواصل أفيد دلالة وأيسر استعمالاً " أما كونه أفيد فلعومومه ، من حيث أنه يمكن التعبير به عن الذات والمعنى والموضوع والمعدوم والحاضر والغائب ... وأما كونه أيسر فلأنه موافق للأمر الطبيعي ، لأنه مركب من الحروف الحاصلة من الصوت ، وذلك إنما يتولد من كيفيات مخصوصة تعرض للنفس عند إخراجها ، وإخراجها ضروري ، فصرف ذلك الأمر الضروري إلى وجه ينتفع به الشخص انتفاعاً كلياً " (1)

وقد تنبه الباقلائي (ت403هـ) إلى أهمية النظام اللساني في التواصل حيث يقول : " وإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس ، التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها ، وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها ، فما كان أقرب في تصويرها ، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها ، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد ، وأشد تحقيقاً في الإيضاح عن الطلب ، وأعجب في وضعه ، وأرشق في تصرفه ، وأبرع في نظمه ، كان أولى وأحق بأن يكون شريفاً " (1) يقصد بذلك قيمة اللفظ وشرفه.

ومع القول بأن النظام اللساني أفضل وسائل التواصل ، تبقى الحاجة إلى الوسائل الأخرى ، ولكن ضمن استعمال هذه الوسيلة وهي النطق.

3. الطبيعة النفسية للدال والمدلول :

يتكون الدليل اللغوي من عنصرين أساسيين هما : الألفاظ ، والمعاني ، وبينهما ارتباط وثيق بحيث متى عرف اللفظ أمكن فهم معناه .

¹ جمال الدين الأسنوي : نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول للقاضي البيضاوي- عالم الكتب- ج 2 - ص 14

(1) : أبو بكر الباقلائي : إعجاز القرآن - شرح وتعليق : د. محمد عبد المنعم خفاجي- دار الجيل - بيروت - ط1

1411هـ - 1991م) - ص 171

يقول الخطابي (ت388هـ): "إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم (2) .

فهنا ثلاثة أشياء :

● الدال : لفظ حامل .

● المدلول : المعنى الموجود في صورة ذهنية .

● النسبة بينهما : وهي العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى وهي علاقة اصطلاحية .

إن الأساس الذي يعول عليه في حصول الدلالة هو الاقتران بين الدال والمدلول باعتبارهما عنصريين أساسيين لحصول الدلالة .

وقد تنبه أسلافنا إلى هذا العقد الداخلي بين الدال والمدلول . يقول ابن سينا: " ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى ، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم . فكلما أوردته الحس على النفس التفتت إلى معناه " (3) .

بالتأمل في كلام ابن سينا نلمح أن الدليل اللغوي في نظره ينطوي على عنصريين هما :

__ الدال : مسموع اسم ، وهو الصورة السمعية التي تحدثها في نفس المتلقي سلسلة

الأصوات التي تلتقطها أذنه (ارتسم في الخيال مسموع اسم) .

__ المدلول : وهو الصورة الذهنية للشيء والتي ترسم في ذهن المتلقي (ارتسم في النفس

معنى) .

(2) : الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم : بيان إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق محمد خلف الله - د. محمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر - ط2 (1387 هـ - 1968 م) - ص 27

(3) : ابن سينا : العبارة من كتاب الشفا _ ص4 - نقلا عن : د. فايز الداية : المرجع السابق - ص 14 - 15

وكل من الدال والمدلول في نظر ابن سينا ذو طبيعة نفسية ، وهما متلازمان يستدعي أحدهما الآخر . (فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم ، فكلما أوردته الحس على النفس التفتت إلى معناه) .

يلتقي ابن سينا في تقريره للطبيعة النفسية للدال والمدلول مع ف.دي سوسير رائخ النظرية اللسانية المعاصرة الذي يرى أن الدليل اللغوي يتكون من عنصرين :

_ الدال: صورة سمعية ، وليست الصورة السمعية هي الصوت المادي ، أي ذلك الأمر الفيزيائي المحض بل هي الأثر النفسي لهذا الصوت، أي الصورة التي تصورناها لنا حواسنا... ويظهر الطابع النفسي للصورة السمعية (الأكوستيكية) بصورة جلية ، عندما يتأمل المرء كلامه الشخصي ، فباستطاعته أن يناجي نفسه ، أو أن يستعرض ذهنيا مقطوعة من الشعر، بدون أن تتحرك له شفة أو لسان .⁽¹⁾

_ المدلول: وهو المفهوم . وهو المتصور الذهني (صورة الشيء في الذهن) ، أي الفكرة التي تقترن بالصورة السمعية⁽²⁾ .

فمثلا كلمة (رجل) هي علامة لسانية مكونة من :

- دال: وهو صورة سمعية ، وهو الإدراك النفسي لتتابع الأصوات (ر ج ل) .
- مدلول: وهو مفهوم أو صورة ذهنية ، وهو مجموع السمات الدلالية (حي _

ناطق _ عاقل _ إنسان _ ذكر _ راشد ...)⁽³⁾ .

¹ : فردينا ندي سوسير : دروس في الألسنية العامة- ترجمة : صالح القرمادي- محمد الشاوش - محمد عجينة - الدار العربية للكتاب ط 1985م _ ص110

² : المرجع نفسه - ص 110 - 111

³ أحمد حساني : مباحث في اللسانيات- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر - ط 1999م - ص 40

فالدليل اللغوي إذن كيان نفسي ذو وجهين يتكون من : صورة أكوستيكية ، وم تصور ذهني.

وهذان العنصران ملتحمان التحاما شديدا ويستدعي وجود أحدهما وجود الآخر ،
ويختصر الاقتران بين الدال والمدلول داخل النطاق النفسي : " فالدليل اللغوي لا يجمع
بين شيء واسم بل بين تصور ذهني وصورة سمعية " (1) .

4. علاقة العلامة بالمرجع :

واضح من خلال ما تقدم من كلام دي سوسير ، أنه يضع حاجزا فاصلا بين العلامة من
حيث هي حقيقة نفسية ، والشيء الذي تجل إليه في الواقع الخارجي ، وهو بذلك يقصي
المرجع من مجال الدلالة (2).

ومن الذين اقتفوا أثر دي سوسير في إقصاء المرجع الخارجي من مجال الدلالة ، ستيفن
أولمان في مجال علم الدلالة ، وأميرطو إيكو في مجال السيميائية ، والذي أكد أن قضية
المرجع لا علاقة له بالسيميائية ، لأن هذه الأخيرة لا تهتم بقضية الحقيقة والبطلان ،
والقيمة الدلالية تكمن في العلاقة بين الدال والمدلول فحسب ، ولا تتعداها إلى ما هو
خارجها (3).

¹ : دي سوسير : المرجع السابق _ ص 110 – 111

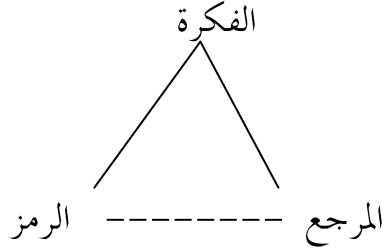
² : أحمد حساني : العلامة في التراث اللساني العربي _ ص 13 _

³ : سيزا قاسم وآخرون _ السيميوطيقا : حول بعض المفاهيم والأبعاد _ ص 22 _ نقلا عن: أحمد حساني : العلامة في
التراث اللساني العربي - ص 13

وفي هذا الصدد يقول ستيفن أولمان : " على أن طبيعة الارتباط بين الواقع (الشيء المشار إليه) ، وصورته المنعكسة في أذهاننا ، إنما هي مشكلة تخص عالم النفس أو الفيلسوف ، أما اللغوي فليس في مقدوره أن يأخذ طرفا في هذه المسألة الجدلية ، وليس مطلوبا منه كذلك أيضا " (1).

وفي الطرف المقابل نجد من الذين عارضوا دي سو سير في إقصائه للمرجع الخارجي أوجدن وريتشاردز في كتابهما (معنى المعنى) ، وقد وضعنا مثلثا اشتهر في الدراسات الدلالية بالمثلث القاعدي ، يقوم هذا المثلث على ثلاثة أسس :

- الرمز: وهو الكلمة المنطوقة المكتوبة من سلسلة الأصوات.
- الفكرة: وهي المحتوى الذهني الذي يحضر في ذهن السامع ، حينما يسمع كلمة معينة .
- المرجع: وهو الشيء المشار إليه .



تشير النقاط المنقطعة في قاعدة المثلث إلى عدم وجود علاقة مباشرة بين الرمز (الكلمة) والمرجع (الشيء المشار إليه) ، فلا بد من المرور عبر الفكرة ، أي عن طريق المحتوى الذهني الذي يحمله الرمز (2) . فالرموز لا تحيل إلى الأشياء إلا بواسطة الأفكار (3) .

¹ : ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة - ص 72 - نقلا عن نفس المرجع : ص 18

² : أحمد حساني : العلامة في التراث اللساني العربي - ص 17

³ : سيزا قاسم وآخرون : السيميوطيقا - ص 24 - نقلا عن نفس المرجع - ص 18

وقد أثارَت قضية علاقة العلامة بالمرجع اهتمام الدارسين العرب الأقدمين ، في حقول معرفية مختلفة . حيث تساءلوا حول حقيقة المدلول _ المعنى الذي وضع له اللفظ _ هل هو الصورة الذهنية أو الشيء الخارجي ؟ ونجم عن ذلك بروز اتجاهات متعددة . فذهب فخر الدين الرازي (ت606هـ) إلى أن للألفاظ دلالات على ما في الأذهان ، لا على ما في الأعيان .

ويستند في تقرير هذه الرؤية إلى أننا نسمي الأشياء كما نراها ونتصورها ، لا كما هي موجودة في الواقع . فالدال اللفظ لا يدل مباشرة على الشيء المرجع كما هو في الواقع الخارجي ، بل اللفظ يدل على الشيء كما نتصوره في أذهاننا . فإذا تغير تصورنا للشيء فإن اللفظ يتغير تبعاً لذلك .

يتضح ذلك بمثال : " أننا إذا رأينا جسماً من البعد وظنناه صخرة ، قلنا: إنه صخرة ، فإذا قربنا منه وشاهدنا حركته ، وظنناه فرساً ، قلنا: إنه فرس ، فإذا ازداد القرب علمنا أنه إنسان ، فقلنا: إنه إنسان ، فاختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنية ، يدل على أن مدلول الألفاظ هو الصور الذهنية ، لا الأعيان الخارجية " (1).

ومعنى هذا أن المجال الدلالي في نظر الرازي ينحصر في العلاقة بين اللفظ (الدال) والصورة الذهنية (المدلول) والتي هي المثال المتصور للوجود الخارجي.

وإذا كان الإمام الرازي لا يشترط توفر المرجع في تحقق الدلالة ، فإن عصبية من الدارسين يعدون المرجع طرفاً أساسياً في تحقق الدلالة ومن هؤلاء :

¹ : السيوطي جلال الدين - المزهر في علوم اللغة - شرح وتعليق : محمد أحمد جاد المولى - محمد علي البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر - ج1 - ص 42

الإمام أبو سحاق الشيرازي (ت476هـ) الذي يرى أن الألفاظ موضوعة بإزاء الماهيات الخارجية⁽¹⁾ .

ورد هؤلاء على ما استدل به الرازي ، من تغير الألفاظ تبعاً لتغير الصورة الذهنية عن الشيء الخارجي ، بأن هذا الاختلاف - في الصورة الذهنية - إنما هو لاعتقاد أنها في الخارج كذلك لا لمجرد اختلافها في الذهن.

فالصورة الذهنية لاتتعدى أن تكون آلة لملاحظة الوجود الخارجي ، لأنها هي الموضوع لها. ونجد الإمام **أبو حامد الغزالي** يوسع المجال الإدراكي للعلامة اللسانية فإذا هو في نظره يتكون من أربعة مراتب :

— موجود في الأعيان (وهو الشيء المرجع) .

— موجود في الأذهان (المدلول : وهو الصورة الذهنية للشيء الخارجي) .

— الموجود في الألفاظ (اللفظ أو الصورة السمعية للدال) .

— الموجود في الكتابة (الخط وهو الصورة المرئية للدال) .

يقول **أبو حامد الغزالي** : " اعلم أن المراتب فيما يقصده أربعة ، واللفظ في الرتبة الثالثة ، فإن للشيء وجوداً في الأعيان ، ثم في الأذهان ، ثم في الألفاظ ، ثم في الكتابة ، فالكتابة دالة على اللفظ ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس ، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان " ⁽²⁾.

يتضح ملم سبق أن هناك ثلاث حالات دلالية ، كل حالة منها تجمع بين دال ومدلول :

- الحالة الأولى : دلالة الصورة الذهنية على الأمور الخارجية

¹ : للسيوطي : المصدر السابق - ج1 - ص42

² : أبو حامد الغزالي : معيار العلم في فن المنطق - دار الأندلس - بيروت - ط3 (1401 هـ - 1981 م) - ص 46 -

- الحالة الثانية: دلالة اللفظ على المتصور في الذهن .
- الحالة الثالثة: دلالة الخط (الكتابة) على الصورة السمعية .

والدلالة في الحالة الأولى (دلالة ما في النفس على الأمور الخارجية) دلالة طبيعية ،
ولذلك فهي لا تختلف باختلاف المجتمعات ، لأن الأشياء حقائق موجودة في الأعيان ،
وتصوراتنا لها حقائق عقلية مشتركة بين جميع الناس.

والدلالة في الحالة الثانية (دلالة اللفظ على الصورة الذهنية) دلالة اصطلاحية ، وذلك
لأن الدال (من حيث كونه لفظا) يختلف بين الناس ، ولو كان المدلول (من حيث كونه
أثرا نفسيا) لا يختلف .

والدلالة في الحالة الثالثة (دلالة الكتابة على اللفظ) أيضا دلالة اصطلاحية ، يختلف فيها
كل من الدال والمدلول باختلاف المجتمعات واختلاف اللغات .

وقد عبر الإمام الغزالي عن العلاقة بين الدال والمدلول في هذه الحالات الثلاث بتعبير أوجز
فقال : " الموجود في الأعيان والأذهان لا يختلف باختلاف البلاد والأمم ، بخلاف الألفاظ
والكتابة فإنهما دالتان بالوضع والاصطلاح " (1).

☆ ☆ ☆

من خلال ما تقدم بيانه ، فإن الدلالة اللسانية تحصل في الواقع باقتران عنصريين

أساسيين هما :

- الدال : اللفظ .
- المدلول : المعنى الذهني الذي يحيل إلى موجود خارجي .

¹ : المرجع نفسه - ص 47

لكن المجال الإجرائي للدلالة ليس بهذه البساطة ، بل هو أوسع وأكثر تعقيداً مما نتصور .
بحيث يصير من الوهم أن نتصور أن إدراك المعنى يمكن التقاطه بسهولة ويسر ، بالرجوع
إلى قوامي ومعاجم اللغة التي تحدد معنى الكلمة المفردة ، هذه الأخيرة لا تشكل قيمة
تواصلية ذات بال . وهي تكتسب حياتها من إدخالها في التأليف .

وعليه فإن المعنى المقصود من الكلام تتداخل في تحديده مجموعة من العوامل والقرائن
والعلاقات :

— بعضها داخلي يتعلق باللغة نفسها ، كأصوات الكلمات ، وبنيتها الصرفية ، وطرائق
التعبير الخاصة بنظام النحو ، إضافة إلى المداخل المعجمية ، كلها تسهم وتشترك في تحديد
معنى اللفظ .

— وبعضها خارجي يتعلق بالموقف الذي يدور فيه الكلام ، ويسمى السياق الاجتماعي
ومقتضى الحال أو المقام ، ويشمل كل المعطيات الاجتماعية والتاريخية والثقافية ، التي
تتصل بأداء الحدث الكلامي .

كما أن الدلالة اللغوية تتصف أيضا بالحركة المتجددة ، بحيث يصير من الصعب إخضاعها
لاقتران ثنائي ، بين دال معين ، ومدلول يظل يلزمه لا ينفك عنه .

ولما كانت الدلالة اللغوية بهذا التعقيد ، فقد خصها علماء اللغة باهتمام واسع في
دراساتهم ، وأفردوها بعلم خاص سموه (علم الدلالة) ، وكان من أهم المباحث التي
طرقوها وهم يتباحثون الفضاء الواسع للدلالة ويتبعون مجالاتها الإجرائية :

- عناصر الدلالة (العناصر التي تسهم في تحديد المعنى)

- أصناف الدلالات وأنواعها (تصنيف الدلالات) .

سنحاول فيما يلي تحليل وتدارس هذين العنصرين لتعلقهما الشديد بموضوع بحثنا .

المطلب الثاني : عناصر الدلالة :

على الرغم من أن المعنى اللغوي كُـلُّ لا يتجزأ على مستوى الاستعمال الحقيقي للغة ، فإنه على مستوى البحث والدراسة ، يتم وضع فواصل افتراضية ، تجزئ هذا الكل إلى مجموعة من العناصر والوحدات اللغوية ، تجتمع لتشكيل وإنتاج المعنى المقصود من الكلام، يمكن تحديد هذه العناصر في النقاط الرئيسة التالية :

I . دلالة الصوت

II . دلالة الصيغ الصرفية

III . الدلالة النحوية

IV . دلالة السياق

I . دلالة الصوت:

الصوت مادة اللغة ، وقد عرفها ابن جني (ت392هـ) بقوله : "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (1).

ومن هنا كانت دراسة الصوت مقدمة لا بد منها لدراسة سائر الأنظمة اللغوية من صرف ونحو ودلالة ...

يميز علماء اللغة في المستوى الصوتي بين جانبيين:

- الجانب الأول: دراسة الصوت من حيث طبيعته الفيزيائية الفزيولوجية : الفونتيك.

- الجانب الثاني: من حيث وظيفته في نظام اللغة :الفونولوجيا.

¹ابن جني : الخصائص - ج 1 - ص 8

فالجانب الأول يهتم بالدراسة العملية للأصوات ، اعتماداً على الملاحظة الحسية والوصف الدقيق للأصوات وصفاً علمياً من الناحيتين الحركية - بتبع العملية النطقية - ، والسمعية - بتسجيل الآثار السمعية المصاحبة للنطق -، وقد يلجأ إلى الملاحظة الآلية المخبرية ، لينتهي عالم الأصوات إلى تصنيف هذه الأصوات بحسب مخارجها وصفاتها (أو سماتها النطقية والسماعية). وهو بذلك يقدم معطيات جاهزة لعالم الصوتيات ، الذي يهتم بدراسة النظام الصوتي للغة معينة ، وذلك بتصنيف أصواتها إلى وحدات مستقلة (فونيمات) ، بناء على جملة من المقابلات الثنائية ، التي تبرز القيم الخلافية التي تميز بها وظائف الأصوات (1)

انطلاقاً من هذه المقدمة فإن دلالة الصوت مفرداً (الحرف-أو الفونيم) يتم دراستها في مستويين متباينين:

1- مستوى اللغة **Langue** في الدراسات اللسانية **Linguistiques** :

يعتبر الصوت المفرد (الحرف-الفونيم) وحدة لغوية غير دالة ، وإن الوحدة الدلالية الدنيا هي الكلمة ، بحيث لو قمنا بتقطيعها إلى وحدات صغرى (فونيمات) كما هو معروف عند البنيويين الوظيفيين (مارتينه)² ، فإن معنى الكلمة لا يتجزأ بحيث يرتبط كل حرف من حروفها بجزء من المعنى (3).

وغاية قيمة الصوت (الحرف) في هذه الحال أن له معنى وظيفياً ، من خلال القيم الخلافية التي تميز بها وظائف الأصوات في الكلمات. (فمعنى (أ) أنه ليس (ب)).

¹ د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها- دار الثقافة- المغرب - ط 1994م - ص66 وما بعدها

² أندريه مارتيني : مبادئ في اللسانيات العامة- ترجمة : د. سعدي زبير - دار الأفق - الجزائر - ص 18

³ مع الإشارة هنا إلى أن هناك ما يسمى بالوحدات الدلالية التي هي أقل من الكلمة ، وتتمثل في (المورفيم المتصل) مثل السوابق واللاحق والضمائر المتصلة، بل هناك وحدة دلالية أقل من المورفيم مثل دلالة الحركات على تاء الفاعل في (كتبت كتبت كتبت). أنظر: د. أحمد مختار عمر : علم الدلالة- عالم الكتب القاهرة- ط 5 - 1998م - ص 34

وهناك عدة طرق لإظهار هذه القيم الخلافية:

أ **طريقة الاستبدال**: وذلك باستبدال صوت بآخر ، بحيث إذا حل أحد الصوتين محل الآخر في اللفظ فإن معنى الكلمة يتغير.

مثال ذلك: طاب - شاب

طاب - طلب

طاب - طال

فالياء مثلا في (طاب) إذا تغيرت إلى لام في (طال) ، أو راء في (طار) ، أو فاء في (طاف)، أو شين في (طاش) ، فإن معنى الكلمة يتغير. ومن ثم نقول أن صوت (ال ياء) في (طاب) يحمل على عاتقه (بضعة) من تبعة المعنى الجديد.

وهذه البضعة من المعنى التي تنسب إلى الحرف بضعة سلبية ، فمعنى الباء في (طاب) أنها ليست لاما ولا راء ولا خاء ولا شينا ⁽¹⁾. ويلاحظ أن المعنى المستفاد من الصوت (أو الحرف) معنى وظيفي ، مرتبط بالنظام الصوتي للغة ، وذلك في مجال الصوتيات (أي النظام الصوتي للغة) وهو في مستوى التجريد ، لا في مجال الأصوات (أي الوصف والملاحظة الحسية أو المخبرية) ⁽²⁾

ب - **طريقتا الإضافة والحذف (أو الإضافة والاستخراج)**:

وهما عمليتان مثل عملية "الاستبدال" في إظهار قدرة الحرف على حمل جرثومة المعنى.

مثال: إذا أضفنا الميم في أول كلمة (قاعد) تغير المعنى وأصبحت الكلمة (مقاعد)، وصار للميم معنى من حيث أنها جلبت إلى الكلمة معنى جديدا.

¹ د. تمام حسان : المرجع السابق - ص 75-77

² المرجع نفسه - ص 74

فإذا حذفنا الميم من كلمة (مقاعد) تغير المعنى بسبب حذفها أو (استخراجها) (1) ، لذلك يمكن القول أن كل حرف من حروف الكلمة يحمل جرثومة من المعنى من جهتين:

-الأولى: إيجابية هي دلالة صوتية على بيئته من الكلمة.

-والثانية: سلبية هي كونه مقابلاً استبدالياً لعدد من الحروف الأخرى، وهي الأهم (2)

من خلال كل ما تقدم يمكن القول أن الصوت (الحرف) باعتباره مادة بناء الكلمة، يحمل بضعة أو جزءاً من المعنى ، ولا أدل على ذلك من أن المعنى يتغير تبعاً لتغير صوت (حرف) من أصوات الكلمة ، إما باستبداله بغيره أو بزيادة صوت أو حذفه ، ولكن معنى الصوت (أو الحرف) في هذه الحالة معنى وظيفي ، مرتبط بالنظام الصوتي للغة، وليس معنى هذا أن لكل صوت مفرد دلالة على معنى معين مرتبط به ، لأن أساس الدلالة اللغوية مبني على العرف والاصطلاح ، ويعرف ذلك باللجوء إلى المعاني المعجمية.

فالصوت المفرد وإن كان يمثل الأصل في بناء الدلالة ، إلا أنه لا قيمة له مفرداً أو مستقلاً عن السياق (3) (أي خارج الكلمة التي هي الوحدة الدلالية الدنيا)

ومن هنا يتضح ارتباط الدلالة الوظيفية للصوت اللغوي بالدلالة المعجمية التي تعتبر الأساس في الدلالة اللغوية.

¹ المرجع نفسه - ص77

² المرجع نفسه - ص77

³ د.عبد القادر عبد الجليل - علم اللسانيات الحديثة - دار صفاء - عمان - ط1 (1422هـ - 2002م) - ص

(2) مستوى الكلام : parole في الدراسات الأسلوبية stylistique:

وفي هذا المستوى حين يستعمل الفرد اللغة ويستثمر طاقاتها الكامنة ، تظهر القيم الدلالية للأصوات ، وهي ترتبط بالاختيار الواعي للمتكلم وقدرة المبدع على استثمار الطاقات الدلالية والإيحائية للأصوات ، التي يستهدف من خلالها وجدان المخاطب ومشاعره ، وفي هذا المستوى لا ينكر أن بعض الأصوات تحمل سمات صوتية خاصة تكسب دلالة اللفظ قوة أو ضعفاً.

ذلك أن الأصوات تختلف فيما بينها قوة وضعفاً ، فمن صفات القوة الجهر والشدة والنفخ ، و يقابلها صفات الضعف الهمس والرخاوة والترقيق ، وهذه الصفات لا تخلو من توجيه دلالة اللفظ لتحقيق التناسب بين المعنى والمبنى ، فيعبر عن المعنى الضعيف بأصوات ضعيفة وعن المعنى القوي بأصوات قوية.

وذلك ما التفت إليه ابن الأثير (ت622هـ) بقوله : " والألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة لكل منها موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفي استحلاب المودات وملاي لت الاستعطاف وأشباه ذلك. (1)

وكما تؤثر الأصوات بسماتها النطقية والسماعية ، ومخارجها وصفاتها ، في تلوين الدلالة ، فإن لترتيب الأصوات في النطق أيضاً أثره في مناسبة الصوت للمعنى ، حين ترد الأصوات مرتبة في الكلمة حسب ترتيب الأحداث المعبر عنها ، " بتقديم ما يضاهاى أول الحدث

¹ ضياء الدين ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - تحقيق: د. أحمد الحوفي - د. بدوي طبانة - دار نهضة مصر - القاهرة - ط 2 - ج 1 - ص 92 - ج 1 - ص 185

وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب" (1)

ومن ذلك قولهم (شد الحبل) : فالشين بما فيها من التفشي تشبه أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه إحكام الشد وال جذب وتأريب العقد، فيعبر عنه بالبدال التي هي أقوى من الشين لاسيما وهي مدغمة" (2)

.II دلالة الصيغ الصرفية:

تنشأ الدلالة الصرفية من صيغة الكلمة ومبناها ، لأن أي تحول في الصيغة عن طريق الإضافة والحذف ، قد يؤدي حتماً إلى تغير في دلالة الكلمة.

وقد سماها ابن جني (ت392هـ) الدلالة الصناعية وجعلها في مقابل نوعين آخرين من أنواع الدلالة هما: الدلالة اللفظية والدلالة المعنوية.

قال: " أعلم أن كل واحد من هذه الدلائل معتد مراعى مؤثر، إلا أنها في القوة والضعف

على ثلاث مراتب: فأقواهن الدلالة اللفظية ثم تليها الصناعية ، ثم تليها المعنوية" (3)

و ضرب لذلك أمثلة بكل الأفعال: " ففي كل واحد منها الأدلة الثلاثة ألا ترى إلى (قام)

ودلالة لفظه على مصدره، ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله، فهذه ثلاث

دلائل من لفظه وصيغته ومعناه" (4)

¹ ابن جني : المصدر السابق - ج 1 - ص 512

² المصدر نفسه - ص 512 - 513

³ المصدر نفسه - ج 2 - ص 382

⁴ المصدر نفسه - ص 328

فالدلالة اللفظية الأساسية التي هي جوهر المادة اللغوية في هذا المثال هي مادة: "ق ا م" التي تدل على حدث القيام ولكن إذا أدخلت هذه المادة في أبنية صرفية متنوعة فإنها تكتسب دلالة أخرى إضافية من الوزن نفسه.

فالأفعال مثلا تحدد بحسب أوزانها الحدث والزمن (قام- يقوم - قم) ، وكذا سائر الأبنية الصرفية الأخرى كاسم الفاعل واسم المفعول.....الخ.

فاسم الفاعل "قائم" مثلا يحمل نوعين من الدلالة:

- مادته اللغوية الأساسية (الجذر: ق ا م) يدل على حدث القيام

- وصيغته الصرفية (فاعل) يدل على كونه صاحب الفعل (1)

ومن الأمثلة الأخرى التي ضربها ابن جني لهذا النوع من الدلالة (2)

مادة (ق ط ع) (ك س ر) : تفيد معنى الحدث

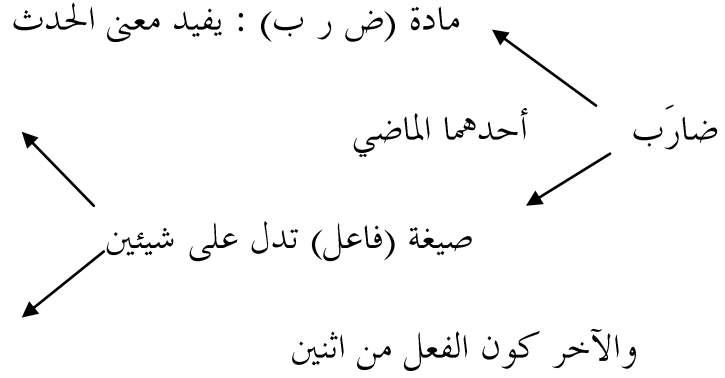
قطّع وكسّر أحدهما الماضي

صيغته الصرفية (فعل) تدل شيئين

والآخر تكثير الفعل

¹ المصدر نفسه - ج 2 - ص 330

² المصدر نفسه - ص 330



وبإمكان المرء أن يتتبع هذا الأمر ويتقصاه في المصنفات الصرفية وفي المعاجم التي تدرس معاني واستعمالات الصيغ الفرعية المشتقة من أصل (أو جذر) واحد.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه لا ينكر وجود تناسب صوتي بين بعض الصيغ والأوزان الصرفية وبين المعاني التي تدل عليها وقد نبه على ذلك الخليل (ت175هـ) وسيبويه (ت180هـ) وتبعهما ابن جني وغيره .

قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدا ، فقالوا: صر وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر.

وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على وزن "فعالن" أنها تأتي للحركة والاضطراب نحو : النقران ، والغليان ، والغثيان. فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال. (1)

وقد حذا حذو هذين العالمين ابن جني فوجد أن المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو: الزعزعة والقلقلة والصلصلة والققعقة والصعصعة والجرجرة والقرقرة.

والمصادر والصفات التي تكون على وزن (الفعل ي) تأتي للسرعة نحو : البشكى والجمزى والولقى. (1)

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 505

هذا وينبغي الإشارة إلى أنه ليس هناك تلازم دائم بين الصيغة ومعناها بحيث متى وجدت الصيغة وجدت الدلالة. وهذا ما أشار إليه الثعالبي في كتابه: "فقه اللغة وسر العربية" (2) في فصلين متتابعين خصص أحدهما لأبنية الأفعال ، والآخر لأبنية الأسماء بحيث اعتبر هذا النوع من الدلالة أغلبي قال : فصل في أبنية دالة على معان في الأغلب الأكثر وقد تختلف" (3)

III . الدلالة النحوية:

بالرغم من أهمية المستويات الصوتية المعجمية والصرفية في الدراسة اللغوية ، إلا أنه في مجال الدلالة ، يعد المستوى التركيبي النحوي أهم مستويات البنية اللغوية ، حين نربط اللغة بوظيفتها الأساسية ، المتمثلة في الاتصال والتفاهم ، لأن اللغة حين تؤدي هذه الوظيفة التواصلية ، تتجلى في شكل أقوال ، لا في شكل كلمات معزولة. فالتواصل بين أفراد المجتمع اللغوي لا يتم فقط بواسطة ما يوفره لهم الرصيد المعجمي ، المتمثل في قائمة من الكلمات ، ما لم يتم تأليف وتركيب بين هذه الوحدات اللسانية ، وفق قواعد وقوانين يقتضيها علم النحو.

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 505

² أبو منصور الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية - تحقيق : مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي - دار الفكر - ط3 - ص 363 - 366

³ المصدر نفسه - ص 365

يقول عبد القاهر الجرجاني (ت 471 أو 474هـ) : " إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ، ولكن ليضم بعضها إلى بعض ، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم" (1)

إن تحقق الإبداع والإفادة لا يتصور من كلمة واحدة مفردة ، ما لم يتم ضمها إلى مثيلاتها في تركيب لغوي أقله كلمتان، به ما تتحقق عملية الإسناد ، التي هي في جوهرها علاقة ذهنية بين المسند والمسند إليه.

يقول الإمام عبد القاهر - مبينا أن الإسناد أساس التركيب في العربية - : " ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد ، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه" (2)

إن التركيب اللغوي المفيد لا بد أن يتوفر فيه ركنان أساسيان لا غنى عن أحدهما ، وهما المسند والمسند إليه ، وقد اعتبرهما النحاة نواة الجملة العربية ، لأن الإفادة لا تتحقق إلا بهما.

و يضبط ابن الحاجب (ت646هـ) الإفادة بتحقق شرطين هما:

- أن يكون الكلام مؤلفاً من كلمتين على الأقل.
 - أن يكون بين الكلمتين إسناد ، ولا يتأتى ذلك إلا في اسمين أو اسم وفعل (3)
- وقد قسموا الجمل بناء على ذلك إلى:
- جملة اسمية: مكونة من مبتدأ وخبر.

¹ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز - علق عليه : محمود محمد شاكر - مطبعة المدني - القاهرة - ط 3 (1413هـ - 1992م) - ص539

² المصدر نفسه - ص7

³ ابن الحاجب : الكافية - ضمن كتاب المجموع الكامل للمتون - جمعه وصححه محمد خالد العطار - دال الفكر - بيروت - ط 1 (1423هـ - 2002م) - ص 331

- جملة فعلية: مكونة من فعل وفاعل

وبانضمام عناصر أخرى (كالمفاعيل و الصفة والحال.....) إلى ركني الجملة (المسند والمسند إليه) - وتعلقها بهما أو بأحدهما - تنشأ بين الوحدات اللغوية داخل التركيب اللغوي - إضافة إلى العلاقة الركنية القائمة بين المسند والمسند إليه - جملة من العلاقات الوظيفية الأخرى ، كعلاقة التعدية (كالمفعول به) ، أو علاقة السببية (كالمفعول لأجله) أو علاقة الظرفية (كما في المفعول فيه) ، إلى غير ذلك من العلاقات التي تقتضيها قواعد وقوانين النحو المعروفة ، و التي استخدم عبد القاهر في التعبير عنها مصطلح "النظم" ومعلوم عنده: " أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض."⁽¹⁾

ومعنى النظم عنده هو معاني النحو التي يترابط بها الكلام ، ويتعلق بعضه ببعض تعلقاً خاصاً يؤدي إلى إفادة المعنى المقصود ، ويحدث الأثر البلاغي المطلوب ، ويدخل فيه أيضاً ترتيب الكلمات وفقاً لترتيب المعاني في النفس.

يعد التعليق إذن أهم دعامة بني عليها عبد القاهر نظريته في النظم. يقول في موضع آخر : " لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبني بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك"⁽²⁾

ومعنى التعليق أن يأخذ لفظ بسبب لفظ آخر فيتعلق به ، فيرتبط الكلم بعضه ببعض، والمقصود بالربط هنا وضع الكلمة الموضع الذي يتوخاه علم النحو ، بدقة متناهية في التناسب بين اللفظ والمعنى⁽³⁾

¹ عبد القاهر الجرجاني : دلالات الإعجاز - ص 4

² المصدر نفسه - ص 55

³ د محمد رمضان الجريبي: الأسلوب والأسلوبية - منشورات ELGA (مالطا) - ط 2002م - ص 71

والتعليق والنظم إنما يكونان في المعاني التي في النفس ، وما الألفاظ إلا أوعية لها.

يقول عبد القاهر: "الفرق بين قولنا (حروف منظومة) و (كلم منظومة) ، وذلك أن (نظم الحروف) هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى... ، وأما (نظم الكلم) فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقضي في نظمها آثار المعاني ، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعينه مع بعض ، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق.... والفائدة في معرفة هذا الفرق ، أنك إذا عرفته ، عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالي ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. (1)

يؤكد الجرجاني في كلامه على أن فكرة التعليق تجعل النظم ليس مجرد رصف للكلمات
كيفما جاء واتفق ، بل هو نظم تحقق فيه أمران :

- نظم للكلمات وفق ما تقتضيه قوانين النحو وأحكامه.
- أنه تعليق للمعاني بعضها ببعض ، بمعنى أنه تعليق وربط للكلم بعضها ببعض ، بناء على تناسق دلالتها وتآلف معانيها داخل التركيب ، بسبب ما يحدثه التعليق من انسجام بين المعاني ، حسب ما يقتضيه العرف اللغوي. ولذلك فإن الجملة السليمة نحويًا الشاذة (الفاسدة) دلاليًا : "الأحلام الخضراء تنام فوق الطاولة" (2) لا تعد نظاماً ، ولا تفيد معنى مقبولاً لدى المجتمع اللغوي مع سلامتها نحويًا ، لافتقادها لفكرة "التعليق" بين المعاني ، لأن العرف اللغوي لا يقبل تعليق لون الاخضرار بالأحلام ، ولا تعليق النوم بالأحلام ، ولا أن يكون النوم فوق الطاولة.

وفي مواضع كثيرة ، يعدد عبد القاهر أسس هذا التعليق فيقول :

1 عبد القاهر الجرجاني : المصدر السابق - ص 49 - 50

2 : سالم شاكر : مدخل إلى علم الدلالة- ترجمة : محمد يحياتين - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ص 33

" والكلم ثلاث : اسم وفعل وحرف ، وللتعليق فيما بينها طرف معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما " (1)

ثم يأخذ في تفصيل هذه الأوجه ، حتى ليكاد يأتي على جميع أبواب النحو كالحال والصفة والتأكيد وعطف البيان والبدل والإضافة والمفاعيل وحروف الجر والعطف والنفي والاستفهام والشرط والجزاء.....(2)

إلى أن يخلص في نهاية كلامه إلى التأكيد على أن تعلق الكلم بعضها ببعض لا يخرج عن أحكام النحو وقوانينه ، مبرزاً بذلك دور النحو في الإعراب عما في النفس ، والإبانة عن المعنى ، فكلما تغير التركيب والنظم تغير المعنى ، فيصير لنظم الكلم دلالة فوق الدلالة المفردة للكلمات ، تلك الدلالة التي سماها الجرجاني صراحة "معاني النحو".

يقول: " فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض ، وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه ، وكذلك السبيل في كل شيء له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض ، لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ، ومعنى من معانيه " (3)

IV . دلالة السياق :

يقصد بالسياق البيئة اللغوية المحيطة بالوحدة اللغوية ، ويعني الوحدات التي تسبق أو تلي وحدة لغوية محددة ، كما يعني أيضاً مجموعة العوامل الاجتماعية والثقافية ، التي يمكن أن

1 عبد القاهر الجرجاني : المصدر السابق - ص 4

2 المصدر نفسه - ص 4 - 7

3 المصدر نفسه - ص 8

تؤخذ بعين الاعتبار ، لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي⁽¹⁾.

فيدخل في مفهوم السياق كل ما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى⁽²⁾ وتندرج تحت هذا العموم ألوان متعددة من السياقات : لغوية - عاطفية - ثقافية....، يمكن أن نجملها في عنصرين :

■ سياق المقال : السياق اللغوي

■ سياق المقام : أو سياق الحال.

(أ) السياق اللغوي :

ومحصلته أن الوحدة اللغوية (الكلمة) لا يمكن لها أن تظهر دلاليًا بوضوح رؤية ، إلا من خلال الوحدات المجاورة لها. فالسياق اللغوي يشمل كل ما يتعلق بالإطار الداخلي لبنية النص ، وما يحتويه من قرائن ، تساعد على كشف دلالة الوحدة اللغوية ، وهي تسبح في نطاق التركيب.⁽³⁾

ومثاله في القرآن لم ينزل قول الله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾⁽⁴⁾

قال الصحابة: "وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي ﷺ: ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.⁽⁵⁾ (1)

¹ د. مبارك مبارك : معجم المصطلحات الألسنية - دار الفكر اللبناني - بيروت - ط 1 - 1995م - ص 61

² د. عبد القادر عبد الجليل : المرجع السابق - ص 540 - 541

³ المرجع نفسه - ص 541 - 542

⁴ الأنعام - 82

⁵ لقمان - 13

فسر النبي ﷺ الظلم الوارد في الآية بنوع خاص منه ، وهو الشرك ، لأنه أعظم الظلم.

وبالنظر في سياق هذه الآية ، نجد أنها وردت في سياق الحديث عن الشرك ، من خلال قصة إبراهيم مع قومه ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة ﴾ (2) ، وتكرر لفظ (الشرك) بمختلف صيغته : ﴿ قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ (3) ، ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ (4) ، ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ (5) ، ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ (6) وجاءت الآية في الأخير جواباً على سؤال إبراهيم لقومه: ﴿ فأبي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (7).

ب) سياق الحال (المقام) :

لسياق الحال (المقام) أهمية كبرى في تحديد المعنى بوضوح لا لبس فيه ولا غموض . ولو حاولنا فهم المقال منفصلاً عن المقام الذي قيل فيه ، لجاء فهمنا إياه قاصراً مبتوراً أو خاطئاً. (8)

وهذا ما دعا علماء اللغة إلى تشقيق المعنى الدلالي إلى شقين:

¹ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري- كتاب التفسير- باب ولم يلبسوا إيمانهم بظلم - حديث رقم 4353 - دار ابن كثير - بيروت - 1987م - أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري : صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب صدق الإيمان وإخلاصه - رقم 124 - دار إحياء التراث العربي - بيروت

² الأنعام - 84

³ الأنعام- 78

⁴ الأنعام- 79

⁵ الأنعام- 80

⁶ الأنعام- 81

⁷ الأنعام- 79

⁸ تمام حسان : المرجع السابق - ص 351

1- معنى مقالي: يتناول المعنيين : الوظيفي الذي يتم الوصول إليه من خلال تحليل البنية اللغوية على المستويات الثلاثة (الصوتيات، الصرف والنحو) ، وكذا المعنى المعجمي الذي يشكل جوهر المادة اللغوية والذي تحكمه تلك العلاقات الصرفية الاعتبارية القائمة بين المفردات ومعانيها كما هي مدونة في المعجم.

والمعنى الذي يتم الوصول إليه من خلال هذا المستوى بعيد في الحقيقة معنى جزئيا بالنسبة للمعنى الدلالي.

2- معنى مقامي: يتم التوصل إليه حين نربط الكلام بالمقام الذي قيل فيه. ويتضمن المقام كل ما يحيط بالحدث الكلامي من القرائن الحالية وظروف أداء الخطاب.⁽¹⁾

فهو بذلك يشمل أحوال المتكلم والسامع وما يجري بينهما وكذا الأشخاص المشاركين في الحدث الكلامي وما يستتبع ذلك من ملاسبات وعلاقات اجتماعية وظروف مختلفة في نطاق الزمان والمكان ويتسع مفهوم المقام والسياق ليشمل نسيج الثقافة الشعبية بمفهومها الواسع بما تعنيه من مجموع العادات والتقاليد والمعتقدات وطرق السلوك والعواطف الجماعية وما يشترك فيه أفراد المجتمع اللغوي من نظرة جماعية إلى الأحداث والأشياء.⁽²⁾

فالمقام إذن (والسياق) هو العنصر الاجتماعي في الدلالة ، وتبرز أهميته في تحديد المعنى بالنظر إلى الطبيعة الاجتماعية للغة ، فاللغة تواضع واصطلاح ، وهي بذلك نشاط اجتماعي واستجابة ضرورية لحاجة الأفراد إلى التواصل والتفاهم ، ووسيلة لنقل الأفكار والثقافة ، وهي بدورها تتأثر بكل الظواهر الاجتماعية تأثرا كبيرا ، وتختلف باختلاف البيئات الخاصة والعامة ، فهي بدوية في المجتمع البدوي ، ومتحضرة في المجتمع المتحضر وتختلف في ألفاظها وأساليبها باختلاف طبقات المجتمع ، فكل طبقة وكل جماعة وكل هيئة

¹ تمام حسان : المرجع السابق - ص 337، 339

² المرجع نفسه - ص 351 - 352

من أرباب المهن ... ، لكل من هذه المجموعات ثروتها اللفظية ولغتها الخاصة بها ، والتي تعكس خصائص الموضوعات والاهتمامات التي يتناولها أفراد المجتمع فيما بينهم.⁽¹⁾

وقد كان علماء العربية القدامى على وعي عميق ، بما للمقام من أهمية قصوى في سير أغوار النصوص اللغوية ، وتعرف معانيها بدقة ووضوح ، واعتبروا أنه كلما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً ، كان المعنى الدلالي أكثر وضوحاً.

وقد مثل ابن جني لذلك بقولهم: "رفع عقيرته" إذا رفع صوته ، موضحاً أن تحديد المعنى المقصود من هذه العبارة ، لا يتم بمجرد الاعتماد على مدلول ظاهر اللفظ ، دون ربط الكلام بالموقف الذي قيل فيه. إذ يقول : "فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت ، وبين معنى (ع ق ر) لبعد عنك وتعسفت ، وأصله أن رجلاً قطع إحدى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى ، ثم صرخ بأرفع صوته فقال الناس : رفع عقيرته.⁽²⁾ فقد تم تحويل دلالة لفظ (العقيرة) من معناه الأصلي وهو الجرح ، أو الرجل المعتوه ، إلى معنى الصوت ، ولا يدرك هذا التحول في الدلالة ، إلا من عرف المقام ، وأدرك سياق الحال الذي قيل فيه الكلام ، ولأجله وقعت التسمية. يقول ابن جني : " أن يكون الأول الحاضر شاهد الحال ، فعرف السبب الذي له ومن أجله وقعت التسمية ، والآخر لبعده عن الحال ، لم يعرف السبب للتسمية.⁽³⁾

ولقد أخذت فكرة المقام والسياق نصيبها من الاهتمام عند علماء الأصول والمفسرين ، الذين كان همهم وضع آليات تضبط عملية استنباط الأحكام من النصوص الشرعية،

¹ رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي- مكتبة الخانجي بالقاهرة - ط3 (1417هـ - 1997م) - ص129- 136

² ابن جني : المصدر السابق - ج1- ص 113 ، 262

³ المصدر نفسه - ج1- ص 113

فاشترطوا في من يتصدى لاستخراج الأحكام من نصوص القرآن أموراً ، أهمها معرفة أسباب النزول.

يقول الواحدي (ت427هـ) : " إذ هي - أي أسباب النزول - أوفى ما يجب الوقوف عليها ، وأولى ما تصرف العناية إليها ، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها ، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها." (1)

يقول أبو إسحق الشاطبي (ت790هـ) : " ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال " (2)

فلا ينبغي لمن يتصدى لتفسير الآية أن يغفل عن مقامها ويجهل سبب نزولها ، وإلا وقع في التأويل الفاسد ولتوصل إلى أحكام غير صحيحة. والمثال التالي يوضح ذلك (3)

قوله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ (4)

فإن ظاهر لفظ "لا جناح" يقتضي أن السعي من الأمور المباحة ليس فرضاً وبالتالي يصح الحج دونه، وهذا ما فهمه ابتداء عروة ابن الزبير قبل أن تصحح له أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - هذا الفهم الخاطئ.

1: الواحدي- أسباب النزول- دار ومكتبة الهلال- بيروت - ط2 - 1985م - ص8

2 أبو إسحق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة - شرح : الشيخ عبد الله دراز - دار الحديث - القاهرة - (1427هـ - 2006م) - ج 3 - ص241

3 أنظر أمثلة أخرى في: جلال الدين السيوطي : الإتيان في علوم القرآن - تقديم : د. مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير - دمشق - بيروت - ط 4 (1420هـ - 2000م) - ج1- ص 92 وما بعدها

4 البقرة - 158

روى البخاري في صحيحه أن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ - وأنا يومئذ حديث السن - : رأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ ﴿فَمَا أَرَى عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا إِلَّا يَطُوفُ بِهِمَا؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَلَّا ، لو كانت كما تقول كانت: فلا جناح عليه أن ألا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار ، كانوا يهلون لمناة ، وكانت مناة حذو قديد ، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ (1)

فعروة نظراً لحدائثة سنه لم يشهد التزليل ، فلم يعرف المقام الذي نزلت لأجله الآية ، فكان بحاجة إلى أن تخبره بذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - وهي من الصحابة الذين عاصروا التزليل ، وعاشوا ملابسات نزول النصوص القرآنية ، وشاهدوا من القرائن والأحوال ما غاب عن غيرهم ، فكانوا بذلك أقدر على فهم مراد الله ، وقد روى عن ابن مسعود - رضي الله عنه ، وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول الله (ص): "خذوا القرآن من أربعة" (2) - قوله: "والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله ، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته" (3)

¹ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري- كتاب التفسير- باب " إن الصفا والمروة من شعائر الله ... " حديث رقم 4225 - دار ابن كثير - بيروت - 1987م - أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري : صحيح مسلم - كتاب الحج - باب أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به - رقم 1277 - دار إحياء التراث العربي - بيروت

² صحيح البخاري - كتاب مناقب الأنصار - باب مناقب أبي بن كعب - رقم 3597 - صحيح مسلم - فضائل الصحابة - باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما - رقم 2464 - محمد بن عيسى الترمذي : سنن الترمذي - كتاب المناقب - باب مناقب عبد الله بن مسعود - حديث رقم 3819 - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

³ جلال الدين السيوطي : المصدر السابق - ج 2 - ص 1228

وقد نبه حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، عبد الله بن عباس في وقت مبكر ، إلى ما سيقع من انحراف في فهم النصوص بسبب جهل ملابساتها ، فقد نقل الشاطبي في "الموافقات" أن عمر -رضي الله عنه- خلا ذات يوم ، فجعل يحدث نفسه : كيف تختلف هذه الأمة ونبياها واحد وقبلتها واحدة، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن ، فقرأناه وعلمنا فيم نزل ، وإنه سيكون بعدنا أقوام ، يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأي ، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا ، قال : " فرجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه ، فأرسل إليه فقال: أعد علي ما قلت : فأعاد عليه فعرف عمر قوله وأعجبه (1). ثم نقل قول ابن عمر في الحرورتي قال: يراهم شرار الخلق ، أنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين ، فهذا معنى الرأي الذي نبه ابن عباس عليه. (2)

وقد أعطى الإمام الشاطبي لمصطلح أسباب التزول مفهوما واسعا ليشمل " معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التزليل" (3)

كما عمم فكرة السياق و لم يقصرها على نصوص القرآن من خلال فكرة أسباب التزول بل وسعها لتشمل نصوص السنة النبوية فقال: " وقد يشارك القرآن في هذا المعنى السنة، إذ كثير من الأحاديث وقعت على أسباب ولا يحصل فهمها إلا بمعرفة ذلك" (4) و ضرب أمثلة لذلك من نصوص السنة النبوية.

¹ أبو إسحق الشاطبي : المصدر السابق - ج3- ص 241 - 242

² المصدر نفسه - ج 3 - ص 242

³ المصدر نفسه - ج3- ص 243 - 244

⁴ المصدر نفسه - ج 3- ص 244 - 245

وقد أولى الدارسون اللغويون المحدثون عناية خاصة لعنصر المقام في تحديد الدلالة اللغوية ، وأكدوا ما للسياق من أثر في الإبانة عن المعنى، وعرفت مدرسة لندن من بين سائر المدارس اللسانية بنظرية السياق ، التي تبناها العالم اللساني (فيرث) ، الذي أكد على دراسة اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية بقوله : " إن اللغة ينبغي أن تدرس بوصفها جزءاً من المسار الاجتماعي ، أي كشكل من أشكال الحياة الإنسانية ، وليس كمجموعة من العلامات الإعتباطية أو الإشارات " ⁽¹⁾

ولهذا يصرح فيرث بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة. ⁽²⁾

لقد تبني فيرث مفهوم "سياق الموقف" ، وطوره إلى جملة من العلاقات التي يبنى عليها التحليل اللغوي ، وقد ميز في هذا الصدد بين نوعين من العلاقات ترتبط بهما الألفاظ:

1-علاقات داخلية أو شكلية: وتشمل العلاقات التي تربط وحدة لغوية معينة بالوحدات اللغوية في تتابع ما ، والعلاقات التركيبية بين الوحدات النحوية ، والعلاقات الفونولوجية بين الوحدات الصوتية ، وكذا العلاقات الاستبدالية للمفردات اللغوية حين نختار مفردة من مجموعة من المفردات.

2-علاقات موقفية: وتشمل العلاقات بين الوحدات اللغوية ومكونات الموقف غير اللغوية. ⁽³⁾

¹ نقلا عن : أحمد مومن : اللسانيات(النشأة والتطور) - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ط 2002م - ص174 - 175

² المرجع نفسه - ص68

³ المرجع نفسه - ص 175، 179

بناء على ما سبق فإن دراسة معاني الوحدات اللغوية في ظل هذه النظرية ينبني على تحليل للسياقات والمواقف التي ترد فيها سواء كانت هذه السياقات لغوية وحتى غير لغوية.



بعد هذا التحليل لمختلف العناصر التي لها دور في تشكيل الدلالة ، يتضح أن المعنى بطبيعته يتصف بشيء من التعقيد يجعل من الخطأ أن نتصور أن معنى الكلمة يعرف بمجرد الرجوع إلى معناها المعجمي كما تحدده قواميس اللغة . فالمعنى شيء معقد ، تشترك في تحديده جملة من العناصر ، بعضها لغوي ، وبعضها الآخر يمتد إلى ما وراء اللغة من ظواهر اجتماعية وعوامل ثقافية ، وأن أي عنصر مهما كانت أهميته لا يقوى أن يقوم منفرداً بتشكيل الدلالة . فاللغة مجموعة من المفردات التي تؤلف ثروتها اللغوية، وهي أيضا مجموعة من الأنظمة والقوانين التي تحكم بناء تلك المفردات ، وتضبط اجتماعها في تراكيب وجمل، ثم هي فوق ذلك شبكة من العلاقات الدلالية والمنطقية التي تربط بين المفردات ، والتي تعد انعكاساً لمجموع الثقافات والعادات والمعارف التي يحيها أبناء لغة في مجتمع ما . هذه المستويات المتشعبة تدخل في تحديد الدلالة ، وتجعلها أكثر تعقيداً .

المطلب الثالث: تصنيف الدلالات

مما سبق يتضح أن الدلالة اللغوية تشترك في تحديدها جملة من العناصر ، بعضها لغوي بدءاً بالأصوات ، وارتقاء إلى المفردات المعجمية والصيغ الصرفية ، ثم الجمل والتراكيب النحوية وصولاً إلى البلاغة والأسلوب ، وبعضها خارجة عن اللغة ، لكنها بوجه أو بآخر مرتبطة بها ، كالمعطيات النفسية والاجتماعية والثقافية ، التي تشكل المحيط الذي يتم فيه إنجاز الحدث الكلامي. هذه العناصر وإن كانت خارجة عن اللغة إلا أنها تسهم في تلوين المعنى ، و تضيي عليه ظلالاً وإيحاءات .

هذا ما حدا بعلماء الدلالة إلى التفريق بين أنواع من المعنى ، اختلفوا في حصرها وتسميتها، إلا أنه يمكن تصنيفها بحسب مدى ارتباطها بالبنية اللغوية إلى مستويين:

1. مستوى المعنى : وهو يضم نوعين من المعنى : المعنى الأساسي أو المركزي - والمعنى السياقي .

أ) المعنى المركزي :

ويسميه بعضهم المعنى المعجمي أو الأصلي ، ويسمى أحيانا المعنى التصوري أو المفهومي أو الإدراكي (1) . وقد عرف "نيدا" هذا النوع من المعنى بأنه المعنى المتصل بالوحدة المعجمية حينما ترد في أقل سياق أي حينما ترد منفردة (2). ويعد هذا النوع من المعنى العامل الأساسي للتواصل ، وبه تحقق اللغة وظيفتها الأساسية ، المتمثلة في نقل

¹ أحمد مختار عمر : علم الدلالة - ص 36

² نفس المرجع - ص 37

المفاهيم والتصورات ، وتحقيق التواصل بين أفراد المجتمع اللغوي ، الذين يشترط فيهم أن يشتركوا في العلم بالمعاني المعجمية للكلمات ، كما هي مدونة في المعجم ، إذ تعد هذه الأخيرة المخزون اللغوي المشترك لدى الجماعة اللغوية .

1. المعنى السياقي :

وبالرغم من أهمية المعنى المعجمي ، إلا أنه لا يكفي لوحده في تحقيق عملية التواصل ، ولا أدل على ذلك من أن كلمة مثل "عملية" يمكن أن تتوفر على عدة معانٍ مختلفة حين ترد في سياقات مختلفة : عملية عسكرية ، عملية جراحية ، عملية حسابية ... وهذا ما حدا ببعض اللسانيين — من أصحاب النظرية السياقية — إلى المبالغة في عدم الاحتفاء بالمعنى المعجمي للكلمات ، يقول مارتيني : " إن العنصر اللساني ليس له في الواقع معنى إلا في سياق و مقام معينين " (1).

واعتبر أن الكلمة خارج السياق لا تحمل إلا افتراضات دلالية ، أو معاني محتملة ، و أن أحد هذه المعاني يتحقق ضمن سياق معين (2) .

و يمكن التمثيل لذلك بالمشترك اللفظي ككلمة "عين" ، وبعض الكلمات التي لا يتحدد مدلولها إلا من خلال السياق الذي ترد فيه : مسمار للصيد ، ومسمار في الرجل (3) .

كما يمكن التمثيل لذلك بكلمة "ضرب" التي يتغير مدلولها باختلاف السياقات التي ترد فيها (4) :

¹ أندريه مارتيني : المرجع السابق - ص 37

² المرجع نفسه - ص 37 / ببيير حيرو : المرجع السابق - ص 56

³ ببيير حيرو : المرجع السابق - ص 55

⁴ أحمد حساني : مباحث في اللسانيات - ص 155 / عبد القادر عبد الجليل : علم اللسانيات الحديثة - ص 531 -

﴿ و اذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾⁽¹⁾ ضرب : أصاب الحجر بالعصى .

﴿ و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾⁽²⁾ ضربتم: سافرتم سعيتم .

﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ﴾⁽³⁾ ضربنا: أئمناهم .

﴿ و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾⁽⁴⁾ .

﴿ و لقد اوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر ﴾⁽⁵⁾ .
اضرب: اجعل لهم طريقا في البحر .

و يمكن إضافة سياقات أخرى :

ضرب له موعدا : حدد .

ضرب رقما بآخر : حسب .

ضرب الدرهم : سكه و طبعه .

ضرب عليهم الجزية : أوجبها .

¹ البقرة - 60

² البقرة - 101

³ الكهف - 11

⁴ يس - 13

⁵ طه - 77

و قد اعتبر بعض اللسانيين أن تصريح "مارتيني" وغيره ، بَلَدَ الكلمة خارج السياق لا تتوفر على معنى " تصريحاً مبالغاً فيه ، لأن الكلمة خارج السياق تتوفر على قيمة واحدة على الأقل (حتى لا نقول معنى واحد)" ⁽¹⁾

كما أن الكلمة إذا كانت تحمل عدة معان داخل المعجم ، فإن ذلك دليل على صلاحيتها لأن تستعمل في سياقات متعددة ، و يعد ذلك في نظر "مارتيني" نوعاً من الاقتصاد اللغوي ⁽²⁾ ، مادام كل دال يتوفر على مدلولات مقدره (محملة) ، يختار كل متكلم المدلول الذي يليق بهذا السياق أو ذاك المقام ⁽³⁾.

2. مستوى فوق المعنى :

ينطلق من التركيب الاسنادي ، ليكون استعمال الوسائل البلاغية ، معاني إضافية ليست في الألفاظ نفسها ، وليست في التراكيب في صورتها الوضعية ⁽⁴⁾.

هذه المعاني يسميها بعضهم معان إضافية ، أو عرضية ، أو ثانوية ، أو حافة ، أو إيجائية .
و تعددت تعريفات الدارسين لها :

" هو المعنى الذي يسلكه اللفظ عن طريق ما يشير إليه ، إلى جانب معناه التصوري الخالص " ⁽⁵⁾.

¹ سالم شاكر : المرجع السابق – ص 32

² أندريه مارتيني : المرجع السابق – ص 18 ، 153

³ سالم شاكر : المرجع السابق – ص 7

⁴ د. أحمد شامية : في اللغة - دراسة تمهيدية منهجية متخصصة في مستويات البنية اللغوية – دار البلاغ – الجزائر ط 1 (1423هـ - 2002م) – ص 158

⁵ أحمد مختار عمر : علم الدلالة – ص 37

— هي عبارة عن قيم عاطفية إضافية ، إذ كثيراً ما ينضاف إلى الدلالة الأساسية المركزية للوحدة الدلالية الدنيا ، قيم عاطفية فردية أو جماعية ، يصعب حصرها (1).

— هي عبارة عن مشتركات أخرى تتكون خارج المفاهيم ، وهي إذا كانت لا تحدث خللاً في المفهوم فإنها تضيف عليه من ألوانها (2).

من خلال هذه التعاريف يمكن أن نستخلص جملة من الخ صائص التي تميز هذا النوع من المعنى :

- أنه معنى زائد على المعنى الأساسي ، وليس له صفة الثبوت والشمول ، وإنما يتغير بتغير الثقافة أو الزمن أو الخبرة (3).

و يمثل بعضهم لذلك بما يروى عن "ابن الجهم" الشاعر ، الذي مدح الخليفة بأبيات شبهه فيها بالكلب و التيس ، دون أن يغضب الخليفة ، إذا ما قورن ذلك بما يحدث في العصر الحديث ، لو شبه إنسان بهذين الحيوانين (4).

- لا يشترط بالنسبة للمتكلمين بلغة معينة أن يتفقوا في المعنى أو المعاني الإضافية (5).

- المعنى الإضافي مفتوح وغير نهائي ، بخلاف المعنى الأساسي ، ويمكن أن يتغير المعنى الإضافي ويتعدل ، مع ثبات المعنى الأساسي (6).

¹ سالم شاكر : المرجع السابق - ص 8

² ببيرو جيرو : المرجع السابق - ص 7

³ أحمد مختار عمر : علم الدلالة - ص 37

⁴ المرجع نفسه - ص 37

⁵ المرجع نفسه - ص 38

⁶ المرجع نفسه - ص 38

- تتجلى وظيفة هذه المعاني الإضافية في تحديد و تلوين المعنى الأساسي ، ولكن تستطيع هذه الوظائف في حالة تطورها أن تحرفه و أن تطمسه ، أو أن تحل مكانه تماما ، ويشكل هذا الأمر قضية انزلاق المعنى (1).

- سماها بعضهم " بيير جيرو " قيما أسلوبية تميزاً لها عن المعنى ، لأن القيم عبارة عن مشتركات فوق دلالية ، لكنها تبقى مع ذلك مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعنى ، و هي تشكل موضوع دراسة خاصة هي الأسلوبية (2).

- هذه القيم إذن من مباحث علم الأسلوب ، الذي يهدف إلى الإجابة على التساؤل التالي :

" ما الذي يجعل الخطاب الأدبي الفني مزدوج الوظيفة والغاية ، يؤدي ما يؤديه الكلام عادة ، وهو إبلاغ الرسالة الدلالية ، ويسلط مع ذلك على المتقبل تأثيراً ضاغظاً ، به ينفعل للرسالة المبلغة انفعالاً ما " (3).

هذا النوع من المعنى مرتبط بالوظيفة الشعرية للغة ، ذلك أن اللغة لها وظيفة مزدوجة:

- وظيفة منطقية إدراكية : فهي تقوم بإيصال المفاهيم إلى ذهن المخاطب .
- وظيفة شعرية : حين تقوم اللغة بإيصال المشاعر والانفعالات والرغبات والمقاصد (الإيصال الاجتماعي) (4).

ونظراً لهذه الخصائص التي يتميز بها هذا النوع من المعنى (مفتوح وغير نهائي - متغير وليس له صفة الثبوت - لا يشترط في المتكلمين بلغة معينة أن يتفقوا عليه ...)، فإن

¹ بيير جيرو : المرجع السابق - ص 63 - 64

² نفس المرجع - ص 57 - 58

³ منقور عبد الجليل : علم الدلالة - أصوله ومباحثه في التراث العربي - ص 69 - من منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2001

⁴ بيير جيرو : المرجع السابق - ص 58

الدارسين للدلالة اختلفوا في تقسيماته وتفريعاته ، فذكروا : المعنى الأسلوبى - المعنى الإيحائى - المعنى النفسى - المعنى السياقى ...¹ ، وكلها تدرج تحت مسمى المعاني الحافة . وقد اعترف ليتش (leech) بصعوبة رسم حدود بين هذه الأنواع من المعنى وغيرها ، ولذلك يختلف اللغويون في في عدها وفي تسميتها⁽²⁾ .

و قد قسمها بعضهم⁽³⁾ إلى قسمين :

(أ) معان حافة فردية : وهي ذاتية خاصة بتجارب الفرد ، فالكلمات لا توحى بنفس الأشياء لجميع الناس⁽⁴⁾ .

ويظهر هذا النوع من المعنى بوضوح في الكلمات التي تعبر عن انفعالات ورغبات ومقاصد المتكلم. فجملة " أنتم هنا " تعني في أصلها الوضعي دائما الحضور ، ولكنها تعبر طبيعياً عن الدهشة ، حين تكون مصحوبة ببعض الحركات وإشارات الوجه والانحناءات الصوتية ... إلخ ، التي تعبر عن انفعالات المتكلم ودهشته وتعجبه ، وحينئذ تصير جملة " أنتم هنا " مساوية لـ : " أنا مندهش جدا لرؤيتكم " أو " لقد دهشت فعلا لرؤيتكم " ⁽⁵⁾ .

و نجد هذا النوع من المعنى بخاصة في ك تطبقت الأدباء والشعراء⁽⁶⁾ ، الذين تمكنهم قدراتهم الإبداعية من تجاوز الدلالات المركزية للألفاظ ، وخرق حدودها والولوج إلى الفضاء

¹ أحمد مختار عمر : المرجع السابق - ص 36 - 41 - عبد القادر عبد الجليل : المرجع السابق - ص 523 - 551

² أحمد مختار عمر : علم الدلالة - ص 41

³ بيير جيرو : المرجع السابق - ص 58 - سالم شاكور : المرجع السابق - ص 8

⁴ سالم شاكور : المرجع السابق - ص 8

⁵ بيير جيرو : المرجع السابق - ص 58 - 60

⁶ مختار عمر : المرجع السابق - ص 39

اللامتناهي للدلالات الهامشية بما يضيف على المعنى ظلالاً وألواناً من القيم الجمالية والأسلوبية التي تزيد النص متعة.

ب) معان حافة جماعية أو ثقافية : وهي خاصة بمجموعة بشرية ، مثال ذلك القيمة القدحية المرتبطة بكلمة " ثعلب " في اللغة الفرنسية ، وما توحيه أيضاً كلمة " ثور " من بطة وقوة وغباء (1).

والكلمات من جهة أخرى تستدعي صورة هؤلاء الذين يستخدمونها ، كما تستدعي صورة الحالات التي اشتركت فيها ، فالمرء حين يتكلم يكشف بشكل لا إرادي عن وسطه الاجتماعي وعن مهنته وموقعه تجاه محدثه ... إلخ . ويتم هذا كله عبر مشتركات تنفذها الكلمات وتضاف إلى معانيها ، وتصبح لهذه الكلمات قدرة على استدعاء تلك المشتركة الفوق دلالية ، وهي طريقة أسلوبية يعبر بها عن وجه خاص من وجوه المعنى (2).

تصنيف الدلالات في التراث اللساني العربي :

ولعلماء العرب القدامى من مناطق وأصوليين ولغويين تقسيمات للدلالات باعتبار ات كثيرة ، نكتفي بذكر أهمها: (3)

1. باعتبار نوعية الدال : فقد يكون الدال لفظاً ، وقد يكون غيره ، كالخط والإشارة والنسبة ... وهي تنقسم بهذا الاعتبار إلى : لفظية وغير لفظية .

¹ سالم شاكر : المرجع السابق - ص 8

² ببيرو جيرو : المرجع السابق - ص 61

³ ابن أمير الحاج الحلبي : التقرير والتحبير شرح التحرير في أصول الفقه لكمال الدين بن الهمام- ضبط وتصحيح : عبد الله محمود محمد عمر - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 (1419هـ - 1999م) - ج 1 - ص 130 - 131 / بدر الدين الزركشي : البحر المحيط في أصول الفقه- راجعه : د. عمر سليمان الأشقر - دار الصفوة - مصر - ط 2 (1413هـ - 1992م) - ج 2 - ص 37 وما بعدها

2. باعتبار طبيعة العلاقة القائمة بين طرفي الدلالة (الدال والمدلول) : فقد تكون هذه العلاقة :

- عرفية (وضعية) : إذا كان التلازم بين الدال والمدلول بعلة الوضع .
- عقلية : إذا كان التلازم بينهما بالعقل ، كدلالة الأثر على المؤثر والعكس ، ومثاله دلالة الدخان على النار .
- طبيعية : إذا كان التلازم بين الدال والمدلول بالطبع ، كدلالة حمرة الوجه على الخجل وصفرته على الوجع .

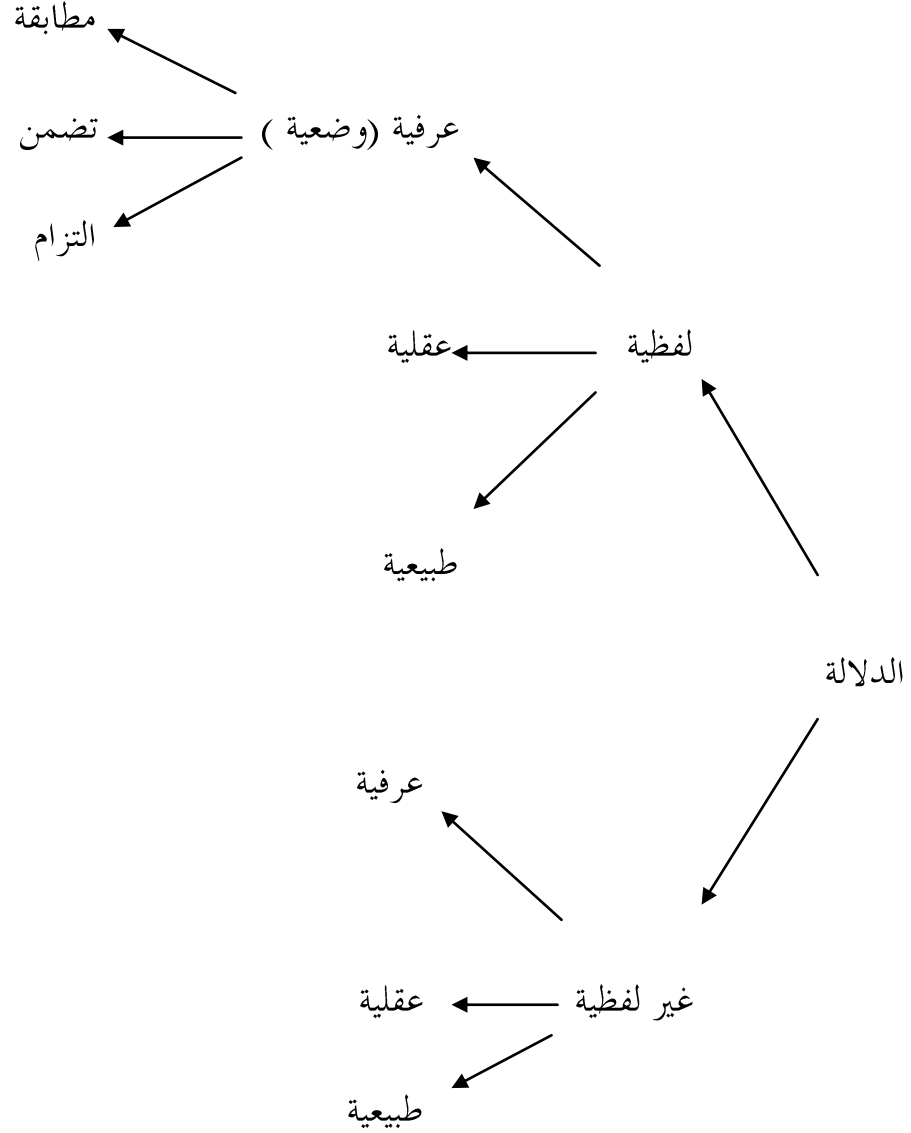
3. ولهم تقسيم ثالث خاص بالدلالة اللفظية الوضعية : فاللفظ إما أن يدل على تمام ما وضع له ، أو على جزئه ، أو على شيء خارج عنه لازم له. فالأولى دلالة المطابقة ، والثانية دلالة التضمن ، والثالثة دلالة الالتزام .

مثال دلالة المطابقة : دلالة البيت على المجموع المركب من الجدار والسقف.

مثال التضمن : دلالة البيت على الجدار فقط.

مثال الالتزام : دلالة الأسد على الشجاعة

و قد دمجوا هذه الاعتبارات الثلاثة في تقسيم واحد فقالوا :



هذا التشجير كان منطلق البحث في الدلالة في تراثنا العربي ، وكانت الدلالة اللفظية الوضعية - على وجه الخصوص - بأنواعها الثلاثة : المطابقة والتضمن والالتزام ، المحور الذي دارت حوله دراسات علمائنا في مختلف المجالات المعرفية ، من منطقة وأصوليين وبلاغيين ، وقد انحصر شغل البلاغيين في دلالاتي التضمن والالتزام لتفاوتهما في الظهور والخفاء ، وفسروا بهما أساليب البيان التي درسوها ، كالاستعارة والمجاز والكناية.⁽¹⁾

¹ : القزويني جلال الدين الخطيب : الإيضاح في علوم البلاغة- راجعه: عماد بسيوني خليل - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط3 - ص 122

كان عبد القاهر قد وضع منابع هذه الأفكار ، حين جعل المدلولات المستفادة من الألفاظ
ضريين سماهما : المعنى ، ومعنى المعنى : " تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ ، والذي
تصل إليه بغير واسطة ، ومعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنىً ، ثم يفضي بك ذلك المعنى
إلى معنى آخر " (1)

واعتبر أن النوع الثاني (معنى المعنى) له اتساع وتفنن لا غاية له ، وجعله دائراً على
شيئين: الكناية والمجاز.

ولما كان هذا النوع الثاني الذي سماه الجرجاني " معنى المعنى " غير محدد ، استبعده المناطقة
من حقلهم ، لأن اهتمامهم كان منصباً على وضع التعاريف والحدود الضابطة للمفاهيم ،
والتي اشترطوا فيها أن تكون جامعة مانعة ، يقول أبو حامد الغزالي : " والمعتبر في
التعريفات دلالة المطابقة والتضمن ، فأما دلالة الالتزام فلا ، لأنها ما وضعها واضع اللغة ،
بخلافهما ، لأن المدلول فيها غير محدود ولا محصور ، إذ لوازم الأشياء ولوازم لوازمها لا
تنضبط ولا تنحصر ، فيؤدي إلى أن يكون اللفظ دليلاً على ما لا يتناهى من المعاني ، وهو
محال " (2)

وللشاطبي من علماء الأصول وقفة خاصة في هذه المسألة حيث ميز بين نوعين من اللالة
اللفظية :

الدلالة الأصلية : وهي التي ينظر فيها إلى دلالة الألفاظ بوضعها الأصلي ، مجردة من
القرائن الصارفة لها عن مقتضى الوضع الأول . ومن ذلك صيغ الأوامر والنواهي
والعمومات بدلالاتها الوضعية .

¹ عبد القاهر الجرجاني : المصدر السابق - ص 263

² أبو حامد الغزالي : معيار العلم في فن المنطق - ص 43

الدلالة التبعية : وهي التي ينظر فيها إلى الألفاظ وما يتعلق بها من توابع وإضافات ، وذلك بالنظر في القرائن والأحوال بحسب المخبر والمخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار في الحال والمساق ، ونوع الأسلوب من الإيضاح والخفاء... وغير ذلك.⁽¹⁾

ولما كان هم الأصوليين كيفية استنباط الأحكام من النصوص ، فقد بحث الشاطبي الوجه الذي تستفاد منه الأحكام . فقرر أن الوجه الأول (المعاني الأصلية) لا إشكال في صحة اعتباره في الدلالة على الأحكام ، وذكر الخلاف في اعتبار الوجه الثاني (المعاني التبعية) ، غير أنه يعود ليقرر في الأخير أن الوجه الثاني صالح للدلالة على " آداب شرعية ، وتخلقات حسنة يقر بها كل ذي عقل سليم ، فيكون لها اعتبار في الشريعة "⁽²⁾

* * *

نخلص من هذا كله إلى أن مجال الدلالة واسع ، يأبى أحيانا على الضبط والتقعيد ، وقد صرح الغزالي بأن دلالة الالتزام لا تنضبط ولا تنحصر ، ويقترّب منه الجرجاني في معنى المعنى ، والشاطبي في المعاني الأصلية والمعنى التبعية . ولعل هذا النوع من الدلالة يناسب ما سماه المحدثون من علماء الدلالة بالمعاني الحافة الإضافية ، والتي تعتبر مجالاً خصباً للدراسات الأسلوبية والنقدية التي تستهدف إبراز الجوانب الفنية في العمل الأدبي ، حين تكون اللغة فيه مزدوجة الوظيفة والغاية ، " تؤدي ما يؤديه الكلام عادة ، وهو إبلاغ الرسالة الدلالية، وتسلسل مع ذلك على المتقبل تأثيراً ضاعطاً ، به ينفعل للرسالة المبلغة انفعالاً ما "⁽³⁾

¹ : أبو إسحق الشاطبي : المصدر السابق- ج 2 - ص 307- 308

² المصدر نفسه- ج 2 - ص 332

³ : د.عبد السلام المسدي : الأسلوبية والأسلوب- الدار العربية للكتاب- ليبيا - ط 3 - ص 36

الفصل الثاني : الدلالة الصوتية

دراسة نظرية لعلاقة الصوت بالدلالة

المبحث الأول : الدلالة الصوتية عند المتقدمين والمتأخرين

المبحث الثاني : الصوت والنفس البشرية

المبحث الثالث : الخصائص الصوتية للقرآن الكريم

المبحث الأول : الدلالة الصوتية عند المتقدمين والمتأخرين

المطلب الأول : الدلالة الصوتية عند علماء العرب القدماء
المطلب الثاني : الدلالة الصوتية في الدراسات الحديثة

المبحث الأول : الدلالة الصوتية عند المتقدمين والمتأخرين:

لقد شكلت قضية العلاقة بين مضمون اللغة (الأفكار والمعاني) وقالها الصوتي أهم القضايا اللغوية والفكرية التي ناقشها الدارسون منذ القدم ، و كان مما استرعى اهتمام مفكري اليونان مسألة الصلة بين اللفظ ومدلوله ، فذهب أفلاطون فيما يرويّه في محاوراته عن أستاذه سقراط إلى القول بالصلة الطبيعية أو الذاتية بين اللفظ ومدلوله ، ك الصلة التي بين الأسباب الكونية والقوانين الطبيعية وما يتسبب منها ، كتسبب الاحتراق عن النار ، فاللفظ يثير في الذهن مباشرة مدلوله . وحين لم يسعفهم الأمر على إثبات هذه الصلة في بعض ألفاظ لغتهم اليونانية ، لجأوا إلى افتراض أن تلك الصلة الطبيعية كانت واضحة في بداية نشأتها ، ثم تطورت الألفاظ ولم يعد من اليسير أن نتبين بوضوح تلك الصلة أو نجد لها تعليلاً أو تفسيراً.⁽¹⁾

وكان هناك فريق آخر في المقابل يرى أن الصلة بين اللفظ والمعنى اصطلاحية عرفية ، يتواضع عليها الناس في مجتمع ما ، وقد تصدّر هذا الرأي وترعّمه أرسطو ، الذي بين عرفية العلاقة بين اللفظ ومدلوله في مقالات له بعنوان : الشعر والخطابة⁽²⁾.

وقد انتقل هذا النقاش إلى الحضارة العربية الإسلامية ، وشغل به الدارسون العرب طويلاً ، وما زال الجدل والأخذ والرد في المسألة يأخذ نصيبه في الدراسات الحديثة.

¹ إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ - ط 5 (1984م) - مكتبة الأنجلو المصرية - ص 62 - 63

² المرجع نفسه - ص 63

المطلب الأول : الدلالة الصوتية عند علماء العرب القدماء :

لقد احتلت قضية علاقة الصوت بالدلالة قطب الرحي في الدراسات اللغوية عند العرب، ودارت مناقشات حول إشكالية (اللفظ والمعنى) شغلت الدارسين مدة طويلة. وكان أول إشكال طرح وطال الجدل بشأنه هو : طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول :

■ هل اللفظ يدل بذاته على المعنى ؟

■ أم بوضع الله إياه ؟

■ أم بوضع الناس ؟

وارتبط الخلاف الواقع في هذه المسألة بمسألة أخرى جلبت اهتمام الدارسين العرب ، وهي مسألة نشأة اللغة : أتوقيف هي أم اصطلاح ؟ وقد أسهب السيوطي في عرض مختلف الآراء في هذه المسألة.⁽¹⁾

ويمكن تصنيف الدراسات التي دارت حول هذه المسألة في اتجاهين متناقضين :

نادى أحدهما بالصلة الذاتية بين الدال والمدلول ، و يعدّ عباد بن سليمان الصيمري- المعتزلي- من أشهر العلماء الذين عرفوا بالقول بأن الألفاظ تدل على المعاني بذواتها ، وكان يقول " :إنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، وإلاّ كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح . وكان بعض من يرى رأيه يقول : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل عن مسمى (أدغغ) وهو بالفارسية الحجر ، فقال : أجد فيها ييسا شديدا وأراه الحجر⁽²⁾.

¹ جلال الدين السيوطي : المزهري في علوم اللغة وأنواعها - ضبط وتصحيح : محمد أحمد جاد المولى - علي محمد الجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر - ج 1 - ص 08 - 30

² المصدر نفسه - ج 1 ص 47

إلا أن أغلب الدارسين لم يأخذوا برأي عباد ، القائل بالصلة الطبيعية الذاتية بين اللفظ والمعنى ، واعتبروا العلاقة بين الدال والمدلول لا تعدو أن تكون علاقة عرفية اصطلاحية . يقف على رأس هؤلاء عبد القاهر الجرجاني حيث يقول : " نظم الحروف هو تواليها في النطق ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغة كان قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد" ⁽¹⁾

يشير عبد القاهر في كلامه هذا إلى مبدأ اعتبارية العلاقة بين الدال والمدلول ، وهو المبدأ الذي تنادي به اللسانيات المعاصرة ، حسب ما قرره أحد روادها في العصر الحديث فردينان دي سوسير *ferdinand de saussure* الذي يرى أن العلاقة التي تربط الدال بالمدلول علاقة اعتبارية ، أساسها التواضع والاصطلاح ، على الرغم من وجود حالات استثنائية تكون العلاقة فيها طبيعية ، كما في الكلمات المحاكية لأصوات الطبيعة (*onomatopées*) ، ولكن عددها محدود جدا ، فتبقى لذلك حالات استثنائية لا تصلح لأن تكون نظاما لسانيا .⁽²⁾

لعل من المفيد ونحن نتابع دراسات علمائنا لهذه المسألة ، أن نوجه نظرنا إلى اتجاهين ، أولى كل منهما اهتماما بالغا بالعلاقة بين اللفظ والمعنى : يمثل الاتجاه الأول فريق من النقاد والبلاغيين ، اهتموا بالمسألة من جانبها الجمالي الفني ، بما يتوافق مع طبيعة دراستهم التي تنصب أساسا حول الأعمال الأدبية ، لاكتشاف ما فيها من مزايا فنية وخصائص إبداعية . فيما يمثل الاتجاه الثاني طائفة من اللغويين درسوا بعمق الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها ، وتوصلوا فيها إلى نتائج مثيرة للانتباه .

¹ عبد القاهر الجرجاني : دلالات الإعجاز - تعليق : محمود محمد شاكر - مطبعة المدني (السعودية - مصر) - ط3 (1413 هـ - 1992م) - ص 49

² دي سوسير : دروس في اللسانيات العامة - ص 111

1. الدراسات الجمالية عند النقاد والبلاغيين:

مما يلاحظ في دراسات النقاد والبلاغيين اهتمامهم بالجانب الجمالي للصوت من حيث انسجام الحروف داخل الكلمة والتركيب ، يظهر ذلك جليا من خلال تناولهم لمسألتين احتلتا حيزا واسعا في دراساتهم : مبحث الفصاحة - وقضية اللفظ والمعنى

● الفصاحة:

من المباحث التي أولاها علماء البلاغة اهتماما في مصنفاتهم مبحث الفصاحة ، وقد استقر الأمر عند المتأخرين منهم أن من شروط فصاحة الكلمة المفردة خلوصها من أمور ثلاثة : التنافر، والغرابة ، والمخالفة للقواعد .

و التنافر وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها .

وعدوا من شروط فصاحة الكلام خلوصه من أربعة أمور : التنافر ، وضعف التأليف والتعقيد ، وأن تكون كلماته كلها فصيحة.

والتنافر أن تكون الكلمات ثقيلة على اللسان لتقارب مخارجها أو لتكرار بعض الحروف.⁽¹⁾

لقد ركز علماء البلاغة اهتمامهم في الحكم بفصاحة الكلمة على الجانب الجمالي ، الذي عبروا عنه بالحلاوة والطلاوة والسلاسة والعذوبة... ، فالفصيح عندهم هو الحسن الذي تظهر سهولته على اللسان وعذوبته في السمع ، والقبيح الذي يثقل على اللسان ويكرهه السمع وينفر عنه ، والمرجع في ذلك إلى مدى تلاؤم الأصوات أو تنافرهما.

¹ جلال الدين الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة- راجعه : عماد بسيوني زغلول- مؤسسة الكتب الثقافية بيروت-

هذا ما يمكن استنتاجه من تتبع المعايير التي اعتمدها في الحكم بالفصاحة ، سواء بالنسبة للكلمة المفردة أو ما يختص بتأليف الكلام ، وإن اختلفت عباراتهم في تفسير التلاؤم والتنافر.

فمعيار التنافر عند **الرماني (ت 386هـ)** تقارب مخارج الحروف تقارباً شديداً ، أو تباعدها بعداً شديداً ، وحكى ذلك عن الخليل بن أحمد : " وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمثلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمثلة مشيء المقيد ، لأنه بمثلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال ، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال " ⁽¹⁾.

والفائدة في مراعاة التلاؤم في الحروف واعتدال مخارجها ، تنحصر في نظر الرماني في الجانب الجمالي للفظ ، ولا يعدو ذلك أن يكون طريقاً لتقبل المعنى في النفس ، لما يصل إليها في ثوب مكسو بحلل الزينة والبهاء. يقول : " والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى في النفس ، لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحرف ، وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت في الصورة ، وإن كانت المعاني واحدة " ⁽²⁾.

فالمعاني في الحالتين واحدة لا أثر للفصاحة وتلاؤم الحروف فيها.

¹ الرماني : النكت في إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق : محمد خلف الله - د. محمد زغلول سلام - ط 2 / 1387 هـ - 1968 م - دار المعارف بمصر - ص 96

² المصدر نفسه - ص 96

وننتقل إلى ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) ، فقد فصل في مؤلفه " سر الفصاحة " معايير الفصاحة ، وحددها في جملة من الشروط ، يرجع بعضها إلى التلاؤم الصوتي ، الذي يتحقق في نظره بأمور أهمها :

1- أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، ولذلك أهملت في العربية الكلمات المبنية من حروف تقاربت مخارجها ، لصعوبتها في النطق ، ولحروف الحلق مزية خاصة في القبح ، إذا كان التأليف منها فقط ، ولذلك فإنها قلما تجتمع في كلمة واحدة ، دون فصل يقع بينها ، طلبا للخفة وتجنبنا للثقل ، ولذلك أيضا لم تتجاوز القاف والكاف والجيم في كلمة واحدة ، ولا الصاد والسين والزاي ، لصعوبتها في النطق وثقلها في السمع ، ليس في كلام العرب: قج - جق - كج - جك - قك - كف - صص - صس ...
ومما حكم بقبحه لتقارب مخارجه في الكلمة المفردة ، لفظ "المعنع"⁽¹⁾ ، وفي تأليف الكلام قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر .

فهو مبني من حروف متقاربة ومكررة ، يثقل النطق بها ، حتى زعم بعض الناس أنه من شعر الجن ، ويختبر المتكلم بإنشاده ثلاث مرات من غير غلط ولا توقف.⁽²⁾

والملاحظ هنا أن ابن سنان خالف الرماني في معيار التنافر ، فإذا كان الرماني يرى التنافر فيما تقاربت مخارجه قريبا شديدا ، أو تباعدت بعدا شديدا ، فإن ابن سنان لا يرى التنافر في تباعد مخارج الحروف ، مستدلا لذلك بكلمة "ألم" فالهمزة من أقصى الحلق ، والميم من الشفتين ، واللام متوسطة بينهما ، ومع ذلك لاتنافر بينهما ، وكذلك (أو) و (أم).⁽³⁾

¹ ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة- دار الكتب العلمية- بيروت - ط 1 (1402 هـ - 1982م) - ص 57 - 64

² المصدر نفسه - ص 68

³ المصدر نفسه - ص 101 - 102

2- طريقة ترتيب الحروف وتأليفها : فلا يتحقق التلاؤم فقط بتباعد مخارج الحروف ،
مالم يتم مراعاة ترتيبها ، بتقديم ماينبغي تقديمه ، وتأخير ما يجب تأخيره ، وكل ذلك مراعاة
للنغم المستفاد من تناسق جرس الأصوات.

وضرب ابن سنان لذلك مثلاً بمادة "ع ذ ب" ، فإن السامع يجد لها بهذا الترتيب : عذب -
عذاب... مالا يجده لو قدم أو أخر ، "وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخارج فقط ،
ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدمت الذال أو الباء ، لم تجد الحسن على الصفة
الأولى في تقديم العين على الذال ، لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير".⁽¹⁾
وقد يكون حسن تأليف الأصوات في الكلمة من جهة الاشتقاق ، كالذي في قول المتنبي :

إذا سارت الأحداج فوق نباته تفواح مسك الغانيات ورنده

فكلمة "تفواح" عذبة سلسلة في غاية الحسن ، وليس مصدر عذوبتها بعد مخارج أصواتها
فقط ، بل السر في ذلك مجيئها بصيغة "تفاعل" ، وقد قيل أن المتنبي أول من نطق بها على
هذا المثال.⁽²⁾

3- أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية ، ومن ذلك ما يروي عن أبي علقمة النحوي
قوله : " ما لكم تكأ كاتم علي تكأ كؤ كم على ذي جنة ، افرنقعوا عني " فإن كلمتي :
(تكأ كاتم ، وافرنقعوا) وحشي مع قبح التأليف الذي يمجح السمع والتوعر.
وقول أبي تمام:

بنداك يوسي كل جرح يعتلي رأب الأساء بدرديس قنطر.⁽³⁾

¹ المصدر نفسه - ص 65

² المصدر نفسه - ص 65 - 66

³ المصدر نفسه - ص 66 - 67

4- أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف ، ومثال ذلك كلمة (سويداواتها) في قول المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها.⁽¹⁾

هذه جملة الشروط التي حاول ابن سنان من خلالها ضبط معايير الحكم على الكلمة بالفصاحة أو عدمها ، وقد قصرها على ما يحقق السهولة في النطق ، والخفة على اللسان ، والعدوابة في السمع ، ولا علاقة لشيء منها بالدلالة. و نصل إلى ابن الأثير (ت630هـ)، وقد انفرد عن سابقيه باعتماد معيار الطبع المستقيم والذوق السليم في معرفة الفصيح من غيره. والفصيح عنده هو الحسن من الألفاظ بحسن أصواته ، والحكم في ذلك الذوق وحاسة السمع ، فما استلذه السمع ومال إليه فهو الحسن ، وما كرهه السمع ونفر منه فهو القبيح.

يقول : " الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، وإنما كان ظاهرا بينا لأنه مألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ ، لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة "⁽²⁾.

و النتيجة لما قرره هنا أنه " لا حاجة إلى ما ذكر من تلك الخصائص والهيئات التي أوردها علماء البيان في كتبهم ، لأنه إذا كان اللفظ لذيذا في السمع كان حسنا ، وإذا كان حسنا دخلت تلك الخصائص والهيئات في ضمن حسنه "⁽³⁾.

¹ المصدر نفسه - ص 87 - 88

² ضياء الدين ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- تحقيق: د. أحمد الحوفي - د. بدوي طبانة - دار نهضة مصر - القاهرة - ط 2 - ج 1 - ص 92

³ المصدر نفسه - ج 1 - ص 170

يشير ابن الأثير بذلك إلى ما اشترطه علماء البلاغة من أوصاف لفصاحة الكلمة ، فلا حاجة إليها في نظره ، مادام المرجع في ذلك الذوق السليم والطبع المستقيم ، وحاسة السمع وما تستلذه أو تستقبحه، وهو بذلك يحيل القارئ والمستمع إلى الاحتكام للذوق وحاسة السمع ، ليميز بين الفصيح وغيره ، ويدرك الفروق التي بين "أغصان البان" و"عساليج الشوحط" ، وبين لفظي "المدامة" والإسفنط" ، وكذا "السيف" و"الخنشليل" ، أو "الأسد" و"الفدوكس".⁽¹⁾

إن لفصاحة الكلمة والكلام في نظر ابن الأثير آثارا يحسها المتكلم والمستمع ، بحيث يجد لها الأول حلاوة في اللسان ، بسبب سهولة نطقها وخفته ، ويجد لها الثاني عذوبة في السمع لتلاؤم أصواتها.

" ومن له أدنى بصيرة ، يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل"⁽²⁾. و بناء على اعتماد ابن الأثير هذا المعيار ، فإنه يخالف تماما ما ذهب إليه ابن سنان فيما وضعه من شروط لفصاحة الكلمة ، حيث عقب على كلامه قائلا : " وفي الذي ذكره ما لا حاجة إليه.... ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام ، بحسن ما يحسن من الألفاظ وقبح ما يقبح"⁽³⁾.

فحسب الألفاظ وتلاؤمها راجع إلى حاسة السمع ، ولا عبرة بتباعد المخارج كما اشترط ابن سنان ، ولا أدل على ذلك - في نظر ابن الأثير - من أنه قد يجيء في المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ، وقد يجيء في المقابل أيضا من المتباعد المخارج شيء قبيح.

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 170

² المصدر نفسه - ج 1 - ص 171

³ المصدر نفسه - ج 1 - ص 172 - 173

- مثال الأول: مجيء بعض الألفاظ ، ائتلفت فيها حروف من مخرج واحد ، كالحروف الشجرية (ج ، ش ، ي) وقد اجتمعت في مثل : جيش - شجى ، وهي حسنة فصيحة. وكذا الحروف الشفوية (الباء والميم والفاء) ، نظم منها شيء من الألفاظ الحسنة الجميلة مثل : فم ، ذقته بغمي.

- ومثال الثاني: أننا قد نؤلف لفظاً من حروف متباعدة المخارج ، كالميم واللام والعين في (ملع) ومع هذا فإن هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ، ينبو عنها الذوق السليم ، ولو قلبناها وقلنا (علم) كانت حسنة ، مع أنه لم يتغير شيء من مخارجها.⁽¹⁾ وبناء على اعتماده معيار حاسة السمع حاكماً على فصاحة الكلمة أو عدمها ، لم يعتبر ابن الاثير ما اشترطه ابن سنان من أوصاف الكلمة ، أن تكون مؤلفة من أقل الاوزان تركيباً ، وقد مثل له بقول المتنبي:

إن الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

فلفظة (سويداواتها) قبيحة ، ولكن سبب قبحها ليس طولها ، وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة ، والدليل على ذلك أنه ورد ما هو أطول منها في القرآن الكريم ، في قوله تعالى: ﴿فسيكفيهم الله﴾⁽²⁾ وقوله عز وجل: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾⁽³⁾ وكتاهما حسنة رائعة.⁽⁴⁾

فسبب القبح والحسن ليس الطول والقصر ، وإنما هو نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض ، ولذلك تجتنب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها ، سواء كانت طويلة أو قصيرة ، كقول امرئ القيس:

غدائره مستشزرات إلى العلا تفضل المداري في مثنى ومرسل

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 174

² البقرة - 137

³ النور - 55

⁴ المصدر نفسه - ج 1 - ص 204

فلفظة (مستشزرات) مما يقبح استعمالها ، لأنها تثقل على اللسان ويعسر النطق بها ، وليس ذلك بسبب طولها ، لأننا لو قلنا (مستنكرات) أو (مستنفرات) ، لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة ، ولو حذفنا منها بعض الحروف وقلنا (مستشزر) ، لكان ذلك ثقيلًا ، لصعوبة نطق الشين قبلها تاء وبعدها زاي.⁽¹⁾



وأهم ما يلاحظ في دراسة علماء البلاغة لفصاحة الكلمة ، أنهم نظروا إلى التلاؤم بين الحروف بعضها مع بعض ، ولم ينظروا إلى تلاؤمها مع المعنى المقصود.

فالكلام الفصيح هو الحسن ، وضده القبيح ، والحسن في السلاسة والطلاوة والعدوبة والحلاوة ، وكلها صفات تتحقق بتلاؤم الحروف والأصوات في الكلمة أو داخل التركيب اللغوي ، بغض النظر عن المعنى الذي يحمله اللفظ.

وقد عاب بعض المعاصرين (²) اهتمام النقاد والبلاغيين القدامى بالجانب الجمالي للفظ ، وعدم انتباههم في الحكم بالفصاحة أو القبح إلى أن المعنى المقصود ، والعاطفة التي يريد الشاعر التعبير عنها ، قد يقتضيان أحيانًا استعمال أصوات متنافرة ، فهناك رابطة عضوية حية بين اللفظ ومعناه ، فقد يقتضي المقام هذا التنافر ، وهناك صلة وثيقة بين طريقة التعبير والصورة التي يريد الشاعر أو الأديب رسمها.

ولذلك استحسنوا ما عابه البلاغيون والنقاد في بيت امرئ القيس يصف شعر محبوبته :

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 206

² محمد النويهي: المرجع السابق - ص 44 وما بعدها- عبد الله الطيب: المرشد في فهم أشعار العرب - ص 18 وما بعدها

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل

فإن لفظ (مستشزرات) وإن كانت حروفه متنافرة وثقيلة في النطق ، إلا أن التنافر في هذا المقام لازم لزوماً فنياً مؤكداً ، لأن الشاعر يريد رسم صورة الشعر الكثيف الكثير الخصلات المتداخل ، ولفظة (مستشزرات) تنطبق بتعقيدها وتداخل حروفها على تلك الصورة.⁽¹⁾

وقد استعمل امرؤ القيس ألفاظاً مماثلة في وصف هذا الشعر الكثيف المتداخل فقال :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعشکل

فلفظ (المتعشکل) مع تنافر أصواته ، منسجم بحروفه وترتيب مقاطعه مع صورة الشعر الكثيف المتداخل التي يريد الشاعر رسمها.⁽²⁾

وقد تتبع **د. محمد النويهي** الكثير من أبيات الشعر ، التي عاب النقاد والبلاغيون على أصحابها استعمال ألفاظ متنافرة الحروف ، ومن ذلك قول تأبط شرا :

قليل ادخار الزاد إلا تعلقة فقد نشز الشرسوف والتصق المعا

مما لاشك فيه أن عبارة " نشز الشرسوف " تنافرت حروفها ، وثقل نطقها على اللسان ، لكن الشاعر لجأ إلى هذا التنافر قصداً ، ليصف وصفاً حياً حالة الجوع التي كان يكابد ألمها - وهو من الشعراء الصعاليك- وقد أصابه الهزال ، وبرزت عظامه وضلوعه في صدره.⁽³⁾

ومثاله قول الأعشى يصف سمناً محبوبته وضخامة جسمها وامتلاءها :

¹ محمد النويهي : المرجع السابق - ص 44 - 45

² المرجع نفسه - ص 45

³ المرجع نفسه - ص 46 - 47

هر كولة فنق درم مرافقها

فالشاعر يستعمل ألفاظاً ضخمة ، لينقل صورة ضخامة جسمها ، وقد ساهم لفظ (هر كولة) بينيته الصوتية الدالة على التكور ، وكذا توالي الضمات المتتابعة ساهمت كلها في رسم صورة ذلك الجسم الممتلئ الذي يريد الأعشى تصويره.⁽¹⁾ ومما عابه ابن الأثير قول تأبط شرا يمدح ابن عم له :

يظل بمومة ويمسي بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المهالك

فقد اعتبر لفظ (جحيش) وحشياً غليظاً متوعراً ، ليس وراءه في القبح درجة أخرى قائلاً أنه : " من الألفاظ المنكرة القبيحة ، وكان بإمكانه أن يبدلها بلفظة (فريد) وهي حسنة رائقة ، ولو وضعت موضعها لما اختل شيء من وزن البيت ".⁽²⁾

وما لاشك فيه أننا حين نقارن بين كلمات (جحيش - فريد - وحيد) منعزلة عن سياقاتها ، نلاحظ أن الكلمتين الأخيرتين أخف وأعذب من (جحيش) ، ولكن السياق الذي يتحدث عنه الشاعر يستلزم هذا اللفظ بذاته ، لأنه يمدح ابن عمه بالصبر والجلد واحتمال الخطوب دون شكوى ، دائم الحركة لا يستقر بمكان ، يقضي نهاره في قطع مومة (وهي الفلاة التي لا ماء فيها) ، فإذا دخل عليه المساء وجدته في مومة أخرى ، جحيشا وحيدا ، لا رفيق له في أسفاره ، ولذلك استعمل لفظ (جحيشا) المناسبة بغرابته للمعنى المراد.⁽³⁾

¹ المرجع نفسه - ص 48 - 49

² ابن الأثير : المصدر السابق - ج 1 - ص 181

³ محمد النويهي - المرجع السابق - ص 80-81

والحق أن علماء البلاغة القدامى وإن اعتبروا الجانب الجمالي للفظ أصلا في الحكم بفصاحته ، إلا أن دراساتهم لم تخل من بعض الإشارات إلى ضرورة مراعاة تناسب اللفظ مع المعنى ، وإن وردت إشارات متناثرة أو عبارات عامة.

نجد ابن سنان الخفاجي مع اعتباره التكرار سببا من أسباب التنافر المخل بالفصاحة ، إلا أنه يستثني بعض الحالات التي يكون التكرار فيها أمرا لازما ، لا يتم المعنى المقصود إلا به ، كقول الشاعر :

ألا طرقتنا بعدما هجعوا هند وقد سرن خمسا واتلأب بنا نجد

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

ونقل ابن سنان عن شيخه أبي العلاء بن سليمان قوله : " من حبه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيبا ، ولأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوة " (1)

وابن الأثير رغم أنه قسم الموسوعة اللغوية إلى ألفاظ حسنة في ذاتها وأخرى قبيحة ، تبعاً لمدى تلاؤم الأصوات والحروف أو تنافرها ، إلا أنه يرى أن الألفاظ الحسنة الفصيحة ، حين توظف وتستعمل في سياقات مختلفة ، ليست على نمط واحد ، ولكل منها موضع يحسن استعمالها فيه.

يقول : " الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك " . (2)

¹ ابن سنان الخفاجي : المصدر السابق-ص52

² ابن الأثير : المصدر السابق-ج1-ص185

ويمثل للجزل من الألفاظ بقوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب ، والميزان والصراط ، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا ، وللرقيق منها بما جاء في ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة ، والملاطفات في خطاب الأنبياء وخطاب النبيين والتائبين من العباد وما جرى هذا المجرى.⁽¹⁾

ويسترسل في التمثيل لذلك بنصوص من القرآن الكريم وما أثر عن شعراء العرب ، ليعود في الأخير مؤكدا قوله :

" وبعد هذا فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد. وترى ألفاظ البحري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلبي " ⁽²⁾

ولم يقف ابن الأثير عند حدود أهمية الأصوات في الدلالة ، بل أشار في موضع آخر إلى دلالة الأوزان والصيغ الصرفية ، وقد عقد لذلك بابا سماه : " قوة اللفظ لقوة المعنى " ، تعرض فيه لقاعدة تناولها الكثير ممن سبقه من علماء اللغة والبلاغة ، وهي : أن زيادة المبنى يترتب عنها زيادة في المعنى ، لأن الألفاظ أدلة على المعاني ، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني ، كقولهم : خشن واخشوشن فمعنى (خشن) دون معنى (اخشوشن) لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو ، وقولهم : أعشب المكان ، فإذا رأوا كثرة العشب قالوا : اعشوشب.

¹ : المصدر نفسه - ج 1 - ص 186

² : المصدر نفسه - ج 1 - ص 195

ومثاله في القرآن قوله تعالى : ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾¹ . ف (مقتدر) هنا أبلغ من (قادر) ، وإنما عدل إليه للدلالة على التفخيم للأمر ، وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب ، أو للدلالة على بسطة القدرة. (2)

وقد انفرد ابن الأثير بوضع قيود لهذه القاعدة فقال : " إن قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا في نقل صيغة إلى صيغة أكثر منها كنقل الثلاثي إلى الرباعي " (3)

ومثل لذلك ببعض الصيغ الرباعية التي وردت من غير نقل ، فإنها ليست دالة على التثنية ، كقوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ (4) وقوله عز وجل : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ (5)

نجد أيضاً الإمام الطيبي (743هـ) ، حين درس شروط فصاحة الكلمة المفردة ، التي عددها في جملة من الأوصاف الجمالية ، غير أن كلامه لم يخل من إشارات إلى ارتباط الصوت بالمعنى ، ففي سياق حديثه عن شرط عدم تنافر الحروف في الكلمة ، وأن يكون تركيبها من الحروف العذبة اللذيذة ، نقل كلاماً مهماً للسكاكي (ت626هـ) وفيه :

"للحروف في أنفسها خواص تختلف كالجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط بينهما وغير ذلك... وإذا أخذ في تعيين شيء منها لمعنى ، أن لا يهمل التناسب بينهما ، قضاء لحق الحكمة ، مثل ما ترى في الفصم بالفاء الذي هو حرف رخو ، لكسر الشيء من غير أن يبين ، والقصم بالقاف الذي هو حرف شديد ، لكسر الشيء حتى يبين...". (6)

¹ القمر - 42

² : ابن الأثير : المصدر السابق - ج 1 - ص 241 وما بعدها.

³ : المصدر نفسه - ج 1 - ص 245

⁴ سورة النساء - 164

⁵ سورة المزمل - 4

⁶ : السكاكي : مفتاح العلوم - ص 466-467 - الطيبي: التبيين في البيان - تحقيق ودراسة : د. عبد الستار حسن زموط - ط 1416هـ - (1996 م) دار الجبل- بيروت- ص 555

ثم انتقل للحديث عن ضرورة اجتناب الزائد على الحركتين المتوالييتين ، وعن الحركة الثقيلة في بعض الحروف كالضمة ، ونقل أيضا كلاما للسكاكي أن للحركات أيضا خواص تظهر في بعض الأوزان ، كالفعالان والفعلى ، مثل: التزوان والحيدى ، وفعل مثل شرف وغير ذلك ، فيلزم فيها ما يلزم في الحروف ، وفي ذلك نوع تأثير لأنفس الكلم في اختصاصها بالمعاني .⁽¹⁾

وقد أشار ابن الأثير أيضا إلى هذا الأصل ، وإن اعتبره أمرا جزئيا ، سماه " المماثلة بين حركات الفعل في الوجود ، وبين حركات المصدر في النطق " ، ومثل له بالغليان والضربان والتزوان ، وغيرها مما جرى مجراها ، فإن حروفها جميعها متحركات وليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود . غير أنه اعتبر هذه الدقائق كالأطراف والحواشي ، في مقابل الأصل المعوّل عليه عنده ، وهو تأليف الحروف بعضها إلى بعض ، واعتبار تباعد مخارجها عند تركيب الألفاظ ، بما يحقق التلاؤم ، المعتبر شرطا في الفصاحة .⁽²⁾

☆ ☆ ☆

من خلال دراسة البلاغيين لمبحث الفصاحة ، يمكن أن نخلص إلى أنهم اعتبروا تلاؤم الحروف ، وسلاسة الأصوات ، وسهولتها في النطق ، وعذوبتها في السمع ، أصلا في الحكم على الكلمة بالفصاحة ، وما عدا ذلك مما يعتبر نوعا من المناسبة بين الصوت والمعنى ، لا يعدو أن يكون - في نظرهم - أمرا هامشيا ثانويا كالأطراف والحواشي ، على حد قول ابن الأثير .

¹ السكاكي : المصدر السابق-ص467 - الطيبي : المصدر السابق- ص 556 - 557

² ابن الأثير : المصدر السابق - ج - ص 172-173

• قضية اللفظ والمعنى:

تعدُّ قضية (اللفظ والمعنى) واحدة من القضايا المهمة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إذ شغل بها النقاد والبلاغيون منذ عهد مبكر ، ويمكن أن نرجع هذه القضية إلى مسألة أعمّ منها وأشمل، وهي مبدأ (الثنائية) الذي تمتد جذوره في أعماق الفكر الإنساني ، وظهرت بعض آثاره في ميادين اللغة والأدب والنقد في شكل ثنائية (اللفظ والمعنى) أو (الشكل والمضمون).

وكان المحفز لهذا الجدل هو البحث في فكرة الإعجاز في القرآن وارتباط الفلكو النقدي والبلاغي بمضامينها ، واحتدم الرقاش في أي منهما يكمن الإعجاز ، في اللفظ وتأليفه ، أو في المعنى ودلالته ، أو بهما معاً ، ومن هناك انسحب الجدل إلى معترك النقاد ، ودارت بينهم مناقشات طويلة انصب جلها حول إعطاء الأولوية في العمل الأدبي للشكل أو للمضمون ، مما يوحي بأنهم تصوروا كل واحد منهما قائما بذاته مستقلا عن الآخر . وقد اشتهر ابن قتيبة (ت270هـ) بمقولته التي بسطها في مقدمة مؤلفه " الشعر والشعراء " ، وهو يوازن بين اللفظ والمعنى ، فقسم الشعر بهذا الاعتبار أربعة أضرب :

- ضرب حسن لفظه وجاد معناه.
- وضرب حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.
- وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه .
- وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه (1).

يبدو من خلال هذه القسمة العقلية التي استوتف جميع الاحتمالات الممكنة ، أن ابن قتيبة يفصل فصلا تاما بين اللفظ والمعنى ، بدليل أنه يرى إمكانية مجيء المعنى الحسن في اللفظ الرديء ، والمعنى الرديء في اللفظ الحسن ، مما يعني أنه لا تلازم بين اللفظ والمعنى ، وكلاهما قابل لأن يتعرض للجودة والقبح لوحده دون أن يؤثر حسنه أو قبحه

¹ ابن قتيبة : الشعر والشعراء - تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر - ط 2 - دار المعارف - القاهرة - ج 2 - ص 64

في الثاني ، فقد يكون اللفظ حسناً لوحدته وكذلك المعنى، وقد يتساويان في القبح ، وقد يفترقان.

سار على نهج ابن قتيبة أيضا **قدامة بن جعفر (ت227هـ)** في مؤلفه " نقد الشعر" ، فتحدث عن اللفظ والمعنى ، وجعلهما قسيمين في تحمل مظاهر القبح وملامح الجودة ، حيث ذكر من عيوب الشعر ما يختص منها باللفظ ، وما يختص بالوزن ، وما يختص بالقافية ، ثم ما يختص بالمعنى⁽¹⁾. انطلاقاً من هذا الفصل بين اللفظ والمعنى ، انقسم النقاد إلى أنصار للفظ وأنصار للمعنى ، دون أن يعدم ذلك وجود فريق ثالث جمع بينهما .

أنصار اللفظ وأنصار المعنى :

في سياق الحديث عن الموازنة بين اللفظ والمعنى ، وتفضيل أحدهما على الآخر ، تذكر مقولة اشتهرت **للجاحظ (ت255هـ)**: " إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير"⁽²⁾.

وقد فهمت عبارة الجاحظ من البعض على أنها نصرة للألفاظ على حساب المعنى ، فهذا **أبو هلال العسكري (ت395هـ)** يتحدث عن أهمية الألفاظ وصياغتها في العمل الشعري ، ويعقد باباً من كتابه " الصناعتين " لتمييز الكلام جيده من رديئه ، يقول فيه : " الكلام - أيدك الله - يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته ، وتخير لفظه وإصابة معناه ،

¹ قدامة بن جعفر : نقد الشعر - تحقيق وتعليق : د. محمد عبد المنعم خفاجي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ص 171 - 203

² الجاحظ : الحيوان - تحقيق وشرح : محمد عبد السلام هارون - ط 2 (1385 هـ - 1965 م) - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ج 1 - ص 131 - 132

وجودة مطالعه ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه ، وتشابه أعجازه بهواديه ،
وموافقة مآخيره لمباده فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا، وبالتحفظ
خليقاً" (1)

فمعيار جودة الكلام بصريح عبارته ينحصر في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ،
ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، ثم يعزز رأيه بشواهد من الشعر يختارها تُعنى
بالصياغة اللفظية ، أما المعنى: " فليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي
والعجمي ، والقروي والبدوي... وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يقنع
من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت " (2)
والنتيجة التي يخلص إليها من هذا التحليل أن " الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا وسلسا
سهلا ، ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع الناذر" (3)

وفي المقابل اتجه فريق آخر من النقاد وجهة مغايرة فانتصروا للمعاني وقدموها على
الألفاظ ، نجد على سبيل المثال الحسن بن بشر الأمدي (ت370هـ) يقدم شعر امرئ
القيس عن غيره من شعراء عصره ، اعتمادا فقط على ما رآه من جودة معانيه : " فلولا
لطيف المعاني واجتهاد امرئ القيس وإقباله عليها لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر
الشعراء من أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ولا ألفاظه
من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم " (4)

¹ أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين - تحقيق : علي محمد الجاوي - أبو الفضل إبراهيم - ط 1 (1371 هـ -
1952 م) - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه - ص 55

² المرجع نفسه - ص 57 - 58

³ أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين - ص 59

⁴ الحسن بن بشر الأمدي : الموازنة بين أبي تمام والبحتري - تحقيق : السيد أحمد صقر - ط 4 - دار المعارف القاهرة
- ج 1 - ص 420 - 421

وقد ذكر في سياق موازنته بين شعر أبي تمام والبحتري ، أن من المزايا التي حسن بها شعر أبي تمام ، والتي اعترف له بها المنصفون من أصحاب البحتري : " أن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه وأنه إذا لاح له أخرج به بأي لفظ استوى من ضعيف أو قوي وإذا كان هذا هكذا ، فقد سلموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء وطلبتهم ، وهو لطيف المعاني " ⁽¹⁾

ولكنه لما يصل إلى عد مزايا شعر البحتري ، نراه يقف في الطرف المقابل فيميل إلى نصره الألفاظ قائلًا : " وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتى وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله ، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه ، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف ، وتلك طريقة البحتري " ⁽²⁾ وبعد ثنائه على طريقة البحتري واعتبارها أصلا في البلاغة ، لا تقتصر على الشعر وحده ، بل تعم سائر فنون النثر ، " والبلاغة إنما هي إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف كافية ، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة ، ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية فإن اتفق - مع هذا - معنى لطيف ، أو حكمة غريبة أو أدب حسن ، فذاك زائد في بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه " ⁽³⁾

واضح من كلام الآمدي هنا أنه لا يحتفي بالمعنى ، ويصرح أن المعنى وإن كان رديئا ، فإنه لا ينقص شيئا من جودة الكلام إذا كان تأليفه حسنا ، بينما نجد حين يتحدث عن

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 420

² المصدر نفسه - ج 1 - ص 423

³ المصدر نفسه - ج 1 - ص 424

تأثير الألفاظ في المعاني يقول : " وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحوج مستعمله إلى طول تأمل ، وهذا مذهب أبي تمام في عظم شعره . وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا ، حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة لم تعهد ، وذلك مذهب البحري " (1)

من خلال هذا الاضطراب والتأرجح بين نصرة الألفاظ أو المعاني ، يتضح أن النقاد لم يتناولوا طبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى من جانبها الدلالي ، بل ركزوا اهتمامهم على الجانب الجمالي ، من خلال إشكالية : هل جودة الشعر تكمن في فصاحة ألفاظه وحلاوتها وعذوبتها واختيار الوزن والنغمات ؟ أم أن جودة الشعر تكمن فيما تحويه قوالبه من معان وأفكار ؟

وإن كنا نجد أحيانا في عباراتهم الحث على ضرورة التناسق بين الشكل والمضمون . وقد نقل الجاحظ عن بشر بن المعتمر قوله : " ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف " (2)

وقد اعتبر الجاحظ أن السخيف من الألفاظ قد يحتاج إليه في بعض السياقات التي تستدعي التعبير عن سخيف المعاني ، ويكون السخيف من الألفاظ في هذه الحال أبلغ من اللفظ الشريف ، يقول : " إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعاني " (3).

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 425

² الجاحظ : البيان والتبيين - ج 1 - ص 136

³ المصدر نفسه - ج 1 - ص 145

وفي سياق حديثه عن أقوال الناس في البلاغة ينقل عن بعضهم قائلاً : " وقال بعضهم - وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه - : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك " (1)

نجد أيضا القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت366هـ) يطلب من الشاعر أن يراعي فروق ما بين الموضوعات والأغراض التي يطرقها ، وذلك ليعطي كلا منها ما يناسبه من المفردات والعبارات ، يقول في ذلك : " ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحدا ، ولا أن تذهب بجميعة مذهب بعضه ، بل أرى أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بممثلة جدك ولا تعريضك مثل تصريحك ، بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطف إذا تغزلت ، وتفخم إذا افتخرت ، وتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه " (2)

يركز القاضي هنا على أن تكون سمات الألفاظ ملائمة لمضمون الأبيات ، حتى يحقق الشعر أغراضه الدلالية ممتزجة بالمتطلبات الجمالية أيضا.

مما سبق نخلص إلى أن النقاد العرب لم يهملوا كليا ضرورة التناسق بين اللفظ والمعنى في العمل الأدبي ، أو بين الشكل والمضمون ، فقد تعرضوا لهذا الأصل في مؤلفاتهم ، وإن تم ذلك بشكل مقتضب وعبارات عامة وردت متناثرة في ثنايا مؤلفاتهم.

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 115

² القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه - شرح وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - علي محمد الجاوي - ط 1 (1427 هـ - 2006 م) - المكتبة العصرية - بيروت - ص 30

كما أن هناك فريقا ثالثا وقف تجاه ذلك التزاع المحتدم بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى موقف الجمع ، واعتبر هؤلاء اللفظ والمعنى عنصرين متلازمين تلازم الروح والجسد ، لا ينفك أحدهما عن الآخر .

يقول ابن رشيق القيرواني (ت456هـ) : " اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه... وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ... فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ... وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأننا لا نجد روحا في غير جسم البتة " (1)

رأي عبد القاهر الجرجاني (ت474هـ) :

غير أن الذي حسم الموقف في قضية ارتباط اللفظ بالمعنى عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " ، حيث صال وجال في تقرير حقيقة مفادها أن اللفظ والمعنى وجهان لورقة واحدة ، وعاب الذين يقدمون الشعر لمعناه أو للفظه ، و أنكروا تلك الثنائية ، ودعا إلى رؤية الصورة مجتمعة ، من الطرفين معا ، من دون فصل بينهما .

وقد يطول بنا المقام لو بدأنا في عرض وتحليل نظريته في النظم ، فقد خصص لها كتابا بأكمله ، غير أننا نكتفي هنا باستعراض بعض النقاط التي تبرز رؤيته في اتحاد اللفظ والمعنى وتلازمهما تلازما شديدا يتعذر معه تصور وجود أحدهما دون الآخر :

¹ ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه - ص 70 - 71

1. إنكاره على من أعطى الأولوية للفظ : وقد خصص فصولا من كتابه (دلائل

الإعجاز) للرد على من أعطى المزية للفظ ، وعقد فصلا في مستهل الكتاب لتحقيق القول في البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة ، ذهب فيه إلى أن اللفظة المفردة من حيث هي لفظة مجردة لا قيمة لها في الفصاحة والبلاغة يقول : " وهل تجد أحدا يقول هذه الكلمة فصيحة ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارقتها، وفضل مؤانستها لأخواتها " (1)

ويستدل لذلك بقوله : " أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر " (2)

2. رده على من جعل المزية في المعاني وحدها : وقد يخيل للبعض من كثرة تهجم عبد القاهر على القائلين بأولوية اللفظ ، بأنه منحاز إلى جانب المعنى ، وليست الألفاظ عنده إلا خدم للمعاني ، غير أن المتتبع لكلامه يجده في مواضع أخرى ينكر أن يكون للمعاني وحدها المزية في البلاغة ، كما أنكر ذلك في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ، والمعول عليه في نظره إنما هو النظم والصياغة والأسلوب ، يقول : " اعلم أن الداء الدوي ، والذي أعيأ أمره في هذا الباب ، غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى ، يقول : ما في اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلا بمعناه ؟. فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر... " (3)

¹ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز - ص 44

² المصدر نفسه - ص 46

³ المصدر نفسه - ص 251 - 252

ثم يحكم بفساد هذا المذهب قائلاً : " واعلم أنك لست تنظر في كتاب صنف في شأن
البلاغة وكلام جاء عن القدماء إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب ورأيهم يتشددون
في إنكاره وعيبه والعيب به " (1)

ويستدل لذلك بمقولة الجاحظ : " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي
والقروي والبدوي " ، هذه المقولة التي كثيرا ما أسيء فهمها ، فصنف صاحبها لذلك
عند عدد من الدارسين مع أنصار اللفظ الذين لا يعيرون للمعنى أي اهتمام (2) . وعبد
القاهر يعيد قراءة عبارة الجاحظ ، مبينا أن ما قصده من كلامه هو أن المعاني العامة هي
المتاحة لكل إنسان يملك القوى الإدراكية التي تمكنه من ملاحظة الواقع واقتناص معانيه ،
غير أن هذه المعاني التي تظل مادة خاما ، حين يتم تناولها في العمل الأدبي تتعرض
لتحولات ناتجة عما يضيفه عليها الشكل والأسلوب والصيغة من مزايا تجعل منها خلقا
آخر جديدا (3)

3. مفهوم المعنى عند عبد القاهر : وانطلاقا مما سبق فإن عبد القاهر حين نراه في بعض
المواضع يولي المعنى اهتماما ، ويعطيه مزية ، فإنه لا يقصد بالمعنى مدلول اللفظ ، وقد
هاجم من أودعوا المعاني بهذا المضمون حسنا ومزية بلاغية ، إنما يريد المعنى الإضافي الذي
يلتمس في ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالاته في النفس ، والذي أطال في تصوير
شعبه في (دلائل الإعجاز) ، وهو المعنى الشعري المتولد من الصياغة ، والذي تشير إليه
عبارة الجاحظ : " وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير " (4)

1 المصدر نفسه - ص 255

2 د. عبد القادر هني : قضية اللفظ والمعنى من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني- مجلة الموافقات - العدد 2 / ذو
الحجة 1423 هـ - جوان 1999 م - دار الكلمة للنشر تيبازة الجزائر - ص 262 - 263

3 المرجع نفسه - ص 262 / د. شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ - ط 9 - دار المعارف القاهرة - ص 163

4 الجاحظ : الحيوان - ج 1 - ص 131 - 132

و يمثل للمعاني الإضافية التي تستمد من ترتيب الكلام وطريقة صياغته ، بقوله تعالى : ﴿
واشتعل الرأس شيباً﴾⁽¹⁾

إن مما أوجب المزية لهذا الكلام أن أسند الاشتعال إلى الرأس ، مع أنه في الأصل للشيب ،
وعدل عن : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، لأن في إسناد الشيب إلى الرأس
إفادة معنى زائدا عن مجرد لمعان الشيب في الرأس - والذي هو أصل المعنى - ، هذا المعنى
الإضافي هو المقصود من الكلام ، وهو أن الشيب " قد شاع في الرأس وأخذه من نواحيه
، وأنه قد استغرقه وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ... وهذا ما لا يكون إذا
قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس " ⁽²⁾

فههنا معنيان :

- معنى أولي : وهو أصل المعنى وهو مجرد لمعان الشيب في الرأس .
 - معنى إضافي : أن الشيب قد عم الرأس بجملته حتى لم يبق معه سواد. هذا المعنى
مستفاد من إسناد الاشتعال إلى الرأس ، والأصل أن يسند الاشتعال إلى الشيب.
4. البلاغة في النظم : ومن خلال نظريته في النظم ، يؤكد عبد القاهر الارتباط التام
بين اللفظ والمعنى ، أو بين الشكل والمضمون ، فلا معنى للبلاغة والفصاحة عنده " غير
أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به ،
وأكشف عنه وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية " ⁽³⁾
5. نتيجة لكل ما سبق بيانه ، يصل عبد القاهر في الأخير إلى تقرير حقيقة مفادها
أن المعنى مقيد بالنظم الذي يؤدي إلى به ، فلا يمكن أن تختلف العبارتان ويتحد المعنى تمام
الاتحاد ، يقول : " لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر ، أو فصل من النثر ،

¹ مريم - 5

² الجرجاني : المصدر السابق - ص 100 - 101

³ المصدر نفسه - ص 43

فتؤديه بعينه وخاصيته وصفته بعبارة أخرى ، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك ، لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور . ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه ، فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول ، حتى لا تعقل ههنا إلا ما عقلته هناك ، وحتى يكون حالهما في نفسك حال الصورتين المشتبهتين في عينك كالسوارين والشنقين ، ففي غاية الإحالة ، وظن يفضي بصاحبه إلى جهالة عظيمة " (1)

لا يمكن في نظر الجرجاني أن تختلف طرق التعبير ثم يتحد المعنى تمام الاتحاد ، فلن يبرز المعنى الواحد إلا في صورة واحدة وشكل واحد ، فإذا تغيرت الصورة وطريقة التعبير تغير المعنى بمقدارها ، وقد لا يتأثر المعنى الذهني العام في ذاته (أي المعنى المركزي الأساسي) ، ولكن صورته في النفس والذهن تتغير (المعاني الحافة الإضافية) (2) إن تأكيد عبد القاهر على الدور الحاسم الذي تؤديه طريقة التعبير في تحديد المعنى المراد ، من شأنها أن تعد مؤشراً هاماً في التأصيل للدلالة الصوتية ، لو أن عبد القاهر خطأ بنظرته هذه خطوة إضافية ، ولم يقف بها عند حدود المعاني النحوية ، إذ النظم كما بينه وأكد عليه مراراً وتكراراً : " إنما هو توحي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه ، والعمل بقوانينه وأصوله ، وليست معاني النحو معاني ألفاظ فيتصور أن يكون لها تفسير " (3)

¹ المصدر نفسه - ص 261

² سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ط 14 (1413 هـ - 1993 م) - دار الشروق - القاهرة - ص 240 - 241

³ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز - ص 452

وبعد أن أورد أمثلة للمعاني النحوية المستفادة من نظم الألفاظ ، يعود مجددا ليؤكد بقوله : " قد بطل الآن من كل وجه وكل طريق أن تكون الفصاحة وصفا للفظ من حيث هو لفظ ونطق في اللسان " (1)

ولو أن عبد القاهر وسع مفهوم ارتباط اللفظ بالمعنى ليشمل المعاني الفنية الحافة ، التي قد تستفاد من ظلال الألفاظ وإيجائها ، كما قد تستفاد من جرس الأصوات وإيقاع العبارات ، لبلغ بذلك الذروة في النقد الفني - على حد قول سيد قطب - (2) .

2. الدراسات الدلالية عند اللغويين :

وقد تجاوزت هذه الدراسات الحدود التي وقفت عندها الدراسات النقدية ، وإن أبرز ما يصادفنا في هذا المجال بحوث طائفة من اللغويين ، الذين انتبهوا إلى مسألة حكاية جرس اللفظ لمعناه ، وأدركوا دقائق مناسبة أصوات الكلمة وحروفها وحركاتها ومقاطعها لمعناها ومدلولها ، وقد برزت بذور هذا التفكير عند الخليل ابن أحمد ، ونمت لدى تلميذه سيبويه ، لنجدها أكثر نضجا عند ابن جني .

الخليل بن أحمد (ت175هـ) :

نبه الخليل بن أحمد إلى مجيء بعض الصيغ الصرفية في كلام العرب على صورة مناسبة لمعناها ، " من ذلك قولهم : صرّ الجندب صريرا ، وصرصر الأخطب صرصرة ، فكأنهم توهّموا في صوت الجندب مدا ، وتوهّموا في صوت الأخطب ترجيعا ، ونحو ذلك كثير مختلف " (3)

¹ المصدر نفسه - ص 453

² سيد قطب : المرجع السابق - ص 240

³ الخليل بن أحمد : كتاب العين - تحقيق : د مهدي مخزومي - د إبراهيم السامرائي - سلسلة المعاجم والفهارس - ج 1

يشير الخليل إلى كثرة ورود هذا النوع من المناسبة في كلام العرب ، وقد اعتبره أصلاً
وسماه : حكاية الأصوات ، ومثل له بالصلصلة والزلزلة وما أشبهها من الكلمات التي
يكون حرفاً عجزها مثل حرفي صدرها ، وذلك بناءً يستحسنه العرب ، " يتوهمون في
حسن الحركة ما يتوهمون في جرس الصوت ، يضاعفون لتستمر الحكاية في وجه
التصريف ".⁽¹⁾

ويتابع الخليل توضيح حكاية الأصوات بأن المتكلم يحاكي بأصوات الكلمة حركة الفعل
في الوجود ، يقول : " ألا ترى الحكاية أن الحاكي يحكي صلصلة اللجام فيقول : صلصل
للجام ، وإن شاء قال : صلّ ، يخفف مرة اكتفاءً بها ، وإن شاء أعادها مرتين أو أكثر من
ذلك فيقول : صل ، صل ، صل ، يتكلف من ذلك ما بدا له ".⁽²⁾

سيبويه (180هـ) :

أما سيبويه فقد تلقف إشارات أستاذه ، وزاد في تفصيلها واستقرأ الأمثلة لها من كلام
العرب ، وعقد لذلك باباً في كتابه تحدث فيه بإسهاب عن المصادر التي جاءت على بناء
واحد لما تقاربت معانيها ، ومنها المصادر التي جاءت على وزن " الفعلان " تأتي للحركة
والاضطراب ، يقول : " ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني
قولك : التروان والنقران ، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازة في ارتفاع ، ومثله
العسلان والرتكان ... ومثل هذا الغليان لأنه زعزعة وتحرك ، ومثله الغثيان لأنه تجيش
نفسه وتثور ، ومثله الخطران واللمعان ، لأن هذا اضطراب وتحرك ، ومثل ذلك اللهبان
والصخدان والوهجان ، لأنه تحرك الحر وثووره ، وإنما هو بمتزلة الغليان ... وقد جاءوا

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 55

² المصدر نفسه - ج 1 - ص 55

بالفعلان في أشياء تقاربت ، وذلك : الطَّ وَفان والدوران والجوران ، شبهوا هذا حيث كان تقلبا وتصرفا بالغليان والغثيان ، لأن الغليان أيضا تقلب ما في القدر وتصرفه " (1). يحاول سيبويه أن يلفت أنظارنا إلى المناسبة بين التشكيل الصوتي لصيغة (فعلان) بما فيها من توالي ثلاث فتحات متسارعة ، مع ما تدل عليه من معنى الحركة والاضطراب والاهتزاز ، وهو المعنى الذي تشترك فيه جميع هذه المصادر : التروان ، والنقران ، والعسلان ، والرتكان ، والغليان ، والغثيان ... الخ ، لينتهي في الأخير إلى أن التأصيل لهذا الحكم يكفي فيه استقرار كلام العرب بهذه الطريقة ، وهو المنهج الذي اعتمده عن شيخه الخليل ، يقول : " وهذه الأشياء لا تضبط بقياس ولا بأمر أحكم من هذا ، وهكذا مأخذ الخليل " (2)

ويضيف سيبويه في مواضع كثيرة من كتابه أمثلة أخرى تعزز رأيه ، من ذلك قوله في باب (افعول) : " هذا باب افعولت وما هو على مثاله مما لم نذكره . قالوا : خشن ، وقالوا : اخشوشن ، وسألت الخليل فقال : كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد ، كما أنه إذا قال : اعشوشبت الأرض فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيرا عاما ، قد بالغ ، وكذلك احلولى " (3).

كأن سيبويه والخليل يشيران إلى أثر زيادة المبنى في زيادة المعنى ، والغرض من هذه الزيادة هنا هو المبالغة والتوكيد.

¹ سيبويه : الكتاب - ج 4 - ص 14 - 15

² المصدر نفسه - ج 4 - ص 15

³ المصدر نفسه - ج 4 - ص 75

ابن جني (ت392هـ) :

لقد أثمرت هذه الجهود المتواصلة في الوقوف على ظاهرة المناسبة بين الأصوات والمعاني ، ومهدت الطريق أمام أحد جهابذة العربية : ابن جني ، الذي برع في الكشف عن أوجه الدلالة الصوتية ، وأبدع في تحليل وتعليل أوجه التناسب بين الصوت والمعنى.

درس ابن جني العلاقة بين الأصوات والمعاني التي تدل عليها ، محتذيا في ذلك حذو الخليل وسيبويه ، الذين كان لهما فضل سبق الزماني ، وفضل ريادة هذا الطريق الصعب الموعول في الرمزية ، ولكن ابن جني لم يكتف بتلقف إشارتهما ، بل راح يعمق ويوسع دراسة هذا الباب ، فبحث العلاقة بين مخارج الحروف وصفاتها من حيث الجهر والهمس والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق وغير ذلك ، وبين المعنى الذي تحمله الكلمة ، كما بحث أيضا العلاقة بين الصيغ الصرفية وما تحمله من معاني ودلالات ، يظهر ذلك جليا في ما أورده من تحليلات لأوجه الدلالة الصوتية في ثنايا مؤلفه " الخصائص " ، خاصة في بابين عقدهما خصيصا لهذا الغرض : " باب في تصراقب الألفاظ لتصراقب المعاني " (1) و " باب في أمساس الألفاظ أشباه المعاني " (2)

قال في الباب الأول : " هذا غور من العربية لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به ، وأكثر كلام العرب عليه ، وإن كان غفلا مسهوا عنه " (3)

وقال في الباب الثاني : " أعلم أن هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته " (4)

1 ابن جني : الخصائص - ج 1 - ص 499 - 504

2 المصدر نفسه - ج 1 - ص 505 - 516

3 المصدر نفسه - ج 1 - ص 499

4 المصدر نفسه - ج 1 - ص 505

وقال فيه أيضا : "فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج مبلوغ عند عارفه مأموم. وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ، فيعدلونها بها ، ويحتذونها عليها ، وذلك أكثر مما نقدره ، وأضعاف ما نستعشره." (1)

يشير ابن جني في الفقرة الأخيرة إلى كثرة وقوع هذا النوع من الدلالة في كلام العرب ، ثم يسترسل في استعراض نماذج من الأمثلة التي تعضد مقولته ، كالفرق بين الخضم والقضم ، والنضخ والنضح ، والوسيلة والوصيلة.....الخ.

يقول : "من ذلك قولهم : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم للصلب اليابس ، نحو قضمت الدابة شعيرها..." (2) يركز ابن جني هنا على القيم الخلافية التي تتمايز بها الأصوات ، مبينا أن سر اختلاف دلالة اللفظين - مع وجود معنى مشترك متقارب بينهما (وهو القطع) - يرجع إلى اختلاف السمات الصوتية لصوتي الخاء والقاف ، فالحاء لرخاوتها (صوت احتكاكي) تتناسب مع الشيء الرطب الذي سهل أكله ، والقاف لشدها وصلابتها (صوت انفجاري) تتناسب مع الشيء اليابس الذي يصعب قطعه ، " فاختراروا الحاء لرخاوتها للربط ، والقاف لصلابتها لليابس حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث" (3) ويظهر دور السمات الصوتية لحروف الكلمتين في بناء الدلالة ، من خلال المقارنة بينهما في الجدول التالي :

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 509

² المصدر نفسه - ج 1 - ص 509

³ المصدر نفسه - ج 1 - ص 509

الجدول 01 :

مقارنة بين السمات الصوتية للحرفين المختلفين						أوجه الاختلاف	الكلمة
الصفات				المخارج			
/	مصمت	منفتح	مستعل	رخو	مهموس	أدنى الحلق	خضم
مقلقل	مصمت	منفتح	مستعل	شديد	مجهور	أقصى اللسان فوق	قضم

يبين الجدول السابق أن هناك فروقا صوتية بين القضم والخضم ، تتمثل أساسا في همس ورخاوة الحاء من جهة ، وهما من صفات الضعف ، التي تناسب معنى قطع الشيء الرطب ، بينما الجهر والشددة في القاف ، وهما من صفات القوة ، يناسبان قطع الشيء الصلب .

— ومن الأمثلة أيضا "النضح للماء ونحوه ، والنضح أقوى من النضح ، قال الله سبحانه : ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾¹ فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف ، والحاء لغلظتها لما هو أقوى منه "²

الجدول 02 :

مقارنة بين السمات الصوتية للحرفين المختلفين						أوجه الاختلاف	الكلمة
الصفات				المخارج			
مصمت	منفتح	مستقل	رخو	مهموس	وسط الحلق	ح	نضح
مصمت	منفتح	مستعل	رخو	مهموس	أدنى الحلق	خ	نضح

¹ الرحمن - 66

² المصدر نفسه - ج 1 - ص 509

يلاحظ من خلال الجدول السابق أن لا فرق بين النضح والنضح من الناحية الصوتية ، إلا الاستفال في الحاء وهو من صفات الضعف ، وعكسه الاستعلاء في الحاء ، لذلك ناسب النضح للماء الضعيف ، والنضح لما هو أقوى منه.

– ومن ذلك قولهم : الوسيلة والوصيلة ، الصاد – كما ترى – أقوى صوتاً من السين ، لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة. وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة ، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء ومماسته له ، وكونه في أكثر الأحوال بعضاً له كاتصال الأعضاء بالإنسان وهي أعضاؤه ونحو ذلك ، والتوسل معني يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءاً أو كالجاء من المتوسل إليه ، وهذا واضح ، فجعلوا الصاد لثقتها للمعنى الأقوى ، والسين لضعفها للمعنى الأضعف. " (1)

الجدول 03 :

مقارنة بين السمات الصوتية للحرفين المختلفين						أوجه الاختلاف	الكلمة
الصفات			المخارج				
صغير	مصمت	منفتح	مسنقل	رخو	مهموس	طرف اللسان من فوق الثنايا السفلى	الوسيلة
صغير	مصمت	مطبق	مستعل	رخو	مهموس	نفس المخرج	الوصيلة

فلا فرق إذن بين الوسيلة والوصيلة ، إلا الاستفال والانفتاح في السين من جهة ، والاستعلاء والإطباق في الصاد ، وقد كان لهذه التقابلات الصوتية أثرها في بناء دلالة اللفظين.

¹ المصدر نفسه – ج 1 – ص 510

وبعد أن قام بسرد الكثير من الأمثلة والنماذج التي توضح بجلاء اختيار الصوت الذي تتناسب سمات النطقية السماعية مع المعنى المعبر عنه ، انتقل ابن جني إلى الحديث عن مستوى آخر من مستويات الدلالة الصوتية " اللطف فيه أظهر والحكمة أعلى و أصنع"⁽¹⁾ ، فراح ببراعته وعبقريته يبين تناسب ترتيب الأصوات في النطق لترتيب الأحداث المعبر عنها ، " بتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب "⁽²⁾ وبدأ في استقراء الأمثلة التي استدل بها على إثبات وجود هذا النوع من الدلالة في كلام العرب.

" ومن ذلك قولهم (بحث) : فالباء لغلظتها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، والحاء لصحليها ، تشبه مخالب الأسد وبرائن الذئب ونحوهما ، إذا غارت في الأرض ، والتاء للنفث والبث للتراب "⁽³⁾

ومن ذلك قولهم (شد الحبل) : فالشين بما فيها من التفشي تشبه أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه إحكام الشد والجدب وتأريب العقد ، فيعبر عنه بالبدال التي هي أقوى من الشين لاسيما وهي مدغمة "⁽⁴⁾

أما ما يتعلق بدلالة الصيغ الصرفية ، فقد حذا فيها ابن جني حذو الخليل وسيبويه أيضا وحاول - اعتماداً على منهج وصفي استقرائي - إثبات اشتمال اللغة العربية على كم هائل من الألفاظ التي تدل بصيغتها ومبناها على معانيها ، فوجد أن المصادر الرباعية

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 512

² المصدر نفسه - ج 1 - ص 512

³ المصدر نفسه - ج 1 - ص 512

⁴ المصدر نفسه ج 1 - ص 512 - 513

المضعفة تأتي للتكرير ، نحو : الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقة والصعصة والجرجرة والقرقرة ، فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر.

والمصادر والصفات التي تكون على وزن (الفعلى) تأتي للسرعة نحو : البشكى والجمزى والولقى ، فجعلوا المثال الذي توات حركاته للأفعال التي توات الحركات فيها. (1)

ومن الأمثلة الذي ذكرها ابن جني في أبنية الأفعال : "استفعل" تأتي في أكثر الأحوال للطلب نحو : استسقى ، واستطعم ، واستوهب ، واستمنح ... (2)

ويشرح ابن جني وجه مناسبة هذه الصيغة لدلالة الطلب ، أن ترتيب الحروف في الكلمة جاء على حسب ترتيب الأفعال في الوجود ، ذلك أن الأفعال التي تقع من غير طلب ، إنما تفجأ حروفها الأصول ، نحو : خرج وقدم ووهب ومنح ... أما إذا أخبرت بأنك سعت فيها وتسببت لها ، وجب أن تقدم أمام حروفها الأصول أحرفاً زائدة على تلك الأصول كالمقدمة لها والمؤدية إليها ، وذلك نحو : استخرج واستقدم واستوهب واستمنح ... فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ، ثم وردت بعدها الأصول ، فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب ، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والطلب. (3)

ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في وزن "فعل" دالاً على تكرير الفعل ، نحو: كسر وقطع وفتح وغلق. فجعلوا تكرير عين الفعل دليلاً على قوة المعنى المحدث به ، ذلك أنه لما كانت

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 505 - 506

² المصدر نفسه - ج 1 - ص 506

³ المصدر نفسه - ج 1 - ص 506 - 507

الألفاظ دليلة المعاني ، وكانت عين الفعل أقوى من فائه ولامه ، فكررُوا أقوى ما في الفعل وهو العين ، وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث به . (1)

وفي القرآن ﴿ وغلقت الابواب ﴾ (2) ﴿ يذبحون أبناءكم ﴾ (3)

وفي باب " تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني " نقف على عبقرية ابن جني ، حيث بين في هذا الباب وجوها أخرى بديعة لمناسبة الصوت للمعنى ، سماها : " تقارب الحروف لتقارب المعاني " .

فقد يكون التقارب في حرف واحد من حروف الكلمة ، كما في الهز والأز ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأذهم أز ﴾ (4) أي تزعجهم وتقلقهم ، وهو قريب من معنى تهزهم هذا ، والهمزة أحت الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين ، إلا أن الآية جاءت بلفظ الأز بالهمزة لأنها أقوى من الهاء ، والأز أقوى وأعظم في النفوس من الهز ، لأنك قد تهز ما لا بال له ، كالجدع وساق الشجرة ، ونحو ذلك. (5) كما في قصة مريم : ﴿ وهزي إليك بجدع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ (6)

ومثاله أيضا مواد : (جبل ، جبن ، جبر) تقاربت حروفها لتقارب معانيها ودورانها حول معنى واحد مشترك وهو الالتئام والتماسك. فالجبل لشدته وتماسكه ، وجبن إذا استمسك وتوقف وتجمع ، وجبرت العظم أي قويته وجمعت كسره. (7)

1 المصدر نفسه - ج 1 - ص 507

2 يوسف - 23

3 البقرة - 49

4 مريم : 83

5 المصدر نفسه - ج 1 - ص 499

6 مريم - 25

7 المصدر نفسه - ج 1 - ص 501

وقد يكون التقارب في حرفين ، كقولهم : (جلف وجرم) فالأول للقشر ، والثاني للقطع ، وهما متقاربان معنى ، متقاربان لفظا .

وقد يقع التقارب في الحروف الثلاثة الأصول : الفاء والعين واللام ، كقولهم : السلب والصرف ، فإذا سلب الشيء فقد صرف عن وجهه . فذاك من (سلب) وهذا من (صرف) والسين أخت الصاد ، واللام أخت الراء ، والباء أخت الفاء .⁽¹⁾

وبعد فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر الملكة اللغوية والذوق المرفه الذين تمتع بهما ابن جني، وهو يحاول الكشف عن وجوه من مناسبة الصوت للمعنى في كلام العرب . وإن كانت بحوثه مقصورة بحدود الكلمة المفردة ، لا تتعداها إلى دراسة وتتبع دلالات الأصوات في مستوى التركيب والجمل الكاملة ، أو الفقرات ، وصولا إلى دراسة هذه الظاهرة على مستوى النص الأدبي.

وقد اعتذر الدكتور محمد النويهي لابن جني وغيره من اللغويين ، أنهم درسوا اللغة في مستوى الوضع ، ولذلك كان اهتمامهم باللفظ المفرد ، أما دراسة الدلالة الصوتية في مستوى الاستعمال - وهي من أهم الوسائل البلاغية التي استعملها الشعراء العرب القدامى - فإنها خارجة عن حدود بحثهم ، وأولى أن تكون من اختصاص النقاد والبلاغيين.⁽²⁾

ابن دريد (361هـ) :

وممن أولعوا ولعا شديدا بالمناسبة بين الألفاظ ومعانيها ابن دريد ، فقد وضع كتابه " الاشتقاق " على هذا الأساس ، وحاول فيه تحليل أسماء الأعلام والقبائل والأمكنة في

¹ المصدر نفسه - ج 1 - ص 502

² د محمد النويهي : المرجع السابق - ص 70 وما بعدها

جزيرة العرب ، فرآى أن اسم قبيلة هذيل مشتق من الهذل وهو الاضطراب (¹) ، وأما قضاة فاشتقاقه من شيئين : إما من قولهم : انقضع الرجل عن أهله إذا بعد عنهم ، أو من قولهم : تقضع بطنه إذا أوجعه أو وجد في جوفه وجعا. (²)

ويذهب ابن دريد في تحليلاته إلى أبعد من هذا ، فيعمد إلى تفسير أسماء العرب بناء على مناسبة الأسماء لمسمياتها ، ويروي عن أبي حاتم السجستاني قوله : " قيل للعتبي : ما بال العرب سمت أبناءها بالأسماء المستشعة ، وسمت عبيدها بالأسماء المستحسنة ؟ فقال : لأنها سمت أبناءها لأعدائها ، وسمت عبيدها لأنفسها " (³)

وأثناء شرحه لهذا القول ، يذكر ابن دريد أن للعرب مذاهب في تسمية أبنائها ، فمنها ما سموه تفاقولا على أعدائهم ، نحو : غالب ، وظالم ، ومنازل ، ومقاتل ، ومعارك ، وثابت ... ومنها ما تفاءلوا به للأبناء ، نحو نائل ، ووائل ، وناج ، ومدرك ، وسالم ، وسليم ، ومالك ، وعامر ، وسعد ... ومنها ما سمي بالسباع ترهيبا لأعدائهم ، نحو : أسد ، وليث ، وذئب ، وعملس ... ومنها ما سمي بما غلظ وحشن من الشجر ، نحو : طلحة ، وسمرة ، وقتادة ، وهراسة ، وكل ذلك شجر له شوك ، ومنها ما سمي بما غلظ من الأرض ، وحشن لمسه وموطئه ، مثل : حجر ، وصخر ، وفهر ، وجندل ، وحزم (⁴)

فابن دريد يرى أن العرب سمت أبنائها بأسماء فيها من القوة والخشونة ما يكسب مسماها قوة وشدة وصلابة ، ويلقي في قلوب الأعداء الرهبة والرعب ، وذلك استشعارا لما بين الاسم والمسمى من رابطة ، وما بين اللفظ ومدلوله من صلة.

¹ ابن دريد : الاشتقاق - تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون - دار الجبل - بيروت - ط 1 (1411 هـ - 1999م) - ص 176

² المصدر نفسه - ص 536

³ المصدر نفسه - ص 4

⁴ المصدر نفسه - ص 5

أبو عبد الرحمن السهيلي وابن القيم:

وقد تتابعت بحوث اللغويين العرب في دراسة مناسبة الصوت للمعنى ، ومما هو جدير بالوقوف عنده تلك المباحث التي أوردها أحد نحاة القرن السادس الهجري أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي (508هـ - 581هـ) في كتابه "نتائج الفكر" ، واعتمد عليها بنسبة كبيرة ابن القيم (691هـ - 751هـ) في المسائل النحوية التي تناولها في كتابه "بدائع الفوائد" ، وقد اعتبر هذا الأخير أن مناسبة اللفظ لمعناه أصل ثابت في العربية فقال:

" اللفظ قالب المعنى ولباسه يحتذي حذوه ، والمناسبة الحقيقية ثابتة بين اللفظ والمعنى طولاً وقصراً ، وخفة وثقلاً ، وكثرة وقلة ، وحركة وسكوناً ، وشدة وليناً ، فإن كان المعنى مفرداً أفردوا لفظه ، وإن كان مركباً ركبوا اللفظ ، وإن كان طويلاً طوله كـ "العنطنط" و"العششق" للطويل ، فانظر إلى طول هذا اللفظ لطول معناه ، وانظر إلى لفظ "بجثر" وما فيه من الضم والاجتماع ، لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق..."⁽¹⁾

واسترسل في إيراد الأمثلة والشواهد لمناسبة الألفاظ لمسمياتها ، وقد أضاف إلى ما ذكره سيوبه وغيره من المصادر التي تأتي على وزن (الفعالن) ، أنها تأتي للحركة والاضطراب ، صيغاً أخرى كـ "الغضبان" و"الضمآن" و"الحيران" وما جرى مجراها ، فإنها صيغت على هذا البناء الذي يتسع النطق به ، ويمتلئ الفم بلفظه ، لتناسب معنى (الغضبان) وهو الممتلئ غضباً ، الذي اتسع غضبه حتى ملاً قلبه وجوارحه.⁽²⁾

يشير ابن القيم بذلك إلى دلالة السمات النطقية لهذه المصادر ، التي انتهت بفتحة طويلة ممدودة إلى النون الساكنة ، ليعين أن ما يصاحب نطق الكلمة من انفتاح الفم ، واتساع

¹ ابن قيم الجوزية : بدائع الفوائد - تحقيق : علي محمد العمران - دار عالم الفوائد - مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدّة - ص 189

² المصدر نفسه - ص 189

خروج الهواء ملء الفم ، يساهم في رسم المعنى المقصود ، وهو شدة الغضب واتساعه ، حتى ملاً القلب والجوارح. والشيء نفسه يقال عن شدة الضمأ التي امتدت إلى جميع أنحاء الجسم وسرت في عروقه ، وكذا شدة الحيرة التي عمت الفؤاد واستولت على النفس.

ويقرر ابن القيم أن اللغة العربية مليئة بهذا النوع من التناسب في مفرداتها ، مبينا بعض وجوه هذا التناسب الذي ينشأ من جوهر الحرف تارة ، ومن صفته ، ومن اقترانه بما يناسبه ومن تكرره ، ومن حركته وسكونه ومن تقديمه وتأخيريه ، ومن إثباته وحذفه ومن قلبه وإعلاله ، إلى غير ذلك من الموازنة بين الحركات وتعديل الحروف وتوخي المشاكلة والمخالفة والخفة والثقل والفصل والوصل...⁽¹⁾

واضح من صريح عبارات ابن القيم ، أن منشأ الدلالة الصوتية يكون من بعض عناصر التشكيل الصوتي ، التي تسهم في تلوين المعنى ، والمتمثلة أساساً في : مخرج الحرف ، وصفته باعتباره صوتاً مفرداً ، ثم اقترانه بما يناسبه من حروف في الكلمة ، وتكرار بعض الحروف...

و ينتقل ابن القيم إلى التمثيل لهذه الأوجه ، بما وقف عليه من دقائق اللغة العربية وأسرارها في المناسبة بين اللفظ والمعنى ومن ذلك :

1- التكرير في الفعل الرباعي نحو : وسوس - زلزل - دكدك - قلقل وككبكب...⁽²⁾ لما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس ، ويؤكدده عند من يلقيه إليه ، كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها ، فقالوا: وسوس وسوسة ، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه⁽²⁾

¹ المصدر نفسه - ص 190

² المصدر نفسه - ص 784

والزلزلة أيضا حركة متكررة ، وكبكب الشيء إذا كبه في مكان بعيد ، فهو يكبّ فيه
كبّا بعد كبّ كقوله تعالى: ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاؤون ﴾ (1) ، فكل هذه الصيغ دالة
على تكرار الفعل تبعا لقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني (2)

2- قاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى : كالفرق بين " احمرّ واحمارّ " فالألف لم ترد في
"احمارّ" إلاّ لدخول معنى زائد.

وعليه فإنّ "احمرّ" يقال لما احمرّ وهلة وتكامل لون الحمرة فيه " نحو "احمرّ الثوب" ونحوه.
وأما "احمارّ" فيقال لما يبدو فيه اللون شيئا بعد شيء على التدرج ، فيبتدئ صاعداً إلى
كماله نحو: "احمارّ البسر واصفارّ" (3)

3- دلالة الحروف المقطعة في أوائل السور: مثل ﴿ ألم ﴾ فالهمزة أول المخارج من أقصى
الخلق، واللام من وسط مخارج الحروف ، وهي أشد الحروف اعتماداً على اللسان ، والميم
آخر الحروف ومخرجها من الشفتين. فاشتملت الحروف الثلاثة على البداية والنهاية
والوسط ، مع تضمنها سرّاً عجبياً ، وهو وأن السور التي افتتحت بهذه الأحرف الثلاثة
كالبقرة وآل عمران والسجدة والروم... ، مشتملة على بدء الخلق ونهايته ، وعلى التوسط
بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر والنواهي. (4)

والتأمل في باقي السور التي بدأت بحروف مقطعة أفضى بابن القيم إلى الكشف عن
مناسبات وأسرار أخرى كما في طه، طس، ق، ص وغيرها، وهي قطرة من بحر من بعض
أسرار هذه الحروف. (5)

1 الشعراء - 94

2 المصدر نفسه - ص 784

3 المصدر نفسه - ص 475

4 المصدر نفسه - ص 1119-1120

5 المصدر نفسه - ص 1120-1121

- و في مواضع عديدة من كتابه "بدائع الفوائد" نجد ابن القيم يورد الأمثلة تلو الأخرى للتدليل على وجود الدلالة الصوتية في لغة العرب وأنه أصل تواتر في كلامهم. ومن ذلك تناسب الأصوات في اسم الجلالة (الله) مع معناه⁽¹⁾ ، وكذا الدلالة الصوتية في الضمائر ومنها ضمير المتكلم (أنا)⁽²⁾ ، وفي اسم الإشارة (هذا) حيث نقل ابن القيم كلاماً بديعاً للسهيلي ، يبين فيه سرّ اختيار حرف (الذال) في اسم الإشارة (هذا) ، "لأنها من طرف اللسان ، والمبهم مشار إليه ، فالتكلم يشير نحوه بلفظه أو بيده ، ويشير مع ذلك بلسانه ، فإن الجوارح خدم القلب ، فإذا ذهب القلب إلى شيء ذهاباً معقولاً ، ذهب الجوارح نحوه ذهاباً محسوساً ، والعمدة في الإشارة في هذا الموطن على اللسان ، ولا يمكن إشارة اللسان إلا بحرف يكون مخرجه من عذبة اللسان ، التي هي آلة الإشارة دون سائر أجزائه ، والذال مجهورة فخصت بالإشارة إلى الذكور، وخصت التاء بالإشارة إلى المؤنث للفرق بينهما ، وكانت أولى بها لهمسها وضعف المؤنث... وربما شركوا المؤنث مع المذكر في الذال واكتفوا بالكسرة والياء فرقا بينهما... وربما جمعوا بين لفظ التاء والكسرة حرصاً على البيان"⁽³⁾

يشير السهيلي إلى الفرق بين أسماء الإشارة للمذكر: هذا ، ذاك ، ذلك ، وللمؤنث هذه ، هاته ، تلك ، ويضيف إلى أسرار مناسبة الصوت للمعنى في أسماء الإشارة ، أنهم زادوا اللام تأكيداً حين أشاروا للبعيد أو الغائب في نحو (ذلك وتلك) : " وكانت اللام أولى بهذا الموطن ، حين أرادوا الإشارة إلى البعيد ، فكثروا الحروف حين كثرت مسافة الإشارة، وقللوها حين قلت "⁽⁴⁾

¹ المصدر نفسه - ص316

² المصدر نفسه - ص 308 - 309 وانظر أيضا : عبد الرحمن السهيلي : نتائج الفكر في النحو - تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض - دار الكتب العلمية بيروت - ط 1 (1412 هـ - 1992 م) - ص 107 وما بعدها

³ ابن القيم : المصدر السابق - ص 317 - السهيلي : المصدر السابق - ص 177 - 178

⁴ ابن القيم : المصدر السابق - ص 318 - السهيلي : المصدر السابق - ص 178

- ومن بدائع مناسبة الصوت للمعنى الفرق بين أدوات النفي (لن - لا) ، فمن خواص (لن) أنها تنفي ما قرب ، ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداد معنى النفي في حرف (لا) إذا قلت (لا يقوم زيد أبدا).

ويبدع السهيلي في كشف أسرار المناسبة الصوتية في هذين الحرفين قائلا: " الألفاظ مشاكله للمعاني التي هي أرواحها ، يتفرس العاقل فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسه ، كما يتعرف الصادق للفراسة صفات الأرواح في الأجساد بنحيزة نفسه. فحرف (لا): لام بعدها ألف ، يمتد بها الصوت ما لم يقطعه تضيق النفس ، فإذا امتداد لفظها بامتداد معناها، و(لن) بعكس ذلك ، فتأمله فإنه معنى لطيف وغرض شريف"⁽¹⁾

وضرب لذلك أمثلة من القرآن (2) ، كقوله تعالى: ﴿ قل يأيتها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم "⁽³⁾

فجاء النفي ب(لا) في هذا الموضع الذي اقترن فيه حرف الشرط بالفعل (إن زعمتم) ، فصار من صيغ العموم ، فانسحب على جميع الأزمنة ، كأنه يقول : متى ما زعموا ذلك لوقت من الأوقات ، أو زمن من الأزمان ، وقيل لهم: "تمنوا الموت" فلا يتمنوه ، وحرف الشرط دل على هذا المعنى ، وحرف (لا) في الجواب بإزاء صيغ العموم ، لاتساع معنى النفي فيها.

أما في سورة البقرة فجاء النفي ب(لن) في قوله تعالى: ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ﴾⁽⁴⁾

¹ السهيلي : المصدر السابق - ص 100 - 101

² السهيلي : المصدر السابق - ص 101 وما بعدها

³ الجمعة : 6-7

⁴ البقرة : 94 - 95

فقصر من سعة النفي وقرب ، لأن قوله تعالى في النظم: ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ ،

وليست (إن) هاهنا مع (كان) من صيغ العموم ، فكأنه قال: إن كانت قد وجبت لكم الدار الآخرة وثبتت لكم في علم الله تعالى فتمنوا الموت الآن ، ثم قال في الجواب : " ولن يتمنوه " فانتظم معنى الجواب بمعنى الخطاب في الآيتين جميعا. وشبيهه بالمثاليين السابقين قوله تعالى لنيبه موسى لما سأل رؤيته: ﴿ لن تراني ﴾¹ ولم يقل "لا تراني" فإن "الن" دالة على القرب ، وبذلك لم يكن للمعتزلة حجة على نفي الرؤية في هذه الآية ، وأما الإدراك الذي لا يكون بحال فنفاه ب"لا" فقال: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾² ، فالأبصار لا تدركه بحال ، لأن الإدراك منفي ب(لا) نفيًا مطلقًا بخلاف الرؤية.



وخلاصة هذه الوقفة الطويلة المتأنية مع دراسات علمائنا للدلالة الصوتية ، أنهم - وبخاصة علماء اللغة - قد بذلوا جهودا كبيرة في دراسة هذه الظاهرة ، وتمكنوا بفضل دقة ملاحظاتهم ، وعمق تحليلاتهم ، من الكشف عن الكثير من الأسرار الدقيقة للغة العربية ، وبيان أوجه هامة من المناسبة بين الصوت والمعنى . وإن كانت جهودهم قد اقتضت على دراسة هذه الظاهرة على مستوى الكلمة المفردة ، دون أن تمتد إلى مستوى التركيب اللغوي ، فضلا عن دراسة الظاهرة على مستوى النص الأدبي بكامله. ولعل عذرهم في ذلك أن دراسة الدلالة الصوتية في هذا المستوى ، أقرب ما تكون إلى اختصاص النقاد والبلاغيين ، ولو استثمر هؤلاء ما توصل إليه اللغويون من نتائج ، وتابعوا

¹الأعراف - 143

²الأنعام - 103

منهجهم في تحليل النصوص الأدبية ، لكان في ذلك إثراء هام لهذا الحقل من الدراسات الأدبية والنقدية ، الذي يعتبر بحق مجالاً خصباً ، تتجلى فيه بوضوح رمزية الدلالة الصوتية، التي تعد أداة فعالة من أدوات التأثير وإضفاء جملة من الإيحاءات والظلال الفنية على التعبير الأدبي.

المطلب الثاني : الدلالة الصوتية في الدراسات الحديثة :

لقد حظي موضوع الصلة بين الصوت والمعنى باهتمام كبير من قبل اللغويين والنقاد المحدثين ، العرب منهم والغربيين ، واستمر معهم النقاش القديم الذي دار حول علاقة الصوت بالمعنى بين الاعتباطية والمناسبة الطبيعية ، فذهب بعض علماء اللسانيات إلى القول بالعلاقة الاعتباطية التي أساسها التعارف والاصطلاح ، في حين رأى كثير من النقاد في دراساتهم الأسلوبية أن المناسبة بين اللفظ والمعنى تبرز بصورة واضحة حين يوظف المبدع إمكانات اللغة وطاقاتها الكامنة في التعبير عن مختلف المعاني والأغراض . لذلك أرى انه من اللازم في دراسة هذه المسألة التمييز بين مستويين :

- مستوى الدراسات اللسانية

- مستوى الدراسات الأسلوبية

1. الدلالة الصوتية في الدراسات اللسانية الحديثة:

دي سوسير

يعتبر دي سوسير من أبرز علماء اللسانيات الذين قرروا اعتباطية الدليل اللغوي ، وأن لا رابط يجمع الدال ببلدلول إلا رابط التواضع والاصطلاح.⁽¹⁾ ويمثل لذلك بكلمة "أخت" ، فالمعنى الذي تحمله هذه الكلمة لا تربطه أية علاقة داخلية بتتابع الأصوات : الهمزة - الضمة - الحاء - التاء - التنوين ، ومن الممكن أن تمثله أية مجموعة أخرى من الأصوات ، ويؤيد ذلك ما يوجد بين اللغات من فوارق في تسمية الأشياء ، بل واختلاف اللغات نفسه.⁽²⁾

¹ فردينان دي سوسير : دروس في الألسنية العامة - ترجمة : صالح القرماضي - محمد الشاوش - محمد عجينة - الدار العربية للكتاب - ط 1985 م - ص 111

² المرجع نفسه - ص 112

يؤكد دي سوسير في كلامه هذا بأنه لا علاقة بين الصوت والدلالة إلا العلاقة الـ عافية الاصطلاحية ، التي بموجبها اتفقت وتواضعت مجموعة بشرية ما ، على اختيار سلسلة من التتابعات الصوتية ، للدلالة على معنى معين ، ويمكن لأية مجموعة بشرية أخرى أن تختار أصواتا أخرى مغايرة تماما ، للتعبير عن ذلك المعنى.

وتبعاً لتأكيديه على مبدأ اعتبارية الدليل اللغوي ، فإن دي سوسير سي طرح جانباً مصطلح الرمز (symbole) ، الذي استعمله بعضهم بمعنى الدليل اللغوي ، ويرى فيه عيوباً تحول دون قبوله ، لأن الرمز يتميز بكونه فيه شيء طفيف من الربط بين الدال والمدلول ، فهو ليس اعتبارياً تماماً. ومثل لذلك بالميزان كرمز للعدالة.⁽¹⁾

واعتماداً على هذا المبدأ أيضاً ، يصل دي سوسير إلى أن الاعتبارية ضرورية في كل العلامات ، حتى الطبيعية منها ، فالإشارات الدالة على آداب السلوك مثلاً ، وهي محملة غالباً بصيغة تعبيرية طبيعية ، تبقى دائماً في حاجة إلى التواضع والاتفاق عليها داخل المجتمع ، حتى تصير إشارة مستعملة في التعبير عن المعنى المراد منها ، والذي يفرض استعمال تلك الإشارات هو قاعدة التواضع ، وليس قيمة تلك الإشارات في حد ذاتها. ولا أدل على ذلك من أن الصينيين مثلاً إذا حيوا أباطرتهم سجدوا لهم تسعاً⁽²⁾.

وإذا كان دي سوسير يؤكد على مبدأ اعتبارية الدليل اللغوي ، فلأن اللغة في نظره ظاهرة اجتماعية ، لا توجد إلا بمقتضى نوع من التعاقد الذي يتم بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة ، بحيث يقوم فيما بينهم شبه القاسم المشترك ويتفقون في استعمال - لا على سبيل التدقيق ولكن على سبيل التقريب - نفس الدلائل مقرونة بنفس المتصورات الذهنية.⁽³⁾

¹ المرجع نفسه - ص 113

² المرجع نفسه - ص 112

³ المرجع نفسه - ص 33 ، 36

وهذا هو الجانب الاجتماعي من الكلام الخارج عن نطاق الفرد ، وفي هذا المستوى يميز دي سوسير بين ثنائية : اللغة واللفظ أو (اللغة - الكلام) ، وهو حين يفصل اللغة عن اللفظ فإنه يفصل في الآن نفسه:

أولاً: ما هو اجتماعي عما هو فردي.

ثانياً: ما هو جوهري عما هو ثانوي وعرضي بدرجة من الدرجات.⁽¹⁾

إن القول باعتبارية العلامة اللسانية يتناسب إذن مع اختيار دي سوسير ألسنية اللغة على ألسنية اللفظ ، حيث قصر اهتمامه على الجانب الاجتماعي للغة ، الخارج عن نطاق الفرد. وإذا كانت الدلالة الصوتية تبرز أساساً حين يستعمل الفرد اللغة ، كما في إبداعات الأدباء والشعراء ، حين يتم إخراج اللغة من حيز الكمون إلى حيز الوجود الملموس ، فإنها بهذا الاعتبار لم يهتم بها دي سوسير ، لأن الجانب الفردي من الكلام يعتبر - في نظره - أمراً ثانوياً تظل اللغة خارجة عنه ، والقسم الجوهري موضوعه اللغة كنظام ، وهي جماعية في جوهرها مستقلة عن الفرد.

بيير جيرو :

نجد إضافات لما قاله دي سوسير حول مبدأ اعتبارية الدليل اللغوي ، عند أحد أبرز علماء الدلالة: بيير جيرو ، الذي قسم الإشارات والرموز إلى نوعين:

- رموز (أو إشارات) معللة (أو أيقونية): تشير إلى خواص طبيعية للأشياء ، وتعتبر إشارات تمثل الواقع ، مثل الصور أو الأيقونات لكلوحات المرور ، فالرسم الذي يمثل صورة طفلين خارجين من المدرسة يمثل رمزا معللا ، يدل طبيعياً على وجود مدرسة ، وأن الحذر ضروري في هذا المكان.

- رموز قسرية بحتة: عبارة عن إشارات اصطلاحية كالكلام.

¹ المرجع نفسه - ص 34

ولكنه بعد ذلك يؤكد أن الحدود بين هاتين المجموعتين ليست فاصلة ، فالرموز المعللة والايقونات تحتاج إلى التواضع كي يثير المعنى ، ومن جهة أخرى فإن الرموز القسرية كاللغات فيها حظ من العلل.

فالرموز المعللة كالأعراف الاجتماعية (إمالة الرأس تعني الاستسلام ، والتجشؤ يعني إشارة لحسن الهضم) ، وهذا يؤكد وجود علاقة طبيعية بين الإشارة ومعناها ، ولكن كل هذا لا يكفي ، بل لا يعد ضروريا كي يثير المعنى ، والسبب أن المعنى يقوم على التواضع.

والرموز القسرية البحتة كاللغات ، فالكلام الإنساني نفسه يحتوي على حظ وافر من العلل، مثل الأصوات الحاكية تتكون من إشارات إيغونوغرافية ، والشعر فن لساني يستخدم الإمكانيات الكامنة في البيان الطبيعي ، كالتناسقات والايقاعات التي تعتبر مقاطع منسوخة عن الحركة وعن الزمن الداخلي لانفعالاتنا.

والنتيجة التي يخلص إليها أن الرموز كلها (بنوعها المعلل والقسري) تواضعية في الحالين ، ولكن التواضع المشترك لا ينفي (ولا يثبت كذلك) وجود مشتركات طبيعية بين الإشارة والمعنى.⁽¹⁾

مفاهيم : القسر - العلة - التواضع:

يميز بيير جيرو بين ثلاثة مفاهيم [القسر - العلة - التواضع] : تعتبر الإشارة قسرية إذا لم تقم بين الدال والمدلول أية علاقة أخرى غير علاقة التواضع البحت للمتكلمين ، وإذا كان الأمر غير ذلك فتعتبر الإشارة علة. وإن من إحدى بديهيات اللسانيات الحديثة أن

¹ بيير جيرو : علم الدلالة - ص31-32

تعتبر اللغة نظاما من الرموز القسرية والخالية من العلل فلا يوجد أي رباط طبيعي بين الاسم والشيء المسمى.

يعتبر بيير جيرو أن القسر يتعارض مع العلة ، ويشترك مع التواضع ، ولكنه يشير إلى لفظة مهمة وهي أن التواضع لا ينفي العلة (1) يقول:

"يكمن جوهر الإشارة اللسانية في التواضع وليس في القسر ، وإذا كان التواضع يميل إلى إزالة العلة عن الإشارة فإن هذا يعني أنه يتجه نحو القسر، ولكنه لا يعني أنه اتجاه لنفي العلة إطلاقا ، وعلى ذلك فإن العلة في مثل هذه الحالة تكون صورة ثانوية ، أي ليس لها ضرورة مباشرة ، وهي إذ تفعل ذلك تعطل وتظلم تختفي.... فكل كلمة تعتمد على العلة في أصلها وتحتفظ بها زمنا طويلا نسبيا بحسب الحالات ثم تنتهي إلى السقوط في القسر بعد ذلك ، وهنا تتوارى العلة وتصبح غير مرئية " (2)

يشير بيير جيرو في كلامه هذا إلى حقيقتين هامتين:

- 1- كل كلمة تعتمد على العلة في أصلها وتحتفظ بها زمنا ثم تتوارى وتختفي ، والذي يخفيها هو التواضع الذي هو جوهر الإشارة اللسانية ، حين تصير بفعل الاستعمال اجتماعية ، والتواضع بذلك يخفي العلة ، ويتجه بها إلى السقوط في القسر بعد ذلك.
- 2- التواضع يخفي العلة فقط ولا ينفيها ، وعليه فإن العلة في مثل هذه الحالة تبقى ولكن في صورة ثانوية ، ويصير الجوهر هو التواضع.

التواضع ← ينتج لنا المعنى الأصلي (المركزي)

العلة الثانوية تنتج لنا المعنى التبعي (المعاني الحافطة الإضافية)

¹ المرجع نفسه - ص44

² المرجع نفسه - ص45

- ثم يذكر بيير جيرو بعد ذلك أن العلة تأخذ عدة أشكال ، منها العلة الصوتية التي نجدها في الكلمات المحاكية (onomatopé) التي تقوم على التساوق بين الشكل الصوتي والشياء المسمى ، وهي قد تكون:

- سمعية : في كلمات مثل Glouglou - Claquer

- سمعية سينمائية : عندما تنتج أعضاء الكلام الحركة التي تساميتها (Piquer)
(Toquer – Glisser)

- صوتية مجازية : عندما تشبه الضوضاء أو الحركة بالأشكال والألوان والمشاعر ... (1)

ج. فنديريس:

ومن الذين أكدوا اعتبارية العلامة اللسانية : ج. فنديريس ، فقد كان رأيه متفقاً مع ما رآه دي سوبير ، أنه لا يوجد بين العلامة والمدلول أي رباط مستمد من الطبيعة ، ولكنه رباط مأخوذ من الظروف فحسب ، وقد اعتبر أن محاولة اكتشاف نوع من الرمزية للأصوات لا تثير في أيامنا هذه إلا الابتسام ، وأن ما هو مهم ليس تسمية الأشياء بهذه الكلمات أو تلك ، وإنما هو إعطاء الكلمات - بنوع من الاتفاق الضمني بين المتكلمين - قيمة اسمية، واتخاذها وسائل لتبادل الأفكار ، كما اتخذت النقود والأوراق النقدية لتعوض مقايضة الأشياء بعضها ببعض.(2)

ولكن فنديريس بالرغم من تأكيده على العلاقة العرفية الاصطلاحية بين الدال والمدلول لم يهمل تأثير الأصوات في الدلالة ، خاصة حين ميز بين مستويين من الاستعمال اللغوي ،

¹ بيير جيرو : المرجع السابق - ص 46

² ج. فنديريس : اللغة - تعريب : عبد الحميد الدواخلي - محمد القصاص - مكتبة الأنجلو المصرية - ص 40

سماهما: اللغة المنطقية – واللغة الانفعالية ، مستلهما ذلك من فكرة أن " الإنسان لا يستخدم اللغة فحسب للتعبير عن شيء ، بل للتعبير عن نفسه أيضا " (1)

ومن ثم فإن اللغة لا ينبغي أن تدرس فقط في الصورة التي تصاغ فيها الأفكار صياغة منطقية ، باعتبار اللغة أداة عقلية لنقل الأفكار ، لأن الإنسان لا يتكلم ليصوغ أفكارا فحسب ، بل يتكلم ليؤثر في أمثاله وليعبّر عن حساسيته ، ومن هنا ينبغي التمييز في اللغة بين عنصرين : العنصر المنطقي والعنصر الانفعالي.(2)

وإذا كانت اللغة حدثا اجتماعيا ، فإن كلا العنصرين (المنطقي والانفعالي) لا ينفكان عن الاختلاط فيها ، " فإذا استثنينا اللغات الاصطلاحية ، واللغة العلمية منها بوجه خاص – تلك التي تعد خارج الحياة بطبيعتها – أمكننا أن نقول بأن التعبير عن أية فكرة لا يخلو مطلقا من لون عاطفي ... ، ولا توجد جملة مهما كان حظها من الابتدال ، لا تخالطها عناصر انفعالية " (3)

فإذا ما درسنا هذا الاختلاط بين العنصر المنطقي و العنصر الانفعالي ، في ميدان المفردات و علاقة اللفظ بمعناه ، أمكننا القول بأن: " الكلمة لا تتحدد فقط بالتعريف التجريدي الذي تحددها به القواميس ، إذ يتأرجح حول المعنى المنطقي لكل كلمة جوّ عاطفي ، يحيط بها وينفذ فيها ، ويعطيها ألوانا مؤقتة على حسب استعمالاتها ... ألوانا خاصة هي التي تكوّن قيمتها التعبيرية " (4).

يميز فنديرس هنا بين نوعين من المعنى :

1 المرجع نفسه – ص 183

2 المرجع نفسه – ص 182 – 183

3 المرجع نفسه – ص 183 – 184

4 المرجع نفسه – ص 235

-المعنى المنطقي: وهو المعنى الأساسي المركزي للكلمة ، وبه تتم عملية التواصل والتفاهم.

-المعاني الحافة: التي تحيط بالمعنى المركزي ، وتعطيه ألوانا وظلالا خاصة ، ترتبط باستعمال الكلمة في سياق معين . ويسمى هذا النوع من المعنى " قيما تعبيرية " .
و حين راح يحلل هذه القيم التعبيرية لمعرفة منشئها و أصولها ، قرر أنها تنشأ أولا من اتفاق يتكون بين معنى الكلمة والأصوات التي تتألف منها.

ونراه في هذا الموضوع أيضا ، بالرغم من إبطاله للفكرة القائلة بأن الكلمات تكونت في الأصل من أصوات مساوية للأفكار ، وأنه لا علاقة ضرورية بين الحرفين (f - l) مجتمعين في كلمة fleuve (نهر) ، وبين فكرة السيالان ، إذ توجد كلمات لا تحتوي على مثل هذين الصوتين ، وتعبر مع ذلك عن فكرة السيالان ، كما تعبر عنه كلمة fleuve و ذلك في مثل: ruisseau (مجرى) و rivière (جدول) و torrent (سيل) ، كما توجد كلمات تشتمل على هذين الحرفين ولا توظف في الذهن إطلاقا فكرة السيالان مثل fleur (زهرة) .

إلا أنه يعود في الأخير ، ليستشعر وجود نوع من العلاقة الطبيعية بين بعض الكلمات وأصواتها ، فيقول: "ولكن من الحق أن كلمة fleuve (نهر) معبرة ، لأن الأصوات التي تكونها صالحة تمام الصلاحية لإثارة الصورة التي تمثلها" (1).

وإذا كان فندريس يعترف مبدئيا بالطاقة التعبيرية للأصوات ، وقدرتها على إثارة الصورة التي تمثلها ، كما هو الشأن في الكلمات التي تعبر بأصواتها عن معناها onomatopées ، إلا أن هذه القدرة التعبيرية للأصوات تبقى - في نظره - مجرد طاقات كامنة ، تجعل الصوت صالحا لإثارة المعنى ، والأديب أو الشاعر المبدع هو الذي

¹ المرجع نفسه - ص 236

يستطيع أن يحمّل أصوات الكلمة كل قيمة تعبيرية تروقه ، وهو في وسعه أن يحدث تأثيرات غير منتظرة ، بكلمات يظنها البعيد عن هذا الفن غير جديرة بمثل هذا الاستعمال.⁽¹⁾

فالقيمة التعبيرية للصوت مرتبطة أيضا باختيار المبدع ، وقدرته على توجيه دلالة الصوت إلى القيم التي يدوم التعبير عنها ، وهو بوسعه - انطلاقا مما يختزنه النظام الصوتي للغة من طاقات تعبيرية - أن يختار التشكيل الصوتي المناسب للسياق الذي يخوض فيه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه لا ينكر أن الدلالة الصوتية قد تتدخل في إنتاجها أحيانا قراءة المتلقي ، اعتمادا على ما مرّ به من رصيد من التجارب الشخصية مع بعض الأصوات والكلمات ، حيث تتولّد عن ذلك كله انطباعات نفسية ، تنبعث فجأة من مجرد سماع صدى الكلمات ، بغضّ النظر عن إدراك معناها .

فالكلمة - في نظر فندريس - أيا كانت توقظ دائما في الذهن صورة ما ، بهيجة أو حزينة ، رضية أو كريهة ... ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذي تعبر عنه ، وقبل أن يعرف هذا المعنى في غالب الأحيان .

ويوضح هذه الفكرة أكثر حين يقيسها بحالة شخص ذكر أمامه اسم إنسان لم يره قط ، فإنه بمجرد سماعه للاسم يكونّ عنه فكرة في الحال - ولو زائفة - وقد تتغير تلك الفكرة بعد أن يعرف الشخص على الحقيقة ، ومثل هذا الشيء نفسه يحصل بالنسبة لكلمات اللغة.⁽²⁾

¹ المرجع نفسه - ص 236 - 237

² المرجع نفسه - ص 237

فالمرء قد يحدس معنى كلمة من الكلمات في لغة من اللغات ، اعتمادا على خبراته السابقة في تلك اللغة ، بحيث يصير مجرد النطق باللفظ يستدعي إلى الذهن أمثاله من الألفاظ ، ويستدعي معها دلالاتها ، ويستوحي المرء من كل هذا دلالة لذلك اللفظ المجهول ، تحت تأثير ما احتزنه في حافظته ، وقد يوفق في هذا الاستيحاء ، وقد يخيب. وهنا يمكن القول أن اختلاف الخبرات والتجارب مع الكلمات يؤدي إلى اختلاف الحدسات الناتجة .

وقد مثل د. رمضان عبد التواب لهذه الحالة بكلمة (عتيد) ، حين نذكرها لشخص لا يعرف معناها الأصلي وهو (حاضر ، معدّ ، مهياً) ، فإنه سيقيسها على كلمات له معها رصيد من التجارب و الخبرات السابقة ، وحينئذ سيسحب معنى هذه الكلمة إلى كلمة "عتيد" فيعطيها معنى " جبار" أو "قوي" مثلا ، أو سيقيسها على كلمة " عتيق" ، فيعطيها نفس معناها وهو " قديم" ، أو "موغل في القدم" (1).

إن هذه الانطباعات وتلك العلاقات التي تقوم حول الكلمات تترك نتائجها في مخيلة الإنسان وعقله ، بحيث متى مثلت الكلمة وطففت إلى الشعور " جرت وراءها جحفا من المعاني والعواطف ، التي ترتبط بعرى دقيقة ، على استعداد دائم للكشف عن نفسها" (2).



ما نخلص إليه من خلال هذه الوقفة الطويلة مع علماء اللسانيات ، أنه بالرغم من معارضة دي سوسير للدلالة الطبيعية ، وحصره العلاقة بين الدال والمدلول في الاعتبارية والعرفية - مع الأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يتحدث فيه دي سوسير عن اللغة

¹ رمضان عبد التواب : بحوث ومقالات في اللغة- مكتبة الخانجي بالقاهرة - ط 3 (1415 هـ - 1995 م) - ص 18

² فندريس : المرجع السابق - ص 239

باعتبارها نظاما وأداة لنقل الأفكار والتصورات وتحقيق التواصل بين الأفراد – فإن زمرة من اللسانيين كانت لهم إضافات ، نجد أهمها عند بيير جيرو ، الذي اعتبر أن اللغة نظام من الرموز القسرية التواضعية ، إلا أن فيها حظا من العلل ، وأن الكلمات تعتمد على العلة في أصلها ، وتحفظ بها زمنا ثم تتوارى العلة وتختفي بفعل التواضع الذي يتجه بالعلة نحو القسر ، لكنه لا ينفىها إطلاقا ، فتبقى ولو ثانوية ، لأن التواضع لا ينفى وجود مشتركات طبيعية بين الدال والمدلول .

أما فنديريس ، فبالرغم من تأكيده على اعتبارية العلاقة بين الدال والمدلول ، إلا أنه يحصر هذه العلاقة في مستوى اللغة المنطقية ، حين تستعمل اللغة أداة عقلية لنقل الأفكار ، ولا يمنع ذلك وجود نوع من المناسبة بين اللفظ والمعنى في مستوى اللغة الانفعالية ، حين يستعمل الإنسان اللغة ليؤثر في غيره ، ويعبر عن أحاسيسه ومشاعره ، وفي هذا المستوى من الاستعمال تبرز قيم تعبيرية تحيط بالمعنى المنطقي ، وتضفي عليه ألوانا وظلالا خاصة ، ويكون منشؤها أحيانا من اتفاق يكون بين الصوت والمعنى . ويكون للمبدع دور في توجيه الدلالة الصوتية ، بحسب مدى قدرته على توظيف الطاقات الدلالية للأصوات وابتعاث إيجاءاتها ، وتتدخل في ذلك أيضا قراءة المتلقي ، وما تختزنه خبرته اللغوية من تجارب ، تجعل بعض الانطباعات الخاصة ترتسم حول بعض الأصوات والكلمات .

وهناك طائفة أخرى من اللسانيين ذهبوا إلى القول بالمناسبة بين الألفاظ ودلالاتها

ومن هؤلاء:

هملت :

الذي رأى أن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء بواسطة ألفاظ ، أثرها في الآذان يشبه أثر تلك الأشياء في الأذهان. إلا أنه مع تقريره لهذا المبدأ ، لم يدع أن مثل هذه

الظاهرة تطرد في كل كلمات اللغة ، وحين خفيت عليه تلك الصلة في بعض الكلمات ، ووجدها غامضة ، أجاب بأن الصلة بين أصوات الكلمة ومدلولاتها بدأت واضحة ، ثم تطورت تلك الأصوات أو تلك الدلالات وأصبحت الصلة غامضة علينا.⁽¹⁾

جسبرسن:

وبرز على رأس القائلين بالمناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها جسبرسن ، إلا أنه حذر أيضا في المغالاة فيها ، لأن الظاهرة لا تطرد في لغة من اللغات. وفي سياق توضيحه لتلك الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها أورد بعض الأمثلة⁽²⁾:

- ومن أوضحها الكلمات المحاكية لأصوات الطبيعة ، وتسمى **onomatopées** ، وهي ظاهرة موجودة في كل اللغات ، ومثالها في العربية حفيف الرياح ، وخرير الماء ، وزئير الأسد... وغيرها من الألفاظ التي استمدت ألفاظها من أصوات الطبيعة .
- ثم يؤكد أن الألفاظ التي تعبر عن الصوت الطبيعي ، قد تنتقل وتصبح معبرة عن مصدر هذا الصوت ، ومثالها أن طائرا في أوروبا يظهر في فصل الربيع ويصيح (كوكو) ، فصار لفظ هذا الصوت اسما له .

وكذلك قد تسمى حركات الإنسان بما ينبعث عنها من أصوات ، فالصنع في العربية مثلا كلمة تعتبر بأصواتها بمثابة صدى لوقع اليد على الوجه ، فانتقلت من كونها حكاية لصوت حركة الفعل ، إلى أن أصبحت تسمية لنفس الحركة.

- يظهر ارتباط الصوت بالدلالة في بعض الكلمات التي تعبر عن حالات نفسية ، كالغضب والكره ... أو عن حجم الأشياء وأبعادها ، فالكسرة وما يتفرع عنها من ياء

¹ د. إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ - مكتبة الأنجلو المصرية - ط 1984 م - ص 68

² المرجع نفسه - ص 68 - 70

المد ترمز في الكثير من اللغات إلى صغر الحجم ، أو قرب المسافة ، والكسرة علامة للتأنيث في العربية مثلا ، والياء علامة للتصغير .

- كما يشير جسبيرسن إلى أثر زيادة المبني في زيادة المعنى .

اللغويون العرب المحدثون :

وقد انسحب هذا الخلاف حول الصلة بين اللفظ والمعنى إلى اللغويين العرب في العصر الحديث، حيث تطالعنا آراء عدد من الدارسين ممن عارضوا فكرة المناسبة بين الصوت والمعنى. ومن بينهم د. رمضان عبد التواب ، فبعد أن نقل مقولة عباد بن سليمان المعتزلي القائل بذاتية الصلة بين اللفظ ومدلوله ، شكك في صحتها وقال معقبا: " فإنه لو صح ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة على وجه الأرض " (1).

وقد فسّر ما يجده البعض من قيمة تعبيرية للصوت في بعض الكلمات ، بأنه نوع من الحدس المكتسب بفعل الخبرة اللغوية ، التي ينتج عنها الشعور بارتباط بعض الأصوات ببعض المعاني ، وهذا الحدس قد يصيب أحيانا غير أنه كثيرا ما يخيب. (2)

أما د. تمام حسان ، فبعد أن ذكر اختلاف الناس قديما وحديثا في علاقة الدال بالمدلول ، رجح رأي القائلين بالمواضعة والتعارف ، الذي أساسه الاعتباط لا المنطق ولا الطبيعة ، بدليل اختلاف الأسماء للمسمى الواحد من لغة إلى أخرى. (3)

¹ د. رمضان عبد التواب : بحوث ومقالات في اللغة - ص 18

² المرجع نفسه - ص 18 - 19

³ د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها - دار الثقافة - الدار البيضاء المغرب - ط 1994 م - ص 318

وقد كان **د. محمود فهمي حجازي** صارما في هذه المسألة بقوله: " وليست هناك أية علاقة طبيعية بين الرمز اللغوي ومدلوله في الواقع الخارجي ، والعلاقة الوحيدة القائمة بين الرمز الصوتي اللغوي وما يدل عليه هي علاقة الرمز " (1).

وقد بالغ في نفي أية علاقة بين الدال والمدلول سوى الاعتباطية ، بما في ذلك الكلمات المحاكية **onomatopées** ، فهي بذلك لا تختلف في شيء عن باقي كلمات اللغة من حيث اعتباطية دلالتها ، وقد اعتبر ما يلاحظ فيها من مناسبة بين الصوت والمعنى مجرد وهم - في نظره - ، لأنها لم تكتسب قيمتها الرمزية إلا في بيئة لغوية محددة ، فليست دلالات هذه الكلمات طبيعية مشتركة في كل اللغات ، بل كل منها ذات إيجاء محدد في مجتمع لغوي بعينه دون غيره ، فكلمة (خريز) مثلا مقصورة في استعمالها على المجتمع اللغوي العربي (2).

وقد أنكر **د. عبده الراجحي** وجود مناسبة بين الألفاظ ومعانيها ، فبعد أن ذكر ما ورد عن قدامى اللغويين العرب أمثال ابن فارس وابن جني ، وإعجاب **د. صبحي صالح** بعمق تحليلات ابن جني إعجابا شديدا ، حتى اعتبره فتحا مبينا في فقه اللغات ، قال معقبا: " غير أن اقتناع ابن جني بهذا الرأي ، وإعجاب الدكتور **صبحي الصالح** به ، لا يمنع من التأكيد على أن أهل اللغة بوجه عام يطبقون على رفضه ، ويرون أنه ليست هناك مناسبة بين اللفظ ومدلوله ، وليست هناك علاقة بين الرمز والشيء الذي يرمز إليه " (3).

وقد أكد **د. إبراهيم أنيس** معارضته لوجود مناسبة طبيعية بين الألفاظ ودلالاتها ، ورأى أن الألفاظ لا تعدو في حقيقتها أن تكون بمثابة رموز على الدلالات ، يصلح كل منها أن

¹ د. محمود فهمي حجازي - علم اللغة العربية - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - ص 14

² المرجع نفسه - ص 15

³ د. عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية - دار النهضة العربية - بيروت - ص 68

يتخذ للتعبير عن أي معنى من المعاني ، فكلمة " شجرة " مثلا ليس في لفظها وأصواتها ما يوحي باشتغالها على فروع وجذور وأوراق وخضرة ، ولذلك يمكن أن تسمى بأي لفظ آخر ، متى اصطلاح الناس عليه وتواضعوا على استعماله.⁽¹⁾

وقد فسر ما يلاحظ في كثير من الألفاظ من صلة بينها وبين دلالاتها ، بأنها ليست صلة ذاتية نشأت مع تلك الألفاظ أو تولدت بمولدها ، وإنما هي صلة مكتسبة اكتسبتها بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال.

ثم بين منشأ هذه الدلالة المكتسبة ، بأن الكلمة ترتبط في تاريخها بظروف خاصة تحيط بها ، وتعرض للمتكلمين والسامعين في أثناء استعمالها حالات نفسية متباينة ، فينشأ عن ذلك كله صلة وثيقة ، بين أصوات الكلمة ، وتلك الانطباعات التي علق بها مع مرور الزمن ، ويزداد وثوق تلك الصلة حين يشترك جماعة من الناس في تلك الانطباعات .

ومع ميل العقل الإنساني إلى التجميع والتعميم ، يقوم الذهن بعملية ربط بين هذه الأصوات وأشباهها في الكلمات الأخرى ، وتتدخل أيضا ظاهرة تداعي المعاني ، بحيث يثير معنى الكلمة في الذهن والنفس غيره من المعاني الأخرى المشابهة والمقاربة له ، فينشأ نوع من الربط لدى أبناء اللغة ، بين مجموعة من الألفاظ المتشابهة والمقاربة ، بمجموعة من المعاني والصور المتشابهة والمقاربة ، فيتوهم الناس نوعا من الصلة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني ، غير أنها في الحقيقة صلة مكتسبة بفعل الخبرات والتجارب اللغوية المشتركة.⁽²⁾

وعلى الرغم من هذه المعارضة الشديدة لفكرة وجود مناسبة بين الصوت والمعنى ، إلا أن هناك طائفة من اللغويين العرب المحدثين تحمّسوا للفكرة ، وأيدوا وجود مناسبة طبيعية بين الأصوات والمعاني ، وإن كان البعض قد بالغ وتكلف في الاستدلال للمسألة .

¹ د. إبراهيم أنيس : المرجع السابق - ص 72

² المرجع نفسه - ص 71 - 72

نجد على سبيل المثال جرجي زيدان ، قد بحث هذه القضية ، ونظر إليها من زاوية فلسفية ، غاص من خلالها في متاهات مباحث نشأة اللغة ، وخصص للمسألة مؤلفا بكامله " الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية " ، دارت كل مباحثه حول إثبات أن اللغة العربية مؤلفة أصلا من أصول ثنائية (أحادية المقطع) قليلة ومحصورة ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية ، التي ينطق بها الإنسان غريزيا.⁽¹⁾ وردّ معظم ألفاظ العربية إلى الأصل الثلاثي ، الذي اعتبره أيضا مزيدا ، والأصل فيه ثنائي غالبا. وبنى على ذلك أن كل مجموعة من الألفاظ المتقاربة المعنى ، تشترك ألفاظها في حرفين هما الأصل المتضمن المعنى الأصلي ، ويقوم الحرف الزائد بتنويع طفيف للمعنى ، وذلك نحو : " قط قطب وقطف وقطع وقطم وقطل ، جميعها تحمل معنى القطع ، إلا أن كل واحدة منها استعملت لتنوع من تنوعاتها ... والأصل المشترك بينها (قط) ، وهو بنفسه حكاية صوت القطع كما لا يخفى "⁽²⁾.

ومن هذه الأصول الثنائية نشأت معظم ألفاظ اللغة ، ونمت في مبانيها ومعانيها ، بفضل النحت والقلب والابدال والاستعارة ... ، حتى بلغت المستوى الذي هي عليه الآن ، وذلك كله استجابة لحاجة الإنسان للتواصل ، باعتباره كائنا اجتماعيا بطبعه ، وبفضل ما حباه الله به من استعدادات ومواهب تجعله قادرا دوما على التطور والارتقاء.⁽³⁾

أما د.صبيح الصالح فقد أعجب بتحليلات ابن جني للمناسبة بين الأصوات والمعاني ، ودقة ملاحظاته للقيمة التعبيرية للحروف في اللغة العربية ، وأكد أن اللغويين عامة ، والعرب بوجه خاص ، كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني ، وقد أدى

¹ جرجي زيدان : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية - دار الحداثة - بيروت ط 2 (1982 م) - ص 56

² المرجع نفسه - ص 99 - 100

³ المرجع نفسه - ص 130

به إعجابه هذا إلى القول : " فكان لابد لنا من الاقتناع بهذه الظاهرة اللغوية التي تعد فتحاً مبيناً في فقه اللغات عامة " (1).

وقد نظر د. محمد المبارك إلى المسألة نظرة معتدلة ، حيث قرر أن ثمة أمثلة كثيرة أوردتها اللغويون قديماً وحديثاً ، تدل على المناسبة الطبيعية بين الأصوات والمعاني في العربية ، إلا أنها لا تكفي لاستنباط قانون عام ، قبل توسيع أفق الملاحظة وتعميم الاستقراء ، وأنه من الخطأ في نظره ، والسابق لأوانه ، التسرع في القول – قبل الاستقراء والتحري الدقيق – بتخصيص كل حرف بمعنى معين ، والوصول لوضع قائمة كاملة بمعاني حروف العربية ، كما فعل الأستاذ العلايلي (2).

إن مما لا مجال للشك فيه أو الإنكار ، أن للحرف في العربية قيمة فنية تعبيرية ، ناجمة عن الخصائص الطبيعية للغة العربية ، لأنها بنت الفطرة والطبيعة ، ولذلك يقول في غير تردد : " أن للحرف في اللغة العربية إيجاء خاصاً ، فهو وإن لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى ، يدل دلالة اتجاه وإيجاء ، ويثير في النفس جواً يهيء لقبول المعنى ، ويوجه إليه ويوحى به " (3).



هذا أدنى ما لا يمكن لأحد أن ينكره من الخصائص الفنية للغة العربية ، التي يبدو فيها بارزاً التقابل بين جرس اللفظ ومعاني الكلام ، وهو ما استثمره الأدباء والشعراء ، ونجدته في أكمل صورته وأجلى مظاهره في كتاب الله المعجز.

1 د. صبحي الصالح : المرجع السابق – ص 151

2 د. محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية – دار الفكر بيروت – ص 105

3 المرجع نفسه – ص 261

وعليه فقد وجه د.المبارك الدعوة للباحثين ، أن يشقوا طريق البحث في هذا الموضوع ويفتحوا أبوابه ، " ولا ريب أن متابعة التحري والبحث في هذا الاتجاه سيؤدي إلى نتائج عظيمة في تاريخ الكلم العربي ونظرات عميقة في تركيبها " (1) .

الدلالة الصوتية في الدراسات الأسلوبية:

لقد اهتمت الدراسات الأسلوبية الحديثة بالدلالة الصوتية ، باعتبار علم الأسلوب يستهدف أساسا البحث عن تلك العلاقات المتبادلة بين الدوال والمدلولات ، عبر التحليل الدقيق للصلة بين جميع العناصر الدالة ، وجميع العناصر المدلولة ، بحثا يتوخى تكاملها النهائي.(2)

إن ميدان الدراسات الأسلوبية هو اللغة الأدبية ، التي تعد مستوى فوق مستوى الاستعمال العادي للغة. وكان دي سوسير قد دعا إلى التفريق بين مستويين من مستويات الدراسة اللغوية :

- مستوى اللغة - **langue** : بصفتها نظاما يمثل الخصائص الجمعية للغة العامة ، التي لا تميزها خصائص فردية ، وهي اللغة العادية التي يستخدمها المجتمع في عملية التواصل اليومية، وهذا المستوى هو موضوع دراسة اللسانيات.

- مستوى الكلام - **Parole** : وهو استعمال الفرد للغة استعمالا يصدر عن وعي ويتصف بالاختيار الحر. ويعد هذا المستوى موضوع علم الأسلوب ، الذي يهتم بدراسة النصوص الأدبية ، باعتبار الأسلوب شكلا من أشكال التنوع قي اللغة.

¹ المرجع نفسه - ص 105

² صلاح فضل- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته- دار الشروق بيروت - ط 1 (1419 هـ - 1998 م) - ص 141

من هذا المنطلق اهتمت الدراسات الأسلوبية الحديثة بالكشف عن الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة ، والتي لا تظهر إلا باستخدام الفرد لها استخداماً متميزاً في النصوص الأدبية.

وإن أهم ما يطبقه علم الأسلوب في دراسة هذه الكوامن التعبيرية في نص أدبي ، أنه يستخدم مستويات التحليل اللغوي ، بدءاً بتحليل الأصوات باعتبارها اللبنة الأولى في منظومة الدلالة ، ثم تحليل الألفاظ بدراسة المداخل المعجمية وصيغها الاشتقاقية ومدى تأثيرها ، وتحليل التركيب اللغوي بدءاً بالجملة النحوية وعناصرها وترتيبها ، مروراً ببحث الفقرة ، وصولاً إلى العمل الفني كاملاً.⁽¹⁾

وتنبه الدراسات الأسلوبية الحديثة إلى أهمية العلاقة بين التشكيل الصوتي للنص ، وبين مدلوله وإيحاءاته في العمل الأدبي ، حين تستخدم الأصوات متلائمة مع الجو العام للنص ، ومعبرة من خلاله على الفكرة والمعنى المراد.

وقد قسم ستيفن أولمان البواعث الصوتية المحركة للكلمة ، فتصبح شفافة أو معتمة ، إلى نوعين من المحاكاة :

- محاكاة مباشرة: حين تكون البنية الصوتية للكلمة محاكاة لصوت أو ضجيج معين ، مثل قرقرة وثأثأة ومواء وغيرها.

- محاكاة غير مباشرة: وذلك حين تثير الكلمة بصوتها تجربة صوتية ، منشؤها توظيف المبدع كلمات لا تتسم بطبيعة المحاكاة ، توظيفاً صوتياً يضفي على الدلالة المعجمية إيحاءات وظلال ، استوحاها الشاعر من عالمه الخاص ، ويستوحىها القارئ من السياق الأدبي للنص.

¹ عبده الراجحي- علم اللغة والنقد الأدبي- مجلة فصول- المجلد الأول- العدد الثاني جانفي1981

وبالرغم من صعوبة تحديد هذه الإيحاءات وضبطها بدقة ، إلا أنها تعد من أنشط مجالات الدراسة الأسلوبية.⁽¹⁾

كما بحث رتشاردز موضوع الدلالة الصوتية ، وقرر صعوبة الربط بين السمات الصوتية والمدلول الأدبي. فدلالة الأصوات نشاط معقد ، ليس محكوما بعلاقة مخرجية أو علاقة وصفية ، ولا ينبع من كيفية معينة أو صفة مفردة ، ولا يمكن إلا أن يكون شيئا غنيا متأسلا ذا جذور تستعصي على التقرير والتحديد.

كما يرى رتشاردز أن تأثير اللفظ من حيث هو صوت ، لا يمكن فصله عن تأثيراته الأخرى ، التي تتم في نفس الوقت ، فجميع هذه التأثيرات ممتزجة ، بحيث لا يمكن فصل أحدها عن الآخر.

ويرى أنه لا توجد مقاطع أو حروف متحركة تتصف بطبيعتها بالحزن أو الفرح ، إذ تختلف الطريقة التي يؤثر بها الصوت في نفوسنا ، تبعاً للانفعال الذي يكون موجوداً فعلاً في ذلك الوقت ، بل إنها تختلف أيضاً تبعاً للمدلول. ولا يحدد الصوت ذاته طريقة تأثيره ، بقدر ما تحدها الظروف التي يدخل فيها هذا الصوت.

وبالتالي فلا يجب أن نعزو إلى الصوت وحده ميزات تتضمن هذا العدد الكبير من العوامل الأخرى ، ولا يعني قولنا هذا أن نقلل من أهمية الصوت في شيء ، فالصوت في معظم الحالات هو مفتاح التأثيرات.⁽²⁾

يؤكد رتشاردز في كلامه هذا على أن الدلالة الصوتية لا ينبغي أن تدرس منعزلة عن باقي عناصر الدلالة الأخرى: المعجمية والصرفية والنحوية.... الخ ، بحيث تعمل هذه العناصر كلها متآزرة متعاضة لتقوية المعنى وتأكيد.

¹ صلاح فضل : المرجع السابق - ص 161

² عبد الحميد هنداي : جهود ابن جني في الكشف عن الدلالة الفنية للأصوات- دراسة نظرية تطبيقية - مطبوع بمقدمة كتاب الخصائص لابن جني - ج 1 - ص 33- 34

ويوضح د.صلاح فضل هذه الحقيقة ، بأن كل دال ومدلول عبارة عن وحدتين مركبتين من عدد من العناصر ، تربطها مجموعة من العلاقات ، بحيث يرتبط كل عنصر من عناصر الدال بعنصر يقابله في المدلول. فلو سمينا دالاً معيناً (أ) يقابله مدلوله المطابق له (ب) ، فإن الدال (أ) يتكون من عناصر أ₁ ، أ₂ ، أ₃ ... ، والمدلول (ب) مكون بدوره من عناصر ب₁ ، ب₂ ، ب₃ ... ، وبتطابق هذه العناصر الدالة والمدلولة يتطابق الدال (أ) مع المدلول (ب) وفق المعادلة التالية :

$$أ = أ_1 + أ_2 + أ_3 \dots$$

$$\downarrow \quad \downarrow \quad \downarrow \quad \downarrow$$

$$ب = ب_1 + ب_2 + ب_3 \dots$$

بحيث تمثل الأزواج (أ₁ ، ب₁) (أ₂ ، ب₂) (أ₃ ، ب₃) ... أنواعاً من الدلالات: الصوتية ، المعجمية ، الصرفية ، النحوية ، السياقية ...

ومما يجدر التنبيه إليه أن العلاقة بين عناصر الدال وما يقابلها من عناصر المدلول في العمل الأدبي ، ليست بهذه البساطة التي تبدو فيها مجموعة من الأزواج المستقلة ، بل هي متداخلة، يتأثر كل واحد من هذه الروابط بغيره من الروابط الأخرى ، فتنشأ بذلك شبكة من الروابط تتوزع على محورين:

- روابط رأسية: تربط بين العناصر المتقابلة من الدال والمدلول.

- روابط أفقية : بين تلك الأزواج من الروابط. وهنا تظهر تلك الصلة الوثيقة بين أنواع الدلالات الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية ... بحيث يتأثر بعضها ببعض.

وبذلك نفهم حقاً معنى قول رتشاردز السابق: " أن تأثير اللفظ من حيث هو صوت لا يمكن فصله عن تأثيراته الأخرى التي تتم في نفس الوقت ، فجميع هذه التأثيرات ممتزجة بحيث لا يمكن فصل أحدها عن الآخر." (1)

¹ ص 147 من هذا البحث

هذا المعنى أكده أيضا نقاد آخرون ، ومنهم: رينيه ويلك - وأوستين وارن ، صاحبا "نظرية الأدب" ، فبالرغم من إقرارهما أن كل عمل فني أدبي هو - أولا وقبل كل شيء - سلسلة من تتابع الأصوات ينبثق منها معنى ، ففي كثير من الأعمال الأدبية نثرا¹ كانت أو شعراً ، يجلب المستوى الصوتي الانتباه ، ومن ثم فإنه يمثل جزءاً لا يتجزأ من التأثير الجمالي. إلا أنهما أكدوا على أن الصوت والوزن يجب أن يدرسا كعنصرين في مجمل العمل الفني ، ومن الخطأ أن يحلل الصوت في معزل عن المعنى ، لأن العمل الفني كل متكامل.⁽¹⁾

وقد استلهم د. محمد النويهي هذه الأفكار لوضع منهج نقدي ، اعتمده في دراسته للشعر الجاهلي ، وذلك حين تناول بعض النصوص الشعرية ، وبخاصة بعض المفردات التي حكم عليها النقاد العرب القدامى بأنها ليست فصيحة ، نظراً لصعوبتها في النطق ، بسبب ثقلها وتنافر حروفها. وقد برر د. النويهي فصاحة هذه الكلمات - رغم صعوبتها في النطق - من منطلق مناسبتها لمعناها ، وملاءمتها للسياق الذي وردت فيه ، حيث يكون المعنى الذي قصده الشاعر ، والعاطفة التي أراد التعبير عنها ، يقتضيان ذلك التنافر في الأصوات ، فلا ينهض للتعبير عن ذلك المعنى إلا ذلك اللفظ.

وليس معنى ذلك أن الدلالة الصوتية حين نربطها بحرف ما في سياق معين ، تظل ترتبط به كلما ورد في كلمة من كلمات اللغة ، ولا في كل حالة يستعمل فيها أحد الشعراء هذه الكلمة ، بل تنشأ هذه المحاكاة الصوتية من وضع الحرف في موضعه المضبوط ، منسجماً⁼ بخصائصه الصوتية مع السياق الذي ورد فيه ، والجو العام للنص ، ومع الحالة الفكرية والعاطفية التي يريد الشاعر التعبير عنها.⁽²⁾

وبذلك وقف د. النويهي موقفاً وسطاً بين فريقين كلاهما في نظره مبالغ في تطرفه:

¹ : رينيه ويلك- أوستين وارن : نظرية الأدب - تعريب : د. عادل سلامة - دار المريخ - م ع السعودية - ط (1412 هـ - 1992م) - ص 213

² د. محمد النويهي : المرجع السابق - ص 98

- فريق يغالي في تقويم الحكاية الصوتية ، فيعتقد أن صوت الكلمات هو وحده الذي يحدد معناها ، وأنه يحدده تحديدا لازما ، بحيث يصبح للصوت معنى محددًا يلازمه لا يتخلف عنه ولا يتغير، ويدعى هؤلاء أننا لو لم نعرف معنى الكلمة الحكاية لاستطعنا أن نحززه من مجرد سماع صوتها.

- وفي الطرف المقابل فريق آخر ينكر الحكاية الصوتية إنكاراً تاماً ، ويراه مجرد وهم ، فلا توجد كلمة أو جملة شعرية تؤدي بصوتها معناها أداء حقيقياً ، بل نحن الذين من فهمنا للمعنى نتخيل في صوته حكاية له.⁽¹⁾

ولو خفف كل من الفريقين من غلوائه ، لأمكننا الاهتداء إلى نظرة متزنة معتدلة للمسألة ، وهي أن للحكاية الصوتية أهميتها الكبيرة في وضع اللغة وإنشاء الشعر والأدب عامة ، وليس الصوت المادي وحده هو الذي ينتج ذلك الأثر الفني الكبير ، الذي نراه في الألفاظ والجمل الحكاية ، بل ينتج هذا الأثر من اقتران الصوت وملاءمته لمضمونه الفكري والعاطفي ، فليس لصوت ما معنى محددًا مضبوطاً لا يتعداه ، حتى يمكن فهم المعنى من مجرد الاستماع إلى الصوت.⁽²⁾

☆ ☆ ☆

هذه النظرة المتزنة للمسألة والتي تثبت وجود الدلالة الصوتية في اللغة عموماً ، وفي الأعمال الأدبية والفنية على وجه الخصوص ، تزداد قوتها حين نأخذ بعين الاعتبار أمرين هامين :

- الأمر الأول : طبيعة النفس البشرية التي فطرها الله على التأثر بالصوت .
- الأمر الثاني : طبيعة اللغة العربية بخصائصها الصوتية المتميزة ، والتي بلغت ذروة كمالها ومنتهاى غايتها في نصوص القرآن الكريم ، الذي يعد التناسق الصوتي عموماً ، وارتباطه بالدلالة على وجه الخصوص ، مظهراً من مظاهر الإعجاز فيه.

¹ المرجع نفسه - ص 102

² المرجع نفسه - ص 106

هذا ما سيتم تناوله بالتفصيل في المبحثين المواليين.

المبحث الثاني : الصوت والنفس البشرية

- المطلب الأول : الصوت انعكاس للنفس البشرية
- المطلب الثاني : تأثير الصوت في النفس البشرية

المبحث الثاني : الصوت والنفس البشرية :

خلق الله الإنسان وجعله متكلماً مستمعاً ، والكلام والسمع كلاهما مرتبط بالصوت إرسالاً واستقبالاً ، وبالمعاني والمشاعر المكونة في النفس تعبيراً وإدراكاً. ومن هنا كان للنفس البشرية ارتباط وثيق بالصوت ، وبينهما تأثير متبادل ، ذلك أن الصوت يعتبر من جهة انعكاساً لحالة النفس ، وصورة لما بداخلها من المشاعر والأحاسيس ، التي لا بد أن تظهر آثارها في نبرات الصوت وملامحه ، وفي طريقة الكلام وأسلوب التعبير ، وقد قيل أن : " الأسلوب هو الرجل " ⁽¹⁾

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن للأصوات آثارها في النفوس ، وفعلها العجيب بالقلوب ، فمنها ما يطرب ويفرح ويدخل السرور إلى النفس ، ومنها ما يكمد ويورث الهموم والأحزان ، وقد يصل الصوت حد الإزعاج والإيلام.

هذه العلاقة المتبادلة بين الصوت والنفس البشرية ، بين التأثير والتأثر ، فطرة خلقها الله في الإنسان ، الذي خصه من بين سائر المخلوقات بميزة الكلام والفصاحة والبيان ، ووهبه حاسة السمع - كسائر الحواس - التي تعد مدخلاً من مداخل النفس ، وباباً يسهل الولوج منه إلى القلب .

لتدارس هاتين المسألتين انقسم هذا المبحث إلى مطلبين :

- المطلب الأول : الصوت انعكاس للنفس البشرية.
- المطلب الثاني : تأثير الصوت في النفس البشرية.

¹ د. بكري شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن الكريم- دار الشروق - بيروت ، القاهرة - ط 4 (1400هـ - 1980م) - ص 180

المطلب الأول : الصوت انعكاس للنفس البشرية:

إن مما لاشك فيه أن الحالة النفسية للإنسان تنعكس آثارها على نبرات صوته ، فحين تعتري الإنسان حالات من الحزن والكآبة ، تظهر لمساتها في ثنايا صوته ، الذي تجد فيه حشرجة وتأوهاً مفعماً بنوع من التباطؤ والتثاقل في النطق ، كأن صوته يخرج من عنق زجاجة ، والشخص القلق يتعرض لوقفات عديدة أثناء حديثه ، والذي يشعر بالخوف يرتعد صوته ، وقس على ذلك حالات الخجل والارتباك والفرح والغضب.... فالصوت صورة للحالة النفسية والمزاج الشخصي ، من هدوء وانفعال ومرح واكتئاب ، أو انبساط وحياء وانطواء.

وفي القرآن تصوير لحال النفس البشرية وهي تعاني أشد الآلام وأقصى العذاب في نار جهنم ، ظهرت آثارها في تعالي الصراخ والصياح الشديد ، قال تعالى: ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ (١). فالصرخات القوية التي يفيدها لفظ (يصطرخون) صورة جلية لنفس تتألم من شدة العذاب الأليم ، وجاء بناء لفظه (يصطرخون) بالطاء بعد الصاء المطبقتين ، ثم الخاء المستعلية الحلقية ، للدلالة على تلك الأصوات الحشنة الغليظة التي تنفجر بها حناجر أولئك الكفار ، من شدة ما تعانيه نفوسهم من آلام عذاب السعير.

ومقابل ذلك الصراخ الشديد والضجيج الحاد ، يرسم القرآن موقفاً آخر يملؤه الصمت الرهيب ، الذي اقتضاه القرع والروع الشديد ، والترقب لأمر جلل ، مع الخضوع التام للملك الديان : ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع

¹ فاطر – 37

إلا همسا^(١) خفضت الأصوات وخشعت فلا تسمع إلا همهمة وتحريكا للشفتين همسا ،
لأن الخوف استبد بمجامع القلوب.

ونتأمل أيضا من وصايا لقمان لابنه وهو يعضه: ﴿ واغضض من صوتك إن أنكر
الأصوات لصوت الحمير ﴾^(٢). أمره بغض صوته ، لأن الكبر والإعجاب بالنفس واحتقار
الناس مشاعر تكنها النفس ، وتنعكس آثارها في ملامح الصوت وشدته وجهارته ، وفي
طريقة الكلام عموما. وفي المقابل تظهر آثار التواضع ولين الجانب في خفض الصوت
وهدوئه ووقاره^(٣) ، وقد جاءت الآية في سياق إنكار الله عز وجل على المشركين الذين
كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورفع^(٤).

وقد يحاول المرء إخفاء مشاعره ، ولكنها تأتي إلا أن تنكشف في ملامح صوته. ولذلك قال
عز وجل في شأن المنافقين: ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم
ولو نشاء لأريناكنهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾^(٥)

فقد ظن هؤلاء المنافقون أن الله عز وجل لن يظهر أحقادهم وأضغانهم ، فبين سبحانه أنه
قادر على أن يعرفهم لرسوله ويريه أشخاصهم ، بعلامات خاصة يعرفهم بها ، إلا أنه
سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه ، وحملا للأمر على
ظاهر السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها ، ولكنه أقسم لبيبه أنه سيعرفهم في أسلوب

¹ طه - 108

² لقمان - 19

³ وتظهر هذه المشاعر في طريقة المشي ، كما تظهر في طريقة الكلام ، وفي القرآن مدح وثناء على عباد الرحمن
لتواضعهم الظاهر في طريقة مشيهم وطريقة كلامهم : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم
الجاهلون قالوا سلاما ﴾ الفرقان - 63

⁴ شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- تحقيق : فؤاد سراج
عبد الغفار- المكتبة التوفيقية - القاهرة - ط 2008م - ج11- ص 351

⁵ محمد - 30

كلامهم ولهجتهم ، ونبرات صوتهم الدالة على خبث ما تكنه نفوسهم من الحقد والحسد والضغينة ، وأن ما يبطنونه من كفر وتكذيب مخالف لما يظهرونه من تصديق ومتابعة ، وقد يقول لك الإنسان معتقده ، فإن كان كاذبا تفهم من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أحواله أنه على خلاف ما يقول.¹

قال عثمان رضي الله عنه : " ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه"²

المطلب الثاني : تأثير الصوت في النفس البشرية :

إن للصوت - بسماته السماعية وخصائصه الإدراكية - وقعا في النفس البشرية ، وذلك حين تستقبل الأذن الذبذبات الصوتية التي تختلف في درجتها وشدتها وجرسها ، وتحوّلها إلى إشارات عصبية يتولى الجهاز العصبي المركزي تحليلها وتفكيكها. وقد أثبت علم الأصوات السمعي أن العملية السمعية تبدأ حين تدخل الموجات الصوتية صماخ الأذن ، وتصل إلى طبلة الأذن فتحركها ، وبعد انتقال الذبذبات عن طريق العظيّمات الثلاث (المطرقة والسندان والركاب) ، تؤثر في السائل الّتيهي الموجود في

¹ أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - دار ابن حزم - بيروت - ط1 (1423هـ-2002م) - ص 1725 - عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم - دار الإمام مالك - الجزائر - ط2 (1430هـ-2009م) - ج4 - ص 263 - سيد قطب : في ظلال القرآن - ج6 - ص452

² ابن كثير : المصدر السابق - ج4 - ص 263

الأذن الداخلية ، بطريقة تحرك أعصاب السمع ، وتنقل هذه الأعصاب صورة هذه الذبذبات إلى المخ. (1)

وإدراك العقل وتعرفه على الأصوات الكلامية ، باعتباره عملية فزيولوجية عصبية ، أمر بالغ التعقيد ، وهو من أهم موضوعات علم النفس اللغوي ، الذي يهتم بدراسة العلاقة بين اللغة والنفس البشرية ، ومن أهم مباحثه كيفية فهم وإنتاج اللغة ، باعتبارهما عمليتين عقليتين نفسييتين. (2)

إن تأثير الصوت في النفس فطرة خلقها الله في الإنسان ، الذي وهبه العقل والحواس الخمس ، ولكل حاسة إدراك وتأثير في المشاعر والوجدان.

تتأثر النفس البشرية بالمنظر الجميل كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن ، وفي القرآن حديث عن المنظر الجميل في مخلوقات الله كالأنعام : ﴿ ولکم فیہا جمال حین تریحون وحین تسرحون ﴾³ ، وفي البساتين : ﴿ حدائق ذات بہجۃ ﴾⁴ . هذه المبصرات الجميلة تؤثر في النفس بهجة وانشراحاً ، في مقابل الصور الكدرة القبيحة التي تورث في النفس انقباضاً. ونفس الشيء يقال عن حواس الشم للروائح الطيبة أو الأنتان ال كريهة ، وذوق الأطعمة الحلوة اللذيذة في مقابل المرارة المستبشعة ، ولمس الليونة والنعومة في مقابل الخشونة والضراسة.

¹ أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي- ص 48 / عبد الفتاح إبراهيم : مدخل في الصوتيات- ص 61 - 62

² د. جمعة سيد يوسف : سيكولوجية اللغة والمرض العقلي- ط 1990 م - عالم المعرفة - الكويت - ص 16 - 18

³ النحل - 6

⁴ : النمل - 60

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع لها أثر في النفس البشرية ، التي تنشرح وتنبسط عند سماع الأصوات المستلذة كصوت العنادل والبلابل ، وتنقبض عند سماع الأصوات المستكرهة كنهيق الحمير وغيرها"⁽¹⁾. ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾⁽²⁾

وقد أفاض أبو حامد الغزالي في كتابه " الإحياء " في بيان تأثير الصوت في الوجدان والنفس البشرية ، وعقد لذلك كتابا سماه " آداب السماع والوجد " ، يقول فيه : " لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح ، حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا ، ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ،... حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ليس له علاج "⁽³⁾.

ويسترسل في الاستدلال لهذه الحقيقة ببعض الأمثلة المحسوسة ، يظهر من خلالها فطرية تأثير النفس البشرية بالصوت ، فالصبي في مهده " يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه ، والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة ، ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويلهيه ... فإذا تأثر السماع في القلب محسوس ، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد في غلظ الطبع وكثافته ، على الجمال والطيور بل على جميع البهائم "⁽⁴⁾.

¹ : أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين _ علق عليه: أحمد علي سليمان- دار الغد الجديد- ط1(1426هـ-2005م) - ج 2 _ 321 - 322 -

² لقمان - 19

³ : أبو حامد الغزالي : المصدر نفسه _ ج 2 - ص 325 - 326

⁴ : المصدر نفسه _ ج 2 _ ص 326

وبعد ذكر العديد من المواضع التي تبرز تأثير النفس البشرية بالصوت ، ينتهي إلى ما يورثه السماع عند المتصوفة ، من أحوال من المكاشفات والملاحظات ، لا يحيط الوصف بها ، يعرفها من ذاقها ، وينكرها من كل حسه عن ذوقها ، وتسمى تلك الأحوال بلسان القوم وجداً ، " وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع ، سببه سر الله تعالى في مناسبة النعمات الموزونة للأرواح ، وتسخير الأرواح لها ، وتأثرها بها ، شوقاً وفرحاً وحزناً وانبساطاً وانقباضاً ، ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات " (1) .

يشير أبو حامد إلى أن المرء قد تعثره حالة من الشعور باللذة ، لسماع الصوت العذب ، الذي يصل أعماق النفس ، ويلمس وجدانها ، فيورث في النفس حالة من الوجد ، تقصر دونها العبارات . وفي المقابل قد تتضمن الأصوات المزعجة في ذاتها ألواناً من الألم والعذاب، ولا أدل على ذلك من أن الله عز وجل جعل هلاك أقوام كذبوا الرسل بالصيحة والرجفة والصاعقة ، فقال عن ثمود : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ (2) ، فكان هلاكهم بمجرد صيحة ، سمعوها فماتوا. (3) وقال جل جلاله : ﴿ فَإِنْ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادِ وَثَمُودَ ﴾ (4) والصاعقة الصوت الشديد من الجو. (5)

ولعبة بن ربيعة قصة مشهورة مع هذه الآية ، وذلك حين انتخبته قريش - وكان أعلمهم بالشعر والسحر والكهانة - يفاوض النبي ﷺ على ترك دعوته ، فتلا عليه النبي ﷺ سورة

¹ : المصدر نفسه _ ص 331

² القمر : 31

³ فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب - ج 15 - ص 10

⁴ فصلت : 13

⁵ الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن - تحقيق : نديم مرعشلي - دار الفكر بيروت - مادة (صعق) - ص 289

فصلت ، فلما وصل إلى هذه الآية : " فإن اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود " أمسك عتبة بضم النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف. (1)

ولعل حالة نفسية اعترته في تلك اللحظة ، بقيت آثارها تسري في نفسه مدة ، فقد روي أنه رجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم مدة.

وقد ثبت علميا أن مجال إدراك الصوت بالنسبة للأذن البشرية محصور بين حدين : أدنى وأقصى ، فإذا زادت شدة الصوت عن مقدار معين 110 ديسبل سبب انزعاجا ، يصبح في حدود 140 ديسبل ألما يضر بجهاز السمع ، ويسمى هذا الحد بعتبة الألم. (2)

وقد نبه الجاحظ إلى تأثير الأصوات في النفس البشرية قائلا : " وأمر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه عجب ، فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالق ... ومن ذلك ما يكمد ، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه " (3).

ومما روي في تأثير السماع وفعله في القلوب ، أن أبا العتاهية أنشد قصيدته التي يمدح فيها المهدي ، فلما وصل في مدحه أن قال :

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تكن تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

¹ أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي : معالم التنزيل - حققه وخرج أحاديثه : محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط 4 (1417 هـ - 1997 م) - ج 7 - ص 167 - 168

² أحمد مختار عمر : المرجع السابق - ص 49 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 63 - 64

³ الجاحظ : الحيوان - ج 4 - ص 191 - 192

ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

يحكى أن بشاراً كان شاهداً عند إنشاد أبي العتاهية لهذه الأبيات ، فلما سمع المديح قال :
انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار من أعواده ؟ يريد : هل زال عن سريره طرباً بهذا
المديح؟⁽¹⁾

هذه الحالة النفسية التي يحدثها السماع ، قد تشترك في صنعها عناصر كثيرة ، لسانية وغير
لسانية ، كالصوت والمعنى بأنواعه : المعجمي والصرفي والنحوي والسياقي ... ، وقد
تستقل أحيانا الأصوات لوحدها بهذه الإيحاءات بغض النظر عن فهم السامع للمعنى ، وقد
مثل الجاحظ لهذه الحالة بتأثر من يسمع كلاما بلغة لا يفهم معناها ، يقول بعد بيان ما
تفعله الأصوات والقراءات الشجية بالنفوس : " وليس يعترتهم ذلك من قبل المعاني ؛ لأنهم
في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كلامهم ، وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ ،
فقليل له: كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال: إنما أبكاني الشجا "⁽²⁾.

وقوله: " وليس يعترتهم ذلك من قبل المعاني " ، إشارة صريحة إلى أن هذا التأثير للصوت
ليس سببه ما تضمنه من المعنى ، بل سببه ذلك التناسب والانسجام بين الأصوات
والمقاطع، وتآلفها في إيقاع عذب تدركه حاسة السمع المرهفة ، وينفذ إلى أعماق النفس
البشرية ، فتننتج عنه حالة نفسية.

¹ ابن الأثير : المثل السائر - ج 1 - ص 194

² الجاحظ : الحيوان - ج 4 - ص 192

المبحث الثالث : الخصائص الصوتية للقرآن الكريم

- المطلب الأول : الخصائص الصوتية للغة العربية
- . المطلب الثاني : الخصائص الصوتية للغة القرآن

المبحث الثالث : الخصائص الصوتية للقرآن الكريم:

مهما تكلم الناس في الدلالة الصوتية ، وانقسمت آراؤهم حولها بين القبول والرد ، فإن المسألة حين تدرس ويتم تناولها من خلال نصوص القرآن الكريم ، يصبح لها نظر خاص ، يأخذ بعين الاعتبار خصوصية النص الإلهي المعجز ، والدلالة الصوتية إحدى أهم أوجه الإعجاز فيه ، لذلك من المفيد جداً في هذا المستوى ، أن نتعرض لمسألتين أرى لهما صلة وثيقة - من الناحية المنهجية - بموضوع الدلالة الصوتية في القرآن الكريم ، وهما :

- الخصائص الصوتية للغة العربية : لأن الله عز وجل اختارها وأنزل بها كتابه وكلامه سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾⁽¹⁾
- الخصائص الصوتية للغة القرآن : باعتبار لغة القرآن تعد في الطبقة العليا للبلاغة والفصاحة والبيان ، بلغت حد الإعجاز .

المطلب الأول : الخصائص الصوتية للغة العربية :

تمتاز اللغة العربية بخصائص صوتية لا تتوفر لكثير من اللغات البشرية ، خاصة من حيث الانسجام الصوتي و التآلف الموسيقي ، الذي يظهر في ائتلاف الحروف في الكلمات ، كما أن قوالب الألفاظ وصيغ الكلمات في العربية نماذج من الأوزان الموسيقية ، مما يجعل الكلام العربي نثراً كان أم شعراً ضرباً من النظم الموسيقي.

¹ الشعراء: 192- 195

وقد أفاض الأستاذ العقاد في بحث الخاصية الموسيقية للغة العربية في كتابه "اللغة الشاعرة"، ويقصد باللغة الشاعرة " اللغة التي بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية ، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات ، لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء " (1).

وهذه الخاصية في اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة ، إلى تركيب مفرداتها على حدة ، إلى تركيب قواعدها وعباراتها ، إلى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيد " (2).

1. مخارج الحروف :

تمتاز اللغة العربية في مجموع أصواتها وحروفها بسعة مدرجها الصوتي ، حيث تتوزع مخارج الحروف وتدرج من الشفتين مخرج (الميم والباء والواو) إلى أقصى الحلق (الهمزة والهاء) وتتوزع باقي الحروف بينهما في هذا المدرج توزعا عادلا يؤدي إلى التوازن والانسجام (3) .

وقد تجد في لغات أخرى غير العربية حروفاً أكثر عدداً ، ولكن مخارجها محصورة في نطاق أضيق ومدرج أقصر ، كأن تكون مجتمعة متكاثرة من جهة الشفتين والفم والخيشوم ، في اللغات الكثيرة الغنة كالفرنسية مثلاً ، أو نجدتها متزاحمة في جهة الحلق ، وهذا التوزيع

¹ عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة - ط يونيو 1995م _ ص 8

² عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة – ص 8

³ : محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية- ص 249

للحروف بهذه الطريقة يسبب اختلالا في الميزان الصوتي ، وفقدانا للانسجام والتآلف بين الأصوات (1) .

إن هذه الخاصية الموسيقية المميزة للحروف العربية حدت بالأستاذ العقاد إلى القول : " إن جهاز النطق الإنساني أداة موسيقية وافية ، لم تحسن استخدامها أمة من الأمم القديمة أو الحديثة كما استخدمته الأمة العربية ، لأنها انتفعت بجميع المخارج الصوتية في تقسيم حروفها ولم تهمل بعضها " 2 .

2. ائتلاف الحروف وترتيبها في الكلمة :

الحروف لا تحيا مستقلة ، ولكنها تجتمع وتتآلف في تركيب الكلمة ، وقد راعى العرب في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي .

فجنبوا جمع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال ، ولم يجمعوا الجيم مع القاف والطاء والغين والصاد ، ولا الحاء مع الهاء ، ومن حيث ترتيب الحروف في الكلمة الواحدة منعوا الهاء قبل العين والحاء قبل الهاء والنون قبل الراء واللام قبل الشين (3) .

وقد ذكر ابن دريد مراعاة العرب في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة مدى سهولة اللفظ ، وخفته على اللسان ، وعدوبته في السمع قال :

¹ : المرجع نفسه - ص 250

² : عباس محمود العقاد : المرجع السابق - ص10

³ : المرجع نفسه - ص250 ، وانظر أيضا : الجاحظ : البيان والتبيين — تحقيق عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط7 (1418هـ - 1998م) - ج1- ص69

"واعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها ، كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت ، لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون الفم ودون حروف الذلاقة ، كلفته جرساً واحداً وحركات مختلفة ... وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف " (1)

. ويمثل لهذا المبدأ ببعض الألفاظ من الثلاثي - الذي هو الأصل في العربية - قائلاً :

"واعلم أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة ، لصعوبة ذلك عليهم ، وأصعبها حروف الحلق ، فأما حرفان فقد اجتمعا في كلمة : مثل : (أخ) بلا فاصلة ، واجتمعا في مثل : "أحد وأهل وعهد ونحع" ، غير أن من شأنهم إذا أرادوا هذا ، أن يبدأوا بالأقوى من الحرفين ، ويؤخروا الألين ، كما قالوا : ورل ، وتد ، فبدأوا بالتاء على الدال ، وبالراء على اللام ... " (2) .

وقد ذكر في مقدمة كتابه "الجمهرة" أمثلة عديدة لمراعاة العرب حسن تألف الحروف والأصوات داخل الكلمة الواحدة ، ولذلك اشترطوا اشتغال الرباعي والخماسي على حروف الذلاقة ، لدورها في تحقيق الخفة ، ودفع الثقل الذي تحدثه الحروف المصمتة.

قال: "لا تجد بناءً رباعياً مصمت الحروف ، لا مزاج له من حروف الذلاقة ، إلا بناء يجيئك بالسين وهو قليل جداً ، مثل : مسجد ، وذلك أن السين لينة وج رسها من جوهر الغنة ، فلذلك جاءت في هذا البناء . فأما الخماسي مثل : فرزدق وسفرجل وشمردل ... ، فإنك لست تجد واحدة إلا بحرف وحرفين من حروف الذلاقة ، من مخرج الشفتين أو أسلة اللسان ، فإن جاءك بناء يخالف ما رسمته لك ، مثل : دعشوق وضعشج و حضافج وصفعهج ، أو مثل عقجس وشعفج ، فإنه ليس من كلام العرب فأردده " (3) .

1 : أبو بكر بن دريد : كتاب جمهرة اللغة - تحقيق د . رمزي منير بعلبكي دار العلم للملايين - بيروت (لبنان) - (ط 1 1987) - ج 1 - ص 46

2 : المصدر نفسه - ص 46 - 47

3 : المصدر نفسه - ص 49

كما أكد ميل العرب إلى كثرة استعمال بعض الحروف ، لخفها على اللسان وقلة استعمال البعض الآخر لثقله ، فقال : "واعلم أن أكثر الحروف استعمالا عند العرب الواو والياء والهمزة ، وأقل ما يستعملون لثقلها على اللسان الظاء ثم الذال ثم التاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم العين ثم الغين ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الميم ..."⁽¹⁾ .

__ اعتماد العرب إحداث تغييرات في بعض حروف الكلمة ط لها للخفة والرشاقة ، وذلك احترازا من التقاء الحروف المتقاربة المخارج . ويظهر ذلك في مواطن كثيرة : كالإعلال والإبدال والإدغام ...

يقول ابن دريد في هذا الصدد : "ومما يدل ذلك أنهم لا يؤلفون الحروف المتقاربة المخارج ، أنه ربما لزمهم ذلك من كلمتين أو من حرف زائد ، فيحولون أحد الحرفين حتى يصيروا الأقوى منهما مبتدأ على الكره منهم ، وربما فعلوا ذلك في البناء الأصلي ، فأما ما فعلوه من بنائين ، فمثل قوله تعالى جل ثناؤه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾⁽²⁾

لا يبينون (اللام) ويبدلوها (راء) ، لأنه ليس في كلامهم (لر) ، فلما كان كذلك أبدلوا اللام فصارت مثل الراء ... وكذلك فعلهم فيما أدخل عليه حرف زائد وأبدل ، فتاء الافتعال عند الطاء الظاء والزاي والضاد وأخواتها ، تحول إلى الحرف الذي يليه حتى يبدأوا بالأقوى ، فيصيرا في لفظ واحد وقوة واحدة "⁽³⁾ .

¹ : المصدر نفسه - ص 50

² المطففين - 14

³ : ابن دريد : المصدر السابق - ص 50

3. القيمة التعبيرية للحرف في العربية :

مما لا شك فيه أن في اللغة العربية خاصية أبهرت الناظرين ولفتت انتباه الباحثين، وتمثل في التناسب بين الصوت والمعنى والتوافق بين جرس اللفظ والمفهوم الذي يشير إليه ، ويتجلى ذلك من خلال القيمة التعبيرية للحرف في الكلمة .

وقد نبه ابن جني في مواطن كثيرة من كتابه (الخصائص) إلى هذه الخاصية وعقد فصلاً سماه (بصراقب الألفاظ لبصراقب المعاني) وفصلاً آخر بعنوان (في إمساس الألفاظ أ شراه المعاني) استطرده فيه بالاستدلال على قيمة الحرف في بناء دلالة الكلمة.⁽¹⁾

وقد تتبع بعضهم تواتر مجيء بعض الحروف في بعض الكلمات ، التي تدور معانيها حول معنى واحد مشترك ، من ذلك حرف الغين (غ) نجد في كثير من الألفاظ الدالة على معنى الاسطوخودوس والغيبية والخفاء : غاب _ غار _ غاص _ غمد _ غمر _ غرب _ غرز _ غرس _ غرق _ غلق _ غلف _ غفر _ غير _ غمي _ غش _ غشى _ غط _ غطى _ ...

حرف النون (ن) نجد في كثير من الألفاظ الدالة على معنى الظهور والبروز :

نفت _ نفخ _ نبت _ نبز _ نرف _ نجم _ نشأ _ نما _ نطق _ نهض _ ...

حرف القاف (ق) مستعمل في كثير من الكلمات التي فيها معنى الاصطدام أو الانفصال ، وتفتقرن بحدوث صوت شديد تصوره القاف في شدتها :

قطع _ قرع _ شق _ طرق _ عقر _ رقم _ ...

حرف السين (س) مستعمل في كثير من الكلمات التي تتضمن معنى السهولة والليونة :

سهل _ سلم _ سلس _ سال _ سار _ ساب _ ساح _ ساق _ مس _ ملس _

سحب _ سعد _ سكن _ سلف _ سعى _ ...⁽¹⁾

¹ ابن جني : الخصائص - ج 1 - ص 495 وما بعدها - انظر ص 113 وما بعدها من هذا البحث.

وبالرغم من أن هذا لا يعني أن للصوت معنى محددًا لا يتغير ، حتى نحكم على كل كلمة يرد فيها حرف من هذه الحروف ، بأنها تدل بالضرورة على المعنى المذكور ، إلا أن وجود هذه الظاهرة في اللغة العربية بهذا الحجم ، يدل على أن للحرف والصوت في العربية قيمة فنية تعبيرية ، وأن مناسبة الصوت للمعنى في اللغة العربية ، ظاهرة قد تم مراعاتها في الوضع وفي الاستعمال على حد سواء .

4. الاشتقاق : (الميزان الصرفي) :

اللغة العربية محكومة في بناء مفرداتها بميزان صرفي ، يتمثل في مجموعة من الصيغ والقوالب التي تصب فيها أصول الكلمات ، مما يجعل اللغة العربية لغة موزونة . فالكلمات العربية لا تعيش فرادى منعزلات ، بل تعيش في مجموعات ، كل مجموعة تتكون من ألفاظ تنسب إلى أصل واحد ، وتشارك في قدر من المعنى هو معنى المادة الأصلية (2) .

فكلمات مثل : كتب - يكتب - اكتب - كاتب - مكتوب - كتابة - مكتبة ...

تشارك في مقدار من الحروف والأصوات (ك - ت - ب) التي تشكل المادة الأصلية لهذه الكلمات .

وعلى هذه الشاكلة باقي الكلمات العربية ، بحيث يشكل الجذر المادة الأصلية للكلمة ، تصب في قوالب وهيكل وأبنية وأوزان ، لكل قالب أو وزن دلالة يدل عليها مهما كانت المادة الأصلية .

¹ : محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية _ ص 103 _ 104

² : محمد مبارك : فقه اللغة وخصائص اللغة العربية ص 264 وما بعدها

فالكلمات مثل : كاتب - عالم - ناظر - سامع - ناطق - ... فيها معنى الفاعلية .
وكلمات مثل : مكتوب - معلوم - منظور - مسموع - منطوق... فيها معنى المفعولية .
وقس على ذلك باقي الأوزان والصيغ الصرفية ، وبهذه الطريقة يظهر تصنيف جديد
للألفاظ العربية لا على أساس مادتها الأصلية ، بل على أساس بنائها وصيغتها ونماذج
أشكالها .⁽¹⁾

تعد هذه القوالب والصيغ أوزاناً موسيقية ، فكل قالب من هذه القوالب ، وكل صيغة من
هذه الصيغ ، ذات نغمة موسيقية ثابتة ، تدركها الأذن بسهولة ويسر ، وتميزها عن
غيرها ، بحيث يدرك السامع جزءاً من المعنى ، بمجرد إدراكه وزن الكلمة . فحين نسمع أية
كلمة على صيغة (فاعل) ندرك من وزنها معنى الفاعلية ، وحين نسمع أخرى على صيغة
(مفعول) ندرك معنى المفعولية ... وهذا ما لا نجد في كثير من اللغات الأخرى غير
العربية .⁽²⁾

هذه الخاصية الموسيقية للغة العربية جعلتها تتميز عن كثير من اللغات ، " فالوزن هو قوام
التفرقة بين أقسام الكلام في اللغة العربية ، واللغات السامية التي تشارك هذه اللغة في
قواعد الاشتقاق ، لم تبلغ مبلغها في ضبط المشتقات بالموازن ، التي تسري على جميع
أجزائها ، وتوفق أحسن التوفيق المستطاع بين مبانيها ومعانيها " .⁽³⁾

وقد أرجع د. إبراهيم أنيس الخاصية الموسيقية التي امتازت بها اللغة العربية ، وعزاها إلى
تلك الأمية التي كانت فاشية بين العرب ، والتي جعلت أدهم أذن وسماع ، لا أدب
عين وقراءة . فقد كان اعتماد العرب في الحكم على النص الأدبي على أسماعهم ، وبفضل

¹ : المرجع نفسه - ص 277 وما بعدها

² : المرجع نفسه - ص 13

³ : عباس محمود العقاد : اللغة الشاعر - ص 12

ذلك اكتسبت آذانهم بالمران المستمر ، حساً مرهفاً في التمييز بين الحسن من الكلام وضده.

وكما تمرنت الآذان في تلك البيئة الأمية ، تمرنت معها الألسنة أيضاً ، وانطلقت من عقلمها ، واكتسبت صفات الدلاقة والسلاسة والعدوبة . وتعاون النطق والسماع على تجويد العربية ، وإضفاء الصبغة الموسيقية على مفرداتها وتراكيبها . وبسبب ذلك أيضاً كان جل أدب العرب نظماً ، وكان أقله نثراً ، روعيت فيه أيضاً ملامح من الإيقاع الداخلي ، والنغم الموسيقي ، جعلته قريب الشبه بالنظم ، وإن لم يكن منه (1).

هذه الخاصية للغة العربية ، هي التي جعلت الألفاظ العربية ترجع في مجملها إلى نماذج من الأوزان الصرفية ، تجعل الكلام العربي نثراً كان أم شعراً لا يخرج عن أن يكون تركيباً معيناً لنماذج موسيقية .

5. المناسبة بين الوزن والمعنى :

إضافة إلى ما سبق بيانه من خصائص موسيقية في اللغة العربية ، فإن مما يلاحظ في هذه اللغة البديعة ، أن بين أوزان الألفاظ ودلالاتها تناسباً وتوافقاً ، خذ على سبيل المثال فقط وزن (فعّال) بصيغة المبالغة لاسم الفاعل ، يحيل بما فيه من تشديد العين على الشدة أو الكثرة ، وبألف المدّ التي فيه على الامتداد والفاعلية الخارجية ، وأما (فعّيل) فيدل تشديد العين فيها على الشدة أو كثرة الملازمة للفعل ، ولكن الياء أنسب للدلالة على أمر نفسي داخلي في مثل (صدّيق - سكّير) . فكأنّ الياء وما فيها من كسر وإخفاء أنسب للدلالة

¹ : إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ - ص 195 - 196

على صفة داخلية نفسية ، عكس ألف المدّ فإن الظهور والبروز والامتداد الذي فيها يناسب الدلالة على أفعال خارجية ظاهرة .⁽¹⁾

هذه الخاصية الموسيقية الدلالية للغة العربية تظهر جلية في كلام الأدباء والشعراء ، حين يستثمرون جرس الألفاظ وإيقاع الكلمات والعبارات ، فيقابلون بين نغمة الكلام وموضوعه ، وبين إيقاع العبارات ومعناها ، مقابلة يكون لها أثرها من الوجهة الفنية ، في تصوير المعنى والتأثير في نفس السامع ووجدان المتلقي .

فحين نستمع إلى النابغة الذبياني في البيت التالي ، نجد عذوبة الألفاظ ونعومة جرسها ، وإيقاع العبارات وكثرة المدود وحسن توزيعها ، تتضافر كلها لتصور جوّ عاشق هائم تهفو نفسه شوقاً إلى محبوبه ، يقول :

ميلوا إلى الدار من ديار ليلي نحييها نعم ونسألها عن بعض أهلها⁽²⁾

وتأمل هذا البيت من الشعر ، يرسم فيه البحري بنغمات الحروف ، ووزن إيقاع الأصوات ، صورة الذئب الجائع المرتجف :

يقضقض عصلا في أسرتها الردى كقضقضة المقرور أرحده البرد

فتكرار القاف وتواليها خمس مرات ، وتكرار الراء ست مرات ، مع الحروف الأخرى يوحي بصورة الذئب في ضراوته وجوعه وارتجافه.⁽³⁾

¹ : محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية - ص 281 - 282

² : محمد المبارك : المرجع السابق - ص 282 - 283

³ : المرجع نفسه - ص 262

بهذه الخصائص الفنية والجمالية ، امتازت اللغة العربية ، وكانت أهلا لأن تتبوأ شرف نقل آخر الرسائل السماوية ، وتحضى من بين سائر اللغات بأن تكون وعاء للقرآن الكريم ، كلام الله جل جلاله.

المطلب الثاني: الخصائص الصوتية للغة القرآن :

إن كل ما تم تفصيله من خصائص صوتية وميزات موسيقية للغة العربية ، يبلغ ذروة كماله في نصوص القرآن الكريم ، وما راعاه العرب من تناسق للحروف وتآلف للأصوات في الكلمات والعبارات ، لتشكل نغما موسيقيا ، جاء القرآن فيه بأسلوب بلغ الغاية والكمال ، بل حد الإعجاز . فالعربي وهو يسمع القرآن غضا طريا كما أنزل على النبي ﷺ " إنما يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية ، في انسجامه واطراد نسقه ، واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ، ونبرةً نبرةً ، كأنها توقعه توقيعا ، ولا تتلوه تلاوة" (1) .

وقد أبدع الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في بيان الإعجاز الصوتي والموسيقي للقرآن الكريم ، واستدل على ذلك بوجوه ، تبرز سحر نغم القرآن الكريم. من ذلك :

1 : مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية _ دار الكتاب العربي : بيروت (لبنان) ط9 (1393هـ- -1973م) ص212-213

- أن أول ما بهر العرب من القرآن نغمه ، وموسيقاه وإيقاع أصواته ، وقصة إسلام عمر بن الخطاب ، مع ما كان في طبعه من شدة وعنف ، كان سببها أن رق قلبه لحظة سماع آيات من القرآن الكريم (1) .

وقد بلغ من افتتان العرب بموسيقى القرآن الكريم وسحر نغمه ، الذي لم يستطيعوا مقاومة جاذبيته ، ما روي أن ثلاثة من بلغاء قريش ، وهم: الوليد بن المغيرة ، والأخنس بن قيس ، وأبو جهل بن هشام ، وهم على ما هم عليه من شدة عداوة للنبي ﷺ ، وإنكار لدعوته ومحاربة لدينه ، كانوا يتسللون ليلاً لسماع القرآن من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي في بيته ، فلما انصرفوا من الصباح جمعهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا : إنه إذا رأيكم سفهاؤكم تفعلون ذلك ، فعلوه واستمعوا إلى ما يقوله ، واستماهم وآمنوا به ، ولكرهم مع ذلك عادوا في الليلة الثانية لسماع القرآن الكريم (2).

- لقد كان أول ما أثار انتباه العرب من القرآن الكريم جرسُ ألفاظه ونغمُ عباراته ، ولا أدلّ على ذلك من أن من حاول معارضة القرآن منهم في البداية ، كمسيلمة الكذاب حاول التركيز فيها نضمه من خرافات على الجانب الموسيقي ، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، إنما كانت في أوزان الكلمات وأجرام الحروف دون ما عداها (3).

- مما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام ، أنه لا يخلق على كثرة الردّ وطول التكرار ، ولا تمل منه الإعادة ، فتجده دائماً غضباً طرياً وجديداً موقفاً ؛ وليس هناك من تفسير أو تعليل لهذه الظاهرة - في نظر الرافعي - إلا ما ذكر من إعجاز للنظم القرآني " بخصائصه

1 : المرجع نفسه -ص 213 على الهامش .

2 : ذكر هذه القصة الرافعي في : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية -ص 213 على الهامش .

3 : الرافعي : المرجع السابق - ص 214

الموسيقية ، وتساقق هذه الحروف على أصول مضبوطة ، من بلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها " (1).

- هناك ظاهرة انفرد بها القرآن عن سائر الكلام ، لا سبيل لإنكارها أو المكابرة فيها ، وهي عدم الملل من الاسترسال في القراءة ولو طال ، حتى روي عن بعضهم ختم القرآن في يوم .

ذلك أنك بمجرد الشروع في القراءة حتى " تحس من حروفه وأصواتها وحرركاتها ، ومواقع كلماته وطريقة نظمها ومداورتها للمعنى ، بأنه كلام يخرج من نفسك ، وبأن هذه النفس قد ذهبت مع التلاوة أصواتاً ، واستمال كل ما فيك من قوة الفكر والحس إليها ، وجرى فيها مجرى البيان ، فصرت كأنك على الحقيقة مطويّ في لسانك "

ويبين الرافعي أن السر في هذا الأمر أنه كلام الله ، وقد أنزله رحمة بعباده ويسره للذاكرين ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ (2) فيتلوه المؤمن آناء الليل وأطراف النهار ، لا يحس بالملل ، ولا يشعر أبداً بالسآمة ، لأن توقيع نغماته وجرس أصواته تنسكب في النفس بليوناً وسلاسة ، والله عز وجل خالق هاته النفس ، وهو أعلم بما يوافقها : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (3)

يقول الرافعي : " وأعجب شيء في أمر هذا الحس الذي يتمثل في كلمات القرآن ، أنه لا يسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها ، بل هو مقتصد في كل أنواع التأثير عليها ، فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخونها الملل ، ولا تزال تبغى أكثر من حاجتها في التروّح

¹ المرجع نفسه : ص 218

² القمر - 17

³ الملك - 14

والإصغاء إليه والتصرف معه والانقياد له ، وهو يسوغها من لذتها ويرفه عليها بأساليبه وطرقه في النظم والبيان " (1) .

ويصور الرافعي فعل القرآن في النفس العربية " كالحذاء للإبل العربية مهما كدها السير لم يزدها إلا إمعانا فيه ولم تستأنف منه إلا نشاطا واعتزاما " (2) .

وقد قام الأستاذ الرافعي بتحليل لبعض النصوص القرآنية ، مبرزاً جوانب الإعجاز الصوتي الموسيقي فيها ، والذي يبرز جلياً في تناسق جرس الأصوات ونغم العبارات من ذلك :

- أن ألفاظاً وردت في القرآن ، هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع ، مما يكون مستقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها جاءت في القرآن أشدها حلاوة وأعذبها نطقاً وأخفها تركيباً .

﴿ لِيَسْتَحْلِفْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾³ ﴿ فسيكفيكم الله ﴾⁴ (5)

وقد عاب النقاد العرب قديماً على المتنبي استعماله لفظ (سويداواتها) في قوله :

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها.

فقد اعتبروا كلمة (سويداواتها) غير فصيحة ، لكثرة حروف الكلمة وطولها ، حتى خرجت عن الاعتدال ، وذلك محل بالفصاحة (6) . إلا أن كلمتي (ليستحلفنهم - فسيكفيكم) في الآيتين السابقتين - بالرغم من طولهما وكثرة حروفهما - إلا أنهما جاءتا أخف نطقاً ، وأشد حلاوة.

¹ :الرافعي : المرجع السابق-ص223

² : المرجع نفسه - ص224

³ النور - 55

⁴ البقرة - 137

⁵ : الرافعي : المرجع السابق-ص229

⁶ ابن سنان الخفاجي : المصدر السابق- ص 87 - 88 - انظر ص 90 من هذا البحث

- وحين تتأمل سر ترتيب الأسماء الخمسة في قوله تعالى : ﴿ وأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴾⁽¹⁾ ، فقدم (الطوفان) لمكان المدّين فيها ، ثم (الجراد) وفيه مدّ ، حتى يأنس اللسان بهذه الخ فق ، لينقل إلى اللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان ، وأبعدهما في الصوت ، لمكان تلك الغنة فيه ، ثم انتهى إلى لفظة (الدم) وهي أخف الخمسة وأقلها حروفاً ، ليسرع اللسان فيها ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها الإعجاز في التركيب . ولو أنك قدّمت أو أخرت لذهبت الفصاحة واضطرب النطق⁽²⁾ .

هذا فيما يتعلق بالتناسق الصوتي والانسجام النغمي . وهناك مستوى آخر من التناسق ، يتجلى فيه بوضوح بعض أسرار الإعجاز الصوتي في القرآن ، وذلك حين تتناسق الأصوات وتتناسب مع المعاني ، من أمثلتها :

- أن في القرآن لفظة غريبة هي أغرب ما فيه ، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه ، وهي كلمة (ضيرى) في قوله تعالى : ﴿ تلك إذن قسمة ضيرى ﴾³ فزيادة على كونها جاءت على نسق فواصل السورة المنتهية كلها بالياء فإنها وردت في معرض الإنكار على العرب في زعمهم قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الم لائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات ، فقال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيرى ﴾ فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها .⁽⁴⁾

- بعض الكلمات التي يظن أنها زائدة في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ﴾⁵ وقوله : ﴿ فلما أن جاءه البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ﴾⁽⁶⁾ فإن

¹ الأعراف - 133

² : الرافعي: المرجع السابق - ص235

³ النجم - 22

⁴ : الرافعي : المرجع السابق - ص 230

⁵ آل عمران - 159

⁶ يوسف - 96

فإن النحاة يقولون أن "ما" في الآية الأولى ، و"أن" في الآية الثانية ، زائدتان في الإعراب ، وقد يظن البعض أنه ما كذلك في النظم ، والحقيقة أن في هذه الزيادة لونا من التصوير لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته .
فالمراد من الآية الأولى : تصوير لين النبي ﷺ لقومه ، وهو الرحمة المهداة ، فجاء المد في (ما) وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه ، والفصل بين الباء الجارة ومجرورها (رحمة) ، يلفت النفس وينبئ بالفكر إلى قيمة الرحمة في النبي ﷺ .

والمراد من الآية الثانية : تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بمقيص يوسف ، وبين مجيئه ، لبعدهما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام ، الذي كان ينتظر بقلق واضطراب (1) .

* * *

هذه الخصائص الصوتية وارتباطها الوثيق بالدلالة ، هي أحد أبرز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وخذوا لما قاله الرافعي ، فإن هذه الظاهرة كانت أول ما أثار انتباه العرب من القرآن الكريم ، وقد تحداهم بأن يأتيوا بسور مثله ولو مفتريات ، ولكنهم عجزوا .
تلك طريقة القرآن في التعبير عن مختلف الأغراض والموضوعات ، لأنها أهم أدوات التأثير في النفوس ، والقرآن كتاب دعوة قبل كل شيء ، فحين يعبر عن مختلف الأغراض أحكاماً كانت أم قصصاً وحوادث ، أو وصفاً لأهوال القيامة ومشاهد العذاب أو صور النعيم ، وحتى في موضوعات الجدل ، يتبع القرآن طريقة التصوير لتلك المعاني ، فيجعلها

¹ المرجع نفسه - ص 231

كأنها حاضرة شاخصة ، تصوير قد يكون باللون والتخييل ، وقد يكون " بالنعمة تقوم مقام اللون في التمثيل " (1)

وفرق كبير وبون شاسع بين طريقتين : طريقة إلقاء المعاني مجردة إلى الذهن ، وطريقة التصوير والإيحاء وتنبيه المشاعر والوجدان : " إن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي ، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة ، وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان ، وتصل إلى النفس من منافذ شتى : من الحواس بالتخييل ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس ، لا منفذها المفرد الوحيد " (2)

¹ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 37

² المرجع نفسه - ص 242

الفصل الثالث : الدلالة الصوتية

دراسة تطبيقية

المبحث الأول : دلالة السمات الصوتية

المبحث الثاني : دلالة الصيغ الصرفية

المبحث الثالث : دلالة الإيقاع

المبحث الأول : دلالة السمات الصوتية

المبحث الأول : دلالة السمات الصوتية

توصف اللغة العربية بأنها لغة الفصاحة والبيان؛ فتستعمل في التعبير عن المعاني أ نسب الألفاظ وأقواها دلالة ، وتتساوق الأصوات في بنية الكلمة مع ما تفيد من دلالات وتشير إليه من إيجاءات. يتجلى هذا التناسب بين الصوت والدلالة في صور وأنماط متنوعة من بينها على سبيل المثال لا الحصر:

I. إبدال الأصوات المتقاربة:

وردت في نصوص القرآن الكريم طائفة من الألفاظ تشترك في الدلالة على معنى معين ، بيد أن اختلافها في صوت واحد أدى إلى إضفاء قوة دلالية للكلمة ، بحيث تختلف عن الكلمة الأخرى ، وهذا ما سنلاحظه في الأمثلة التالية :

1) أَرَّ - وَهَزَّ :

الأز والهز متقاربان في المعنى ، يقال: أزه أزا وأزيراً مثل هزه، وهي الحركة الشديدة. قال رؤبة:

لا يأخذُ التُّفِيكُ والتَّحْزِيَّ فينا ولا قَوْلُ العِدَى ذُو الأَزِّ

والأز أيضاً التهيج والإغراء ، أزت القدر تؤز وتؤز أزا وأزيراً وأزاراً إذا اشتد غليانها. ⁽¹⁾

كما جاء الهز بمعنى الحركة ، الهز والهزهرة تحريك الشجر ليستقط ثمرها ⁽²⁾

¹ أبو الفضل جمال الدين بن منظور : لسان العرب - دار صادر - بيروت - ج 5 - ص 308 - 309

² المصدر نفسه - ج 5 - 423 - 424 - الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية : ص 193

وردت كلمة " أز " في القرآن الكريم ، في مقام الحديث عن الكفار. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (1). والمعنى أنها تحركهم تحريكا شديدا فتزعجهم وتهيجهم وتغريهم على المعاصي.(2)

في حين جاء التعبير القرآني بكلمة (هز)، في قوله تعالى مخاطبا مريم : ﴿ وَهَزِّيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِيًا ﴾ (3) ومعنى هزي: أي حركي جذع النخلة ، ولأنه جذع يقتضي التحريك الشديد (4).

فالأز والهز فيهما معنى مشترك هو التحريك ، بيد أن اختلاف الصوتين أدى إلى اختصاص كل كلمة بالحالة التي سيق ت من أجلها. يقول ابن جني: "الهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة، لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز (5)

يشير ابن جني إلى أثر السمات الصوتية في تشكيل البناء الدلالي للكلمة ، ومن خلال تركيزه على دور القيم الخلافية التي تميز أحد الحرفين عن الآخر ، ألا ترى أنه لا فرق بين كلمتي (أز- هز) إلا بعض السمات الصوتية التي تختلف بين الهمزة والهاء.

¹ مريم: 83

² جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض - مكتبة العبيكة - الرياض - ط 1 (1418 هـ - 1998م) - ج 4 - ص 54

³ مريم: 25

⁴ الراغب الأصفهاني : المصدر السابق - مادة (هز) - ص 540

⁵ ابن جني : الخصائص - ج 1- ص 499

صفاته				مخرجه	الحرف	الكلمة
مصمت	منفتح	مستفل	شديد	معجور	أقصى الحلق (أو الحنجرة)	أز ء
مصمت	منفتح	مستفل	رخو	مهموس	أقصى الحلق	هز هـ

وهكذا نجد التعبير القرآني قد امتاز بالدقة في اختيار اللفظ المناسب للتعبير عن المقام بما يلائمه. ففي الحديث عن الكفار اختار الأزر، لما في صوت الهمزة من جهر وشدة وصلابة، وهي من أشد الحروف في اللغة العربية ، لذا ناسبت المقام الذي وردت فيه ، في حين اختيرت الهاء في مقام الخطاب الموجه إلى السيدة مريم ، انسجاماً مع حالها التي امتزجت فيها الآلام النفسية مع آلام الوضع ، إذ كانت متهممة في عفتها وشرفها ، فهي أحوج ما تكون إلى العطف والرعاية ، فكان صوت الهاء الذي يتصف بالهمس والرخاوة أكثر مناسبة للموقف. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه قد طلب منها هز خفيف ، تحتمله حالتها الصحية وما فيها من ضعف ووهن للقوة.

وأضاف الزمخشري لفظاً ثالثاً هو (الفز) ، فقال : الأز ، والهز ، والاستفزاز : أخوات ، ومعناها التهيج وشدة الإزعاج (1).

وفزّه فزاً وأفزّه: أفزعه وأزعجه وطير فؤاده ، واستفزه : أخرجته ، أو ختله حتى أهلكه ، أو استخفه ، وفي القرآن : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ (2) قال الفراء أي استخف بصوتك ، وكذلك قوله عز وجل : ﴿ وإن كادوا لَيستفزونك من الأرض

¹ الزمخشري : المصدر السابق - ج 4 - ص 54

² الإسراء - 64

ليخرجوك منها ﴿¹﴾ أي: ليستخفونك ، وقال أبو إسحق : أي ليقتلونك ، وقال أهل اللغة : كادوا ليستخفونك إفزاعاً يحملك على خفة الهرب. ⁽²⁾

2) النهي والنأي :

وهو قريب مما قبله ، وقد جاءت المقابلة بين (النهي والنأي) في قوله عز وجل في حق المشركين : ﴿ حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ ⁽³⁾

جمعوا النهي والنأي. و"النأي": التباعد ، فلم يكتفوا بنهي الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وعن الاستماع للقرآن ، بل كانوا هم أنفسهم ينأون بأنفسهم عن اتباعه ويتعدون عن الاستماع إليه ، خوفاً على أنفسهم أن تتأثر وتستجيب لجاذبية القرآن التي كانت تشد النفوس شداً إلى الاستماع إليه. وهم بذلك قد جمعوا بين الصد والتكذيب ، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ ⁽⁴⁾ ⁽⁵⁾

إن معنى "النأي" يرسم لنا صورة أولئك المشركين وهم يتحرون الابتعاد عن محمد - صلى الله عليه وسلم - ويحرصون على عدم الاقتراب منه والاختلاط به ، حتى لا يمسه شيء

¹ الإسراء - 76

² ابن منظور : المصدر السابق - ج 5 - ص 391

³ الأنعام - 25 - 26

⁴ الأنعام - 157

⁵ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن - تحقيق : أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - 1 - ط (1420 هـ - 2000 م) - ج 11 - ص 311 - 315 / أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم - تحقيق : سامي بن محمد سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط 2 (1420 هـ - 1999 م) ج 2 - ص 198 / سيد قطب: في ظلال القرآن - دار إحياء الكتاب العربي - بيروت - ط 5 (1386 هـ - 1967 م) - ج 3 - ص 5

من دعوته ، ولا شك أن لصوت الهمزة - التي تميز "النأي" عن "النهى" - دور كبير في رسم هذه الصورة وتقوية المعنى ، فهي وإن كانت تشترك مع الهاء في مخرجها ، فكلاهما صوت مزماري من الحنجرة ، إلا أن الهمزة تكون فتحة المزمار حال النطق بها مغلقة غلقا تاما ، وينطبق الوتران الصوتيان انطباقا تاما محكما ، مما ينتج عنه انقطاع في جريان النفس والصوت إلى حين انفراج الوترين الصوتيين ، فيحدث صوت انفجاري نتيجة لاندفاع الهواء الذي كان محبوسا مدة الإغلاق التام لفتحة المزمار ⁽¹⁾، فكأن آلية نطق الهمزة تتناسب ومعنى النأي والتباعد ، ذلك أن غلق فتحة المزمار غلقا تاما محكما جعلها بمثابة حاجز قسم جهاز النطق إلى منطقتين منفصلتين : ما قبل الحنجرة ، وما بعدها. إضافة إلى أن ذلك الغلق التام على مستوى فتحة المزمار جعل زمن نطق الهمزة يتوزع إلى فترتين متباينتين : ما قبل الانفجار وما بعده.

والأمر مختلف تماما في نطق الهاء ، فإن فتحة المزمار فيها لا تنغلق ، بل تأخذ وضعية تضيق يسمح بمرور الهواء مع حدوث نوع من الاحتكاك ، فليس في عملية نطق الهاء فصلاً ولا انقطاعاً لا في الزمان ولا في المكان ، فهناك استمرارية وامتداد للصوت ، وذلك يتناسب وما يتضمنه معنى نهيهم الناس عن اتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - والاستماع إليه ، لأن النهي هنا يفترض وجود نوع من المخالطة .

(3) اليسر والعسر :

والعُسْرُ ضد اليُسْرِ وهو الضِّيق والشِدَّةُ والصعوبة قال الله تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ ⁽²⁾ ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ⁽³⁾

¹ أحمد مختار عمر: المرجع السابق - ص 115 / عبد الفتاح إبراهيم : المرجع السابق - ص 75

² الطلاق - 7

³ الشرح - 5-6

اليسر: اللين والانقياد ، يكون ذلك للإنسان والفرس ، وفي الحديث : إن هذا الدين يُسرُّ:
أي سهَّلَ سَمَحَ قليل التشديد ، وفي الحديث : " يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا " (1)

وقال عز وجل : ﴿ فَسَنِيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (2) أي للأمر السهل الذي لا يَقْدِرُ عليه إلا
المؤمنون ، وقوله عز وجل : ﴿ فَسَنِيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (3) قالوا : العُسْرَى العذابُ والأمرُ
العسيرُ

ويوم عَسِرٍ وَعَسِيرٍ شديدٌ ذو عُسْرٍ ، قال الله تعالى في صفة يوم القيامة : ﴿ فذلِكَ يومئذ
يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (4)

والمُعَسِرِ نقيض المُوسِرِ ، أَعَسَرَ الرجلُ فهو مُعَسِرٌ صار ذا عُسْرَةٍ وَقَلَّةٍ ذاتِ يدٍ ، وقيل
افتقر. وفي الترتيل: ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ (5) ، والعُسْرَةُ قِلَّةُ ذاتِ اليدِ
وكذلك الإِعْسَارُ. (6)

والعسر : المشقة في تحصيل المرغوب والعمل المقصود . واليسر ضده وهو : سهولة تحصيل
المرغوب وعدم التعب فيه . (7)

بعد سردنا لهذه النماذج القرآنية التي تظهر تقابلاً دلاليّاً بين (العسر واليسر) ، وبعد
مقارنة البنية الصوتية للكلمتين نجد أن لا فرق بينهما من الناحية الصوتية إلا في حرفي :
(ع - ي) ، والعين من الحروف الحلقية الاحتكاكية ، ومعلوم أن الحروف الحلقية من

¹ صحيح مسلم : كتاب الجهاد - باب الأمر بالتيسير وترك التنفير - حديث رقم 1732

² الليل - 7

³ الليل - 10

⁴ المدثر - 9 - 10

⁵ البقرة - 280

⁶ ابن منظور : المصدر السابق - ج 4 - ص 563 - ج 5 - 295

⁷ محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير - دار سحنون - تونس - ج 30 - ص 415

أصعب الحروف نطقاً ، خاصة إذا أضفنا إليها سمة الاحتكاك الناجمة عن ضغط وانقباض في التجويف الحلقي، وهذا يتناسب مع دلالة الكلمة على الصعوبة والمشقة والضييق ، في حين تمتاز الياء بسهولة في النطق ، وقد صنفها علماء الأصوات ضمن أصوات اللين - واللين السهولة واليسر - يتميز نطقها باتساع في مجرى الهواء أكثر من غيرها من سائر الصوامت، بحيث لو زاد الاتساع قليلاً لدخلنا منطقة الصوائت ، ويسمح هذا الاتساع بمرور الهواء بيسر وسهولة .

يقول الإمام السيوطي : "انظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني ؛ فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملاً أو صوتاً ، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً"⁽¹⁾

II . دلالة السمات النطقية والسماعية للأصوات:

إن ظاهرة المناسبة بين الأصوات والمعاني واضحة بصورة جلية في نصوص القرآن الكريم الذي بلغ الغاية والإعجاز في هذا المجال ، سنورد فيما يلي جملة من النصوص القرآنية التي تبرز القيمة التعبيرية للأصوات حين تستعمل في سياق معين :

1) قوله تعالى : ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾⁽²⁾

¹ المزهر: 1 - 53 .
² القارعة : 1 - 2

القارعة لفظة معبرة بأصواتها عن معناها وهو الشدة والقوة ، ألقيت مفردة بلا خبر ولا صفة ، كأنها قذيفة مدوية تصور أهوال قيام الساعة ، فيها أصوات : القاف والراء والعين التي " توحى بمعنى القرع واللطم ، فهي تفرع القلوب بهولها " (1) .

القاف صوت انفجاري يرسم بجرسه صورة ذلك الانفجار المدوي المصاحب لأهوال القيامة ، والراء بما فيها من صفة تكرير ضرب طرف اللسان على اللثة ضربات متتالية ، كأنها تصور تكرار القرع ، يضاف إليها صوت العين الحلقي المجهور وما فيه من ثقل يناسب سياق السورة الدال على القوة والشدة ، وفي اقتران هذه الأصوات متجاوزة في لفظة واحدة مع تكرارها ثلاث مرات متتالية ، جرس خاص يوحي بما يصاحب قيام الساعة من أهوال .

هذا الجرس بارز في أسماء أخرى ليوم القيامة وردت في القرآن الكريم : كالطامة والصاخة والحاقة والغاشية ... " فالصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يحرق صماخ الأذن ، وهو يشق الهواء شقا ، حتى يصل إلى الأذن صاخاً ملحاً ، وهو بهذا الجرس العنيف يمهّد للمشهد الذي يليه : يوم يفر المرء وينسلخ من ألصق الناس به " (2)

(2) قال الله تعالى : ﴿ يومَ يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ (3)

المقصود تصوير فزع الناس يوم البعث وحيرتهم وانتشارهم وتفرقهم في كل اتجاه ، وذهابهم ومحيئهم ، يموج بعضهم في بعض ، كأنهم فراش مبثوث أو جراد يتطاير ، كما

¹ سيد قطب: في ظلال القرآن - ج 30 - ص 230 - ينظر أيضا : سيد قطب : مشاهد القيامة في القرآن - دار الشروق - القاهرة - ص 64 - 65

² سيد قطب : في ظلال القرآن - ج 30 - ص 56 - مشاهد القيامة في القرآن - ص 62

³ القارعة : 5 - 7

قال في الآية الأخرى: ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾⁽¹⁾ ، وحتى الجبال التي كانت رواسي شامخات صارت بفعل هول الصدمة كالصوف المنفوش ، الذي قد شرّع في الذهاب والتمزق ، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها ، إن لم تتداركه رحمة ربه⁽²⁾ ولتقوية هذا المعنى ، جاءت كلمتا (الفراش) و (المنفوش) المنتهيتان بالشين ، كما انتهت كلمة (المبثوث) بالثاء ، والشين والثاء من حروف التفشي والانتشار .

(3) وقريب من هذا المثال قوله تعالى في قصة إبراهيم مع أصنام قومه ، وتصوير الحالة التي آلت إليها تلك الأصنام بعد تحطيمها وتفتيتها : ﴿ فجعلهم جذاذا ﴾⁽³⁾ والجذ كسر الشيء وتفتيته ، ويقال لحجارة الذهب المكسورة ولفئات الذهب جذاذ.⁽⁴⁾ وتناسب السمات الصوتية للفظ (جذاذ) مع عملية تكسير الحجر وجعله فتاتا ، فالجيم صوت مركب يبدأ نطقه بغلق الجرى وحبس الهواء في نقطة الغلق ثم فتحه تدريجياً فيتسرب الهواء ببطء محدثاً احتكاكاً ، وهي محاكاة صوتية لتكسر الصنم ، يعقبها تتابع ذالين احتكاكيين ، تتخذ النواطق فيهما هيئات تضيق مجرى النفس ، فيمر الهواء محتكاً عند وضع التضيق ، وتسمح هذه الوضعيات تواصل إصدار الهواء واسترساله في الزمن مستمراً - عكس ما يحدث في الأصوات الانجباسية التي يحبس فيها الهواء ثم يطلق فجأة دفعة واحدة - ، ولذلك فإن عملية النطق بكلمة " جذاذ " يصحبها تفتت ذرات الهواء المار في مجرى النفس ، كما تفتت الأصنام أحجاراً صغيرة أو ذرات تراب فتصير " جذاذا " .

¹ القمر - 7

² ابن كثير : المصدر السابق - ج 4 - ص 386 / فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب - دار الفكر - بيروت - ط (1425هـ-2005م) - ج 29 - ص 33

³ الأنبياء - 58

⁴ الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن - مادة (ج ذ ذ) - ص 87 - 88

4) وحين نتأمل قوله تعالى في زوجة إبراهيم - عليه السلام - لما بشرتها الملائكة بغلام على كبر سنها : ﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ (1) ،
نقف على دقائق التعبير القرآني المعجز.

فمعنى (صكت) : ضربت بيدها على جبينها كما قال مجاهد ، أو لطمت تعجبا كما
تتعجب النساء من الأمر الغريب ، كما قال ابن عباس.(2)
إن مادة (ص ك ك) تبدأ بصوت الصاد المهموس المصمت ، المشتمل على صفيير يتوافق
تماما مع الحركة الصامتة لليد في الهواء ، قبل أن تلتطم بالوجه ، فتحدث صوتا انفجاريا
تعبير عنه صفة الكاف الانفجارية ، مع قوتها بسبب تضعيف الحرف وتشديده .

5) قوله تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعًا ﴾ (3)

والدعّ : الدفع العنيف . يقال: دعته أدعه دعا أي دفعته، ومعناه أنهم يدفعون إلى جهنم
بشدة وعنف وإهانة لهم وغلظة عليهم ، وفيه تمثيل حالهم بأنهم خائفون متقهقرون فتدفعهم
الملائكة الموكلون بإزجائهم إلى النار ، وزاد تأكيد هذا المعنى بالمفعول المطلق (دعًا)(4).
إن لفظ (الدعّ) يكاد يرسم بشدة جرسه مدلول العبارة كلها ، فهو أقرب ما يكون إلى
صوت (أعّ) الذي يصدره لا إراديا الشخص المدفوع بشدة وعنف. (5)

وقد استعمل هذا اللفظ أيضا للتعبير عن معنى قهر اليتيم ودفعه بعنف وجفوة ، في قوله

تعالى : ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ (1)

¹ الذاريات - 29

² ابن كثير : المصدر السابق - ج 4 - ص 343

³ الطور - 13

⁴ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن- دال الغد الجديد- القاهرة - ط1 (1431هـ-
2010م) - ج 17 - ص 55

⁵ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 95

(6) قال الله عز وجل في وصف الحالة النفسية لنبية موسى - عليه السلام - وقد

اعتراه الخوف ، حين رأى حبال وعصي سحرة فرعون وقد تراءت حيات تسعى :

﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾⁽²⁾

والوجس الصوت الخفي ، والتوجس التسمع ، والإيجاس وجود ذلك في النفس.⁽³⁾

إن أصوات الكلمة وأجراسها تكاد ترسم صورة الحالة النفسية التي كان عليها موسى ،

وقد وجد في نفسه شعوراً بالخوف من ظهور أمر السحرة ، وكان شعوراً داخلياً لم يظهر

له أثر على ملامحه⁽⁴⁾ ، ولذلك قال : (فأوجس في نفسه) ، تأمل الواو وما فيها من

خفاء ولين ، وانظر مناسبة اللين والخفاء لمعنى الوجس ، ثم تأمل دلالة تكرار السين ثلاث

مرات ، وما فيها من همس ورخاوة وصفير ، يناسبان خفاء الشعور الذي يجد المتوجس

صداه في قرارة نفسه ، وكذا تكرار الفاء أربع مرات ، إضافة إلى الهاء والخاء ، وكلها

أصوات مهموسة رخوة.

(7) وقد تستقل السمات النطقية أحيانا برسم صورة المعنى في مثل قوله تعالى : ﴿كبرت

كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾⁽⁵⁾

فالمقصود هنا تكبير الفرية التي أتوا بها ، وتفضيع ما قالوا من اتخاذ الله ولداً ، تعالى الله عما

يقولون علواً كبيراً ، وتصويراً لجو التكبير هذا جاءت كلمة " أفواههم " بحيث يحتاج المرء

¹ الماعون - 2

² طه - 67

³ الراغب الأصفهاني : المصدر السابق - مادة (و ج س) - ص 550

⁴ الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 17 - ص 259

⁵ الكهف - 5

في نطقها أن يفتح فاه بالواو الممدودة ، وأن يخرج هاءين متواليتين من الحلق في عسر ومشقة ، قبل أن يطبق شفثيه على الميم الأخيرة .⁽¹⁾

وقد تناسقت الدلالة الصوتية في هذا المثال مع سائر الدلالات الأخرى في رسم صورة التكبير المقصودة من هذا التعبير ، فسيقت الدلالة المعجمية : " كبرت " بضم الباء ، ومعناها : الإخبار عن الشيء بضخامة جسمه ، وهي هنا مستعملة في التعجيب من كبر هذه الكلمة في الشناعة بقريئة المقام . ودل على قصد التعجيب منها انتصاب (كلمة) على التمييز المتضمن معنى التعجيب ، وجملة " تخرج من أفواههم " صفة ل " كلمة " مقصود بها جرأتهم على النطق بها ووقاحتهم في قولها .

والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخيلاً لفظاعتها . وفيه إيحاء إلى أن مثل ذلك الكلام ليس له مصدر غير الأفواه ، لأنه لاستحاله تتلقاه وتنطق به الأفواه ، وتسمعه الآذان ، ولا تتعقله العقول ، لأن المحال لا يعتقد العقل ، ولكنه يتلقاه المقلد دون تأمل . وجملة " إن يقولون إلا كذباً " مؤكدة لمضمون جملة " تخرج من أفواههم " لأن الشيء الذي تنطق به الألسن ، ولا تحقق له في الخارج ونفس الأمر ، هو الكذب ، أي تخرج من أفواههم خروج الكذب ، فقولهم ليست له صفة إلا صفة الكذب⁽²⁾ .

8) وقريب من هذا المثال قوله عز وجل : « بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينصرون »⁽³⁾

¹ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 94

² الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 15 - ص 252

³ الأنبياء - 40

تأمل لفظ " تبهتهم " وما فيه من تكرار الهاء التي يبقى الفم معها مفتوحا ، كحال أولئك الذين أتتهم الساعة بغتة فوقفوا متحيرين في دهشة وعجز عن فعل أي شيء ، فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون.

والْبَهْتُ : الغلب المفاجيء المعجز عن المدافعة ، يقال : بَهْتَهُ فُبِهْتَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَهْتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ⁽¹⁾ أي غلب ودهش وتحير ⁽²⁾.. وهو معنى التفريع في قوله تعالى : (فلا يستطيعون ردها) وقوله تعالى : (ولا هم ينظرون) .⁽³⁾

9) قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ⁽⁴⁾

حين نتأمل عبارة " أمم ممن معك " نلاحظ فيها توالي ثمان ميمات متتابعات - بعد الميمات الناتجة عن التضعيف والإدغام - ومن المتعارف عليه عند علماء البلاغة أن من شروط فصاحة الكلمة والكلام خلوصهما من أمور ثلاثة أهمها : التنافر ، والأصل في التنافر أن تكون الكلمات ثقيلة على اللسان لتقارب مخارجها أو لتكرار بعض الحروف ، ومثلوا لذلك بقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

لكنهم ذكروا أن من خصائص القرآن أنه اجتمعت فيه ثمان ميمات متواليات ، ولم يحصل بسببها ثقل على اللسان أصلا ، بل ازدادت به خفة ⁽⁵⁾ ، فقد أحكم نسجه وأتقن نظمه

¹ سورة البقرة : 258

² الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن - (ج 1 / ص 63)

³ الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 17 - ص 72

⁴ هود - 48

⁵ مخلوف الميناوي: حاشية الشيخ مخلوف الميناوي على شرح الدمنهوري لمتن الإمام الأبخري المسمى الجواهر المكنون في المعاني والبيان والبدیع - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ط 1343 هـ - ص 23

خالق الخلق وبارئ النسم ، فلا يهتز ولا يضطرب وإن وقع فيه ما يجعل كلام البشر مضطرباً متنافراً.

نتأمل السياق الذي وردت فيه اللفظة ، فنقف على بعض من أسرار مناسبة الصوت للمعنى: ورد الكلام بشارة لنوح عليه السلام ومن معه ، وقد وجد بعد أن هدأ الطوفان ، أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فقد عم الغرق الجميع ، ما عدا من بقي معه في السفينة ، ممن آمن من أهله ، ومن كل زوجين اثنين من بقية الكائنات ، فكان كالحائف كيف يعيش ، وكيف يدفع جميع الحاجات ، فجاءته البشارة بأن الله سيجعل من هذه القلة التي آمنت به أمماً كثيرة ، يكونون محلّ كرامته وبركاته⁽¹⁾. فكان توالي هذه الميمات مصوراً لتوالي تلك الخيرات والبركات ، مع توالي تناسل وتعاقب الأجيال ، وقد روي عن محمد بن كعب القرظي قوله : " دخل في هذا السلام كلّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة " ⁽²⁾

¹- فخر الدين الرازي : المصدر السابق - ج 18 - ص 6 - 7 - ينظر أيضا : محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - تحقيق : سعيد محمد اللحام - دار الفكر - بيروت - ط(1421هـ-2001م) - ج 2 - ص 727

² ابن كثير: المصدر السابق - ج 2 - ص 661

المبحث الثاني : دلالة الصيغ الصرفية

المبحث الثاني: دلالة الصيغ الصرفية

تلعب الصيغ والأوزان الصرفية دوراً هاماً في بناء الدلالة ، ولا أدل على ذلك من أن أي تغيير في البناء الصرفي للكلمة ، ينتج عنه تغيير في الدلالة . ومن خلال تتبع السياقات القرآنية تظهر تلك الشحنات الدلالية التي تحملها العديد من الصيغ ، التي تضفي ظلالاً على المعنى ، وتزيده قوة . وفيما يلي نماذج من الصيغ تم توظيفها بدقة متناهية جعلتها أحيانا تستقل لوحدها بالتعبير:

I . التكرار في المصادر الرباعية:

اقتربت بعض الأوزان الصرفية بدلالاتٍ خاصة من ذلك " أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة... " (1) ، وتتميز الصيغة الرباعية (فعلل) عن الثلاثي الأصلي بزيادة مقطع ، هذه الزيادة في المبنى بإيقاعها المتميز على هذا النحو ، لها أثرها في تقوية التعبير وتضخيم الفعل وتصوير حركته في النفس . وسنعرض فيما يلي مجموعة من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم لتتعرف على كيفية التناسب بين تكرير الصوت وتكرير الدلالة فيها :

(1) حصحص:

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْدُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (2)

¹ ابن جني : الخصائص - ج 1 - ص 505

² يوسف: 51

والأصل في مادة (حصص) : ظهر وتبين بعد خفاء قاله الخليل ، وقال الزجاج : اشتقاقه في اللغة من الحصاة ، أي بانة حصاة الحق من حصاة الباطل ، بمعنى تميز هذا عن هذا. وقيل : هو من حص شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه ، ويرجع هذا المعنى إلى الظهور أيضاً ، وعلى ذلك قول الشاعر :

قد حصت البيضة راسي فما أطعم يوماً غير تهجاع

وقيل : هو من حصص البعير إذا ألقى مباركه ليناخ ، أي : تمكن واستقر في الأرض ، فيكون المعنى : الآن ثبت الحق واستقر ووضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس .⁽¹⁾ وذكر الراغب وغيره أن حص وحصص ككف وكفكف وكب وككب⁽²⁾.

وخلاصة هذه المعاني تدور حول معنى ظهور الحق وانكشافه ووضوحه وتميزه عن الباطل ، وثبوته واستقراره وتمكنه في النفوس . وكل ذلك مبالغة في الظهور ، وهذه المبالغة في المعنى نتيجة للزيادة في المبنى والتكرار في الصيغة ، فأصبح بناء الكلمة رباعياً بعد أن كان ثلاثياً. ويحرص القراء على إتقان نطق هذه الكلمة بترقيق الحاء واضحة مميزة ، وعدم خلطها بالصاد الفخمة ، بالرغم من صعوبة ذلك بفعل التكرار ، ويتناسب هذا مع تميز الحق حتى لا يختلط بالباطل .

(1) دمدم

وجاءت مادة دمدم في موضع واحد من القرآن الكريم، في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾⁽¹⁾

¹ فخر الدين الرازي : المصدر السابق- ج 18 - ص 128 - ينظر أيضاً : شهاب الدين السيد الألوسي البغدادي : روح المعنى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- تحقيق : فؤاد بن سراج الغفار - ط 2008م - المكتبة التوفيقية - القاهرة - ج 7 - ص 352

² الراغب الأصفهاني : المصدر السابق - ص 437

تأتي الدمدمة في اللغة لعدة معان (2):

- دَمَمْتُ الشيء إذا أَلْزَقْتُهُ بالأرض وطَحَطَحْتَهُ ، وَدَمَّهُمْ يَدْمُهُمْ دَمًّا طَحَنَهُمْ فَأَهْلَكَهُمْ ، وكذلك دَمَمَهُمْ وَدَمَمَ عَلَيْهِمْ ، وفي التثنية " فَدَمَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ " أي أَهْلَكَهُمْ
- دَمَمَ أَرْجَفَ ، وأكثر المفسرين قالوا في دَمَمَ عَلَيْهِمْ : أي أَرْجَفَ الأَرْضَ بِهِمْ.
- وتأني الدَّمَمَةُ بمعنى الغَضَبِ ، قال ابن الأنباري دَمَمَ أي غَضِبَ ، وَدَمَمَ عَلَيْهِ كَلِمَةٌ مُعْضَبًا ، قال وتكون الدَّمَمَةُ الكلام الذي يُزْعَجُ الرجلَ .
- وقال أبو إسحق معنى دَمَمَ عَلَيْهِمْ أي أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ العذاب يقال دَمَمْتُ عَلَى الشيء

دممته عليه ، دمدت ودممت عليه القبر أي أطبقت عليه ، ويقال للشيء يُدْفَنُ قد دَمَمْتُ عَلَيْهِ أي سَوَّيْتُ عَلَيْهِ

تجتمع في لفظ " فدمدم عليهم ربهم " معاني إهلاكهم بالعذاب بطحنهم وإطباق الأرض وتسويتها عليهم ، مع ما في ذلك كله من الإرجاف والغضب ، وهنا نلاحظ التناسق بين صيغة التكرار في (دمدم) مع ما في معناها من تضييف العذاب وترديده والمبالغة فيه في جو من الغضب والرجفة ، فكأن اللفظ يكاد يصور معناه بجرسه وصيغته.

(2) ككب

وردت هذه المادة في القرآن الكريم بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول. قال تعالى: ﴿

¹ الشمس: 14

² ابن منظور : لسان العرب - ج 12 - ص 206 - مادة (دمم)

فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١﴾. تتحدث الآية عن المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة، فيوم القيامة تكبكب الآلهة ومن يعبدونها في نار جهنم.

معنى الكبكبة في اللغة من كَبَّكَتِ الشيءَ، إذا ألقيت بعضه على بعض. قال حسَّان يصف قتلى بدر من المشركين وقد كبوا في القليب :

يناديهم رسولُ الله لما ... طرحناهم كَبَاكِبَ في القَلِيبِ

والكَبَكَبَةُ الرَّمِيُّ في الهُوَّةِ (فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) قال الليثُ أَي دُهِرُوا (٢) وَجُمِعُوا ثم رُمِيَ بهم في هُوَّةِ النار ، وقال الزجاج كُبِّبُوا طُرِحَ بعضُهم على بعض قال أهلُ اللغة معناه دُهِرُوا ، وحقِيقَةُ ذلك في اللغة تكرير الانكبابِ كأنه إذا أُلْقِيَ يَنكَبُ مرَّةً بعد مرَّةً حتى يَسْتَقِرَّ فيها ، وقيل قوله (فَكُبِّبُوا فِيهَا) أَي جُمِعُوا مأخوذ من الكَبَكَبَةِ ، وَكَبَّكَتِ الشيءَ قَلَبَ بعضه على بعض (٣)

فحقيقة الكبكبة هي تكرير الانكباب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعر الهاوية ، وجعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى - مثل : كَفَكَفَ الدمعَ ، وجيش لَمَلَمَ ، أي كثير ، مبالغة في اللَم - وذلك لأن له فعلاً مرادفاً له مشتقاً على حروفه ولا تضعيف فيه فكان التضعيف في مرادفه لأجل الدلالة على الزيادة في معنى الفعل . (٤) فجاء التعبير القرآني بصيغة (ككببوا)، لأنها أبلغ من (كبوا) لأنهم يكونون كبا عنيفاً فظيماً ، " وإنما لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ،

¹ الشعراء: 94

² والدَّهْوَرَةُ جَمْعُكَ الشيءِ وَقَدْفَكَ بِهِ فِي مَهْوَاةٍ وَدَهْوَرَتُ الشيءِ كذلك ، انظر : ابن منظور : المصدر السابق - ج 4 - ص 294

³ المصدر نفسه - ج 4 - ص 697

⁴ فخر الدين الرازي : المصدر السابق - ج 24 - ص 138 - الزمخشري : المصدر السابق - ج 4 - ص 400 - الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 19 - ص 152

وصوت الكركبة الناشئ من الككبكة ، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف . فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه " (1).

(3) زحزح

وردت هذه المادة في موضعين من القرآن الكريم ؛ إذ جاءت بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ زُحِرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (2).

كما وردت بصيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّرِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (3)

الزحزحة في اللغة هي التنحية والدفع عن الموضع ، زحَّ الشيءَ يَزُحُّهُ زَحًّا جذبته في عَجَلَةٍ وزَحَّه يَزُحُّهُ زَحًّا وزَحَزَحَهُ فَتَزَحَزَحَ دَفَعَهُ وَنَحَّاهُ عَنْ مَوْضِعِهِ فَتَنَحَّى وَبَاعَدَهُ مِنْهُ. قال ذو الرمة:

يا قابِضَ الرُّوحِ عَنِ جِسْمِ عَصَى زَمَنًا... وَغَافِرَ الذَّنْبِ زَحَزِحْنِي عَنِ النَّارِ (4)

ففي الزحزحة تكرير للنزح ، الذي هو الجذب بعجلة (5)

¹ سيد قطب : في ظلال القرآن - ج 5 ص 355

² آل عمران: 185

³ البقرة: 96

⁴ ابن منظور : المصدر السابق - لسان العرب - ج 2 - ص 468

⁵ الألويسي : المصدر السابق - ج 3 - ص 211 - الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 4 - ص 188

واللفظ في حد ذاته - في الآية الأولى - يصور معناه بجرسه وصيغته ، ويرسم هيئته ، ويلقي ظله! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقرب منها ، ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ، ويستنقذ من جاذبيتها ، ويدخل الجنة فقد فاز. (1)

وفي الآية الثانية يتجلى اختيار القرآن اللفظ المناسب في الموضوع المناسب ، فالمقصود من الآية التأكيد على أن التعمير لا يؤثر في إزالة العذاب والابتعاد عنه أقل تأثير (2) ، ولذلك استعمل لفظ "بمزحزحه" الذي يصور بصيغته وجرس أصواته صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة (3) ، ويتناسق في مدلوله مع ما يتضمنه السياق من معنى المبالغة ، ولا يمكن لأية كلمة أخرى أن تقوم مقام هذا اللفظ ، قال القاضي : " والمراد أنه لا يؤثر في إزالة العذاب أقل تأثير ولو قال تعالى : وما هو بمبعده وبمنجيه لم يدل على قلة التأثير كدلالة هذا القول " (4).

(4) زلزل

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم في سورة الزلزلة للتعبير عن أهوال يوم القيامة ، قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (5) ، والمعنى أن الأرض حركت حركة شديدة شديدة ، كما قال : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ (6) وفي ذلك تصوير ليوم القيامة.

¹ سيد قطب : ظلال القرآن - ج 2 - ص 22

² الألوسي : المصدر السابق - ج 1 - ص 499

³ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 93

⁴ فخر الدين الرازي : المصدر السابق - ج 3 - ص 198

⁵ الزلزلة: 1

⁶ الواقعة : 4

كما وردت لنفس الغرض أيضا في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ
إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (1)

تأتي مادة (زل) في اللغة بمعنى الحركة المعتادة ، وزلزل للحركة الشديدة العظيمة ، لما فيها
من معنى التكرير ، وهو كالصرصر في الريح ، لأن فعل زلزل مأخوذ من الزلل وهو زلقت
الرجلين ، فلما عَنُوا شدة الزلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل كما
قالوا : كَبَّكَه ، أي كَبَّهُ وَلَمَلَمَ بالمكان من اللَّمَّ : إذا نَزَلَ به نزولاً إقامة. ولأجل شدة
حركة الزلزلة وصفها الله تعالى بالعظم فقال : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وذكر
ما يحصل فيها من أهوال ومفزعات : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع
كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله
شديد ﴾ (2).

وقد استعير لفظ الزلزلة في القرآن للتعبير عن اضطراب النفس من شدة الفزع والقلق ،
قال تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت
القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ (3)
أي اضطربوا اضطراباً شديداً من شدة الخوف والفزع وكثرة الأعداء. (4)

وقال أيضا : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم
البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله

1 - الحج - 1

2 - الحج - 2

3 - الأحزاب : 10 - 11

4 - الألوسي : المصدر السابق- ج 14 - ص 602

قريب ﴿ (1) { وزلزلوا } أي أزعجوا أو اضطربوا ، وإنما الذي اضطرب نظام معيشتهم. (2)

وفي القرآن أمثلة أخرى عديدة يبرز من خلالها تناسب البنية الصوتية لصيغة المصادر الرباعية المكررة مع دلالتها على معنى التكرير في الفعل ، من ذلك :

- رفر ف : في قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ (3) .
- صرصر : في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا فَاصْتَبَقُوا بَرِيحَ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (4)
- عسعس : في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ (5).
- وسوس : في قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ (6)

II . تضعيف العين في الفعل الثلاثي:

هناك صورة أخرى من صور التكرير ، بتضعيف العين في الفعل الثلاثي ، كقولهم: قطع وكسر ، فيكون تكرير الصوت دليلاً على تكرير الفعل وتقوية معناه ، فالأصوات تابعة للمعاني فمتى قويت قويت، ومتى ضعفت ضعفت ، وهذه الظاهرة مطردة في العربية اطراداً واسعاً ، وتواتر ورودها في نصوص القرآن الكريم ، يقول عنها ابن جني في باب سماه :

¹ البقرة : 214

² الطاهر بن عاشور : المصدر السابق- ج 2 - ص 316

³ الرحمن : 76

⁴ الحاقة : 6

⁵ النكوير : 17

⁶ الناس : 4-5

"قوة اللفظ لقوة المعنى" ما نصه : "زادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه، وكان أصل هذا إنما هو لتضعيف العين في نحو المثال: قَطَعَ وكَسَّرَ وبَاهَمَا، وإنما جعلنا هذا هو الأصل، لأنه مطرد في بابيه أشد من اطراد باب الصفة"⁽¹⁾

نستعرض فيما يلي جملة من النصوص القرآنية وردت فيها صيغة (فَعَّلَ):

(1) قال تعالى: ﴿وَرَاوَدْتُهُ اللَّيْلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾⁽²⁾.

تم العدول عن صيغة (غَلَقَ) إلى استعمال صيغة (غَلَّقَ) الدالة على التكثير والمبالغة والإحكام في الغلق، قال الراغب: "وأغلقت الباب وغلقتة على التكثير، وذلك إذا أغلقت أبوابا كثيرة، أو أغلقت باباً واحداً مراراً أو أحكمت إغلاق باب وعلى هذا (وغلقت الابواب)"⁽³⁾

بناء على هذا وجه المفسرون⁽⁴⁾ تشديد الفعل هنا إما أن يكون للتكثير في المفعول، وقد قيل أن الأبواب كانت سبعة، غلقتهم ثم دعتهم إلى نفسها، أو لإفادة شدة الفعل وقوته، أي أغلقت إغلاقاً محكماً، لأن المقام يقتضي إحكام غلق الأبواب والمبالغة فيه "والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراماً، ومع قيام الخوف الشديد"⁽⁵⁾

¹ ابن جنى: الخصائص - ج 2 - ص 467

² يوسف: 23

³ الراغب لأصفهاني: المصدر السابق - مادة (غلق) - ص 377

⁴ الألويسي: المصدر السابق- ج 7 - ص 287 - الطاهر بن عاشور: المصدر السابق- ج 12 - ص 250 - فخر الدين

الرازي: المصدر السابق - ج 18 - ص 94

⁵ فخر الدين الرازي: المصدر السابق- ج 18 - ص 94

(2) وهو شبيه بما قبله ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أُكْبِرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾⁽¹⁾

وردت صيغة (قَطَّعَ) بالتشديد (قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) كناية عن دهشتهن وحيرتهن ، فكانت المرأة من شدة دهشتها وحيرتها تقطع يدها، وهي تظن أنها تقطع الفاكهة⁽²⁾ والتضعيف للتكثير إما بالنسبة لكثرة القاطعات . وإما بالنسبة لكثرة القطع في يد كل واحدة منهن.⁽³⁾

(3) في قصة إبراهيم مع قومه حين حطم أصنامهم ، فكانت ردة فعلهم ما حكاه القرآن على لسانهم : ﴿ قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾⁽⁴⁾ .

تم اختيار هذه الصيغة المضعفة (حرِّقوه) بدل (أحرقوه) ، قالوها بهذا الأسلوب (حرِّقوه) الذي يرسم بجرسه ووزنه غيظهم وحنقهم الشديد ، ورغبتهم الجارحة في الانتقام لأهنتهم ، والإصرار على نصرتها ورد الاعتبار إليها ، والنيل ممن احتقرها وهزأ بها.⁽⁵⁾

(4) قوله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾⁽⁶⁾

ومعنى (برزت) أظهرت إظهاراً بيناً لا يخفى على أحد ، وأكد ذلك بقوله : (لِمَنْ يرى) كائناً من كان ، فهي بارزة مكشوفة لكل ذي نظر ، روي أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذي بصر⁽¹⁾

¹ يوسف: 31

² المصدر نفسه - ج 18 - ص 106

³ الألوسي: المصدر السابق- ج 7- ص 313

⁴ الأنبياء: 68

⁵ فضل حسن عباس : القصص القرآني إجاؤه ونفحاته - ص 158 - دار الشهاب (الجزائر) - ط (1989م)

⁶ النازعات: 36

وجيء بالفعل المضاعف (برزت) تشديدا للمعنى بإفادته إظهارها ، ولأنه إظهار لأجل الإرهاب والتخويف⁽²⁾

5) وقريب من هذا المثال قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت ﴾⁽³⁾

يلاحظ نوع من التقابل في التعبير الصوتي بين جحيم النار ونعيم الجنة ، فإذا كان التعبير عن الجحيم بلفظ (سعرت) بتشديد العين مبالغة في إسعارها وإيقادها لمن حقّ عليهم العذاب⁽⁴⁾ ، فإن الجنة في المقابل (أزلفت) وهيئت لروادها الموعودين بها ، بحيث تبدو لهم سهولة مدخلها ويسر ولوجها ، " فهي مزلفة مقربة مهياة ، واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام بيسر إليها "⁽⁵⁾

III. الإدغام:

يختار النص القرآني - ضمن ما تتيحه إمكانيات اللغة من وسائل تعبيرية - الصيغة المناسبة التي يطلبها السياق ، ومن الظواهر الصوتية التي تم توظيفها بشكل واسع في التعبير القرآني ظاهرة الإدغام ، والتي جيء بها بصورة تجلت فيها المناسبة بين المبني والمعنى ، أعطت للنص القرآني خصوصية في الاستعمال . يتضح ذلك من خلال استعراض نماذج من النصوص القرآنية :

¹ الألويسي : المصدر السابق - ج 14 - ص 326

² الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 30 - ص 90

³ التكويز: 12- 13

⁴ الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 30 - ص 150

⁵ سيد قطب : في ظلال القرآن - ج 30 - ص 65

1. يشاق - يشاقق :

وردت الصيغتان (يشاقق) بالفك و (يشاق) بالإدغام في آيتين منفصلتين ، في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾⁽¹⁾ وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾⁽²⁾ وقد أجمعوا على الفكّ في (يشاقق) اتباعاً لخط المصحف وهي لغة الحجاز ، والإدغام لغة تميم كما جاء في الآية الأخرى (ومن يشاق الله)⁽³⁾

ومن المناسبات الصوتية في هاتين الآيتين أن صيغة الفك ذكرت في من يشاقق الله ورسوله، بينما جيء بصيغة الإدغام لمناسبتها لمن يشاق الله وحده ، مع ضرورة الإشارة هنا أن طاعة الله عز وجل لا تنفك عن طاعة رسوله : ﴿ مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾⁽⁴⁾

2. اسطاع - استطاع :

وردت المادتان متقابلتين لفظاً ومعنى في السياقين التاليين :

- في قصة العبد الصالح وهو يفسر لموسى ما ضاق به ذرعاً ولم يستطع عليه صبراً :
﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾⁵ ،

﴿ ذَلِكْ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾⁽¹⁾

¹ الأنفال : 13

² الحشر : 4

³ أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف : تفسير البحر المحيط - تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 (1413 هـ - 1993 م) - ج 4 - ص 466

⁴ النساء - 80

⁵ الكهف - 78

ففي الآية الأولى كان الإشكال قويا ثقيلا لم يحل بعد ، فاستعملت الصيغة المناسبة (تستطع) ، ولما فسره له وبينه ووضحه وأزال الإشكال قال (تسطع) ، " فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف " (2).

● في قصة ذي القرنين مع ياجوج وماجوج ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (3)

يقول تعالى مخبراً عن ياجوج وماجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه ، قابل كلاهما يناسبه ، فقال: (فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) وهو الصعود والتسلق إلى أعلاه ، (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) وهو كسر الرّدم وهو أشق من مجرد التسلق ، فقابل كلاهما يناسبه لفظاً ومعنى (4).

وقد أكد الإمام الطاهر بن عاشور هذا الملمح ، واعتبره من باب زيادة المبنى التي يترتب عليها زيادة في المعنى فقال : " إثارة فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى ، لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه ، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى " (5) .

¹ الكهف - 82

² ابن كثير : المصدر السابق - ج 3 - ص 143

³ الكهف - 97

⁴ ابن كثير : المصدر السابق - ج 3 - ص 153

⁵ الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 16 - ص 38

IV . دلالة الصيغة بين الخفة والثقل (التعقيد والسهولة):

هناك صيغ صرفية تتسم بالتعقيد والصعوبة ، وأخرى على العكس من ذلك خفيفة
سلسة على اللسان سهلة عذبة في السمع ، ولكل منها أثر في توليد الدلالة وإضفاء ظلال
على المعنى ، يتضح ذلك من خلال الأمثلة التالية:

(1) قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَاقَلْتُمْ
إِلَى الْأَرْضِ ﴾⁽¹⁾

إن لفظ (اثاقلتم) يستقل بجرسه الثقيل برسم صورة أولئك المتثاقلين الذين دعوا إلى
الخروج في غزوة تبوك فتخلفوا وقعدوا ، وتظهر مناسبة ثقل الصيغة في حد ذاتها للمقام
حين نعلم الملابسات التي أحاطت بتلك الغزوة ، حيث استنفر رسول الله صلى الله عليه
وسلم المسلمين إليها ، في وقت حرّ شديد ، واستقبل سفيراً بعيداً ، وكان المسلمون يومئذٍ
في شدة حاجة إلى الظهر والعدة ، ولذلك سُميت غزوة العُسرة لما أحاط بها من صعوبات
ومشاق تجعل المرء يتناقل عن الخروج ، ويستهو به القعود في المدينة وقد نضجت بها
الثمار، وطابت فيها الظلال ، ولطبيعة تلك الصعوبات فإن رسول الله صلى الله عليه
وسلم على غير عادته قد جلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، وأخبرهم بوجهه
الذي يريد ، وكان قبل ذلك لا يريد غزوة إلا ورّى بما يوهم مكاناً غير المكان المقصود ،
فحصل لبعض المسلمين تناقل ، ومن بعضهم تخلف ، فوجه الله إليهم هذا الملام المعقب
بالوعيد⁽²⁾.

¹ التوبة - 38

² الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 10 - ص 196

إن في صيغة (اثاقلتم) "طنا" على الأقل من الأثقال (1) ، وهي تكاد ترسم بثقلها ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد ، فيأبى النهوض كسلا وجبنا ويطلب البقاء قاعدا ملتصقا بالأرض.

(2) قال الله عز وجل مخبرا عن نوح ما رد به على قومه : ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ (2)

فهو استفهام إنكاري مفاده أن دعوتنا إن كانت واضحة جلية أمامكم ، فإننا لا نستطيع إكراهكم على قبولها ، إن كنتم أنتم لها كارهون وعنها عمون . وكلمة (أنلزمكموها) تصور - بنيتها المعقدة وصيغتها المتداخلة وما فيها من إدماج للضمائر - جو الإكراه ومحاولة الحمل على الشيء حملا (3)

(3) قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ﴾ (4)

هذا مثل ضربه الله عز وجل للمشرك الذي يعبد مع الله آلهة أخرى ، وللمومن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فالمشرك مثله كمثل عبد يخدم جماعة شركاء يتنازعونه ، أخلاقهم مختلفة ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جره واستخدمه، فهو يلقي منهم العناء والنصب والتعب العظيم ، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق؛ ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته

¹ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 91

² هود - 28

³ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 92

⁴ الزمر : 29

وقواه ، ومثل المومن المخلص كعبد يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد، وهو يعلم ما يطلبه منه ، ويكلفه به ، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح (1).

وتأمل المقابلة بين تمثيل صورتين متناقضتين بلفظين متقابلين من حيث الصيغة والبناء الصوتي (متشاكسون - سلما).

متشاكسون : بهذه الصيغة المعقدة التي تختلط فيها الأصوات وتتشابك لتتناسب مع معناها الدال على التنازع والتجاذب والتشاجر ، قال الفراء: متشاكسون أي مختلفون ، وقال المبرد : أي متعاسرون من شكس يشكس شكسا فهو شكس مثل عسر يعسر عسرا فهو عسر ، يقال شكس وشرس وضرس وضبس ، قال الزمخشري : والتشاكس والتشاحس الاختلاف ، يقال تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه ، ويقال: شاكسي فلان أي ماكسي وشاحني في حقي ، قال الجوهري : رجل شكس بالتسكين أي صعب الخلق(2).

وفي المقابل عبر عن صورة العبد الخاضع لسيد واحد - فهو ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين - بلفظ (سلما) بهذه الليونة والسهولة وسرعة التخلص بتتابع ثلاث فتحات متتالية تنتهي بسكون ، (سلماً) وهو اسم مصدر : سلّم له ، إذا خلّص . والمعنى : أنه لا شركة فيه للرجل (3).

V . التفاعل بين التشكيل الصوتي والسياق :

هناك تفاعل دائما بين التشكيل الصوتي والسياق الذي يرد فيه ، بحيث تتضافر العناصر الدالة من أصوات لها إيجاءها ومناسبتها ، مع المعاني المعجمية للألفاظ ، والدلالات

¹ ابن كثير : المصدر السابق - ج 4 - ص 76 - القرطبي : المصدر السابق - ج 15 - ص 192

² القرطبي : المصدر السابق - ج 15 - ص 191 - 192

³ الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 23 - ص 401 - 402

الصرفية المرتبطة بالصيغ والأبنية الصرفية ، وكذا دلالة البنى التركيبية وسائر الأدوات الأسلوبية الأخرى اللغوية منها وفوق اللغوية... كل هذه العناصر تجتمع لتشكيل المعنى النهائي. وبالتالي فإن الدلالة الصوتية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسياق ، وتكون معاني الأصوات إذن معان تركيبية ، وليست معان إفرادية .

يتضح هذا الأمر أكثر من خلال المثال التالي:

قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾⁽¹⁾.

والزجرة هنا هي الصيحة ، ولكنها تقال هنا بهذا اللفظ العنيف تنسيقا لجو المشهد مع مشاهد السورة جميعا...، وهذه الزجرة الواحدة يغلب - بالاستناد إلى النصوص الأخرى - أنها النفخة الثانية، نفخة البعث والحشر، والتعبير عنها فيه سرعة ، وهي ذاتها توحى بالسرعة ، وإيقاع السورة كلها فيه هذا اللون من الإسراع والإيجاف ، والقلوب الواجفة تأخذ صفتها هذه من سرعة النبض⁽²⁾

يتناسق وزن الكلمة مع جرس أصواتها ، مع إيقاع السورة ومعنى التركيب اللغوي ، ليدل على هذه السرعة المقصودة ، وعلى يسر وسهولة أمر إعادة الخلق والبعث من جديد " وما أحسن تسهيل أمر الإعادة بقوله (زجرة) عوضا من (صيحة) لأن الزجرة أخف من الصيحة ، وبقوله (واحدة) أي غير محتاجة إلى مثوية"⁽³⁾

وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ﴾⁽⁴⁾

¹ النازعات - 13 - 14

² سيد قطب : في ظلال القرآن - ج30- ص26

³ ابن المنير: أحمد بن محمد بن منصور، أبو العباس ناصر الدين المالكي الإسكندري: الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - مطبوع بهامش الكشاف - ج4 - ص213.

⁴ الحاقة - 13

فلاحظ تلاؤم هذا الإيحاء الصوتي الدال على السرعة ، وهي المعنى المقصود التعبير عنه في هذا التركيب اللغوي بالأدوات التالية :

- صيغة الكلمة (زجرة).
- جرس أصواتها الموحى بالسرعة : الزاي صوت مجهور ، والجيم صوت مركب من انفجار واحتكاك ، والراء مكررة ، وبعدها تنوين للتاء.
- المعنى الصرفي لصيغة (زجرة)، فالزجرة: المرة من الزجر ⁽¹⁾
- المعنى المعجمي (زجر) ، فالزجر هو الكلام الذي فيه أمر أو نهي في حالة غضب ، يقال زجر البعير إذا صاح له لينهض أو يسير ، وعبر بها هنا عن أمر الله بتكوين أجساد الناس الأموات ، تصويراً لما فيه من معنى التسخير لتعجيل التكون ، وفيه مناسبة لإحياء ما كان هامداً ، كما يبعث البعير المبارك بزجرة ينهض بها سريعاً خوفاً من زجره ، وقد عبّر عن ذلك بالصيحة في قوله تعالى: ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ ⁽²⁾ وهو الذي عبر عنه بالنفخ في الصور. ⁽³⁾
- وصفت الزجرة ب(واحدة) تأكيداً لما في صيغة المرة من معنى الوحدة لئلا يتوهم أن أفرادها للنوعية ، وهذه الزجرة هي النفخة الثانية التي في قوله تعالى: ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الارض إلا ما شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ⁽⁴⁾ فهي ثانية للتي قبلها وهي الرادفة التي تقدم ذكرها آنفاً ، وإنما أريد بكونها واحدة أنها لا تتبع بثانية لها ، وقد وصفت بواحدة في صورة الحاققة بهذا الاعتبار ⁽⁵⁾

¹ الطاهر بن عاشور : المصدر السابق -ج30- ص72-73

² ق - 42

³ المصدر نفسه - ج30- ص72

⁴ الزمر - 68

⁵ المصدر نفسه - ج 30 - ص 72

- الإتيان ب (إذا) الفجائية للدلالة على سرعة حضورهم بهذا المكان عقب البعث.⁽¹⁾
- وعطفها بالفاء لتحقيق ذلك المعنى الذي أفادته (إذا) لأن الجمع بين المفاجأة والتفريع أشد ما يعبر به عن السرعة مع إيجاز اللفظ.⁽²⁾
- صيغة (إنما) الدالة على الحصر، والقصر حقيقي مراد منه تأكيد الخبر ، بتزليل السامع منزلة من يعتقد أن زجرة واحدة غير كافية في إحياء الموتى وبعثهم ، فجيء بهذا التركيب ليفيد أن وقوع ذلك الحدث أمر سهل يقع في لحظة واحدة وبسرعة بمجرد زجرة واحدة فقط لا أكثر⁽³⁾
- ثم يختم هذا التركيب اللغوي بالصورة النهائية للناس وهم فوق الأرض التي كانوا تحتها عظاما نخرة فجأة فإذا "هم بالساهرة" ، فقد تم تصوير خروجهم من تحت الأرض وقد كانوا عظاما رميما ، واختصار هذه الصورة في هذا المقطع الصغير (هم بـ) للدلالة على السرعة خاصة مع إخفاء الميم في الباء.
- وإذا تأملنا السمات النطقية والسماعية للأصوات المستعملة في تصوير هذه العملية نجدها تتناسق تمام التناسق مع الحدث المعبر عنه.
- فالهاء من أقصى الحلق مهموسة ، والميم والباء من الشفتين مجهورتان ، تشبيه لخروج العظام الميتة الساكنة التي كانت مغمورة تحت الأرض ، وقد برزت مرة أخرى إلى الوجود حية على ظهر الأرض.
- وتأمل أيضا هذا الانتقال السريع من أقصى الحلق إلى الشفتين في عبارة "هم بالساهرة" : من عمق جهاز النطق ، من أقصى الحلق ، خرج صوت الهاء من الجوف (والهاء هاوية

¹ المصدر نفسه - ج 30 - ص 72

² المصدر نفسه - ص 72

³ المصدر نفسه - ص 73 - 72

فيه) ، ليتم بسرعة تجاوز سائر مواضع النطق لآخر نقطة في ظاهر الشفتين الباء وحتى الميم تم إخفاؤها.

كل هذه الأدوات اللغوية تضافرت واجتمعت لتصوير سرعة إعادة البعث ، لأن الآية جاءت في سياق الرد على المشركين ، الذين استبعدوا وقوع البعث واستصعبوا حدوثه ، وقد حكى القرآن قولهم : ﴿ يقولون أئني لمدودون في الحافرة إذا لها عظاما نخرة قالوا تلك إذن كرة خاسرة ﴾⁽¹⁾ ، وهنا يأتي الجواب والرد الحاسم مباشرة بدون مقدمات بهذه الجملة السريعة: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾. بعدها مباشرة وقد انتهى السياق من المقصود ، يتغير الإيقاع تماما ويهدأ ، ويسترخي إلى إيقاع بطيء متموج يناسب جو الحكاية والعرض لقصة موسى : ﴿ هل أتاك حديث موسى، إذا ناداه ربه بالواد المقدس طوى... ﴾⁽²⁾ بحيث تغيب المقاطع الصغيرة وتظهر بدلها المدود.

¹ النازعات – 10- 12

² النازعات – 16

المبحث الثالث : دلالة الإيقاع

المبحث الثالث: دلالة الإيقاع

يعتبر مفهوم الإيقاع من أكثر المفاهيم الشعرية إشكالاً وغموضاً بسبب استعمالته المختلفة في مجالات معرفية متعددة ، فقد استعمل مرتبطاً بالموسيقى ، واستعير للتعبير عن الإيقاع الموجود في الطبيعة والحياة ...

فالإيقاع إذن قاعدة مستندة إلى بديهيات الحياة ، حتى تكاد تكون من ضمن نواميس الكون والطبيعة ، والإيقاع بمفهومه العام هو تنظيم أي شيء في هذه الحياة ، غير أنه قد ارتبط في التراث العربي بالشعر .

تعريف الإيقاع :

جاء في لسان العرب : سمعت وقع المطر ، وهو شدة ضربه الأرض إذا وبل . ويقال : سمعت لحوافر الدواب وقعاً ووقوعاً . والإيقاعُ من إيقاعِ اللحنِ والغناءِ ، وهو أن يوقع الأَلحانَ ويبيها ، وسمى الخليل كتاباً من كتبه في ذلك المعنى كتاب الإيقاع⁽¹⁾ فالإيقاع إذن حركة النغم الصادر عن تأليف الكلام المنثور والمنظوم ، والنتج عن تجاور أصوات الحروف في اللفظة الواحدة ، وعن نسق تزاوج الكلمات فيما بينها ، وعن انتظام ذلك كله شعراً في سياق الأوزان والقوافي.⁽²⁾ ولا يقتصر الإيقاع على الشعر ، بل يتعداه إلى النثر ، ويشكل الإيقاع ظاهرة بارزة في اللغة العربية شعراً كانت أم نثراً ، يجعلها لغة شعرية بامتياز⁽³⁾ ، نظراً لخصائصها الصوتية التي تمنحها القدرة على إنتاج العناصر الصوتية للإيقاع .

¹ ابن منظور : لسان العرب - ج 8 - ص 402 ، 408 - مادة (وقع) - الفيروز آبادي : القاموس المحيط - ص 773 - مادة (وقع)

² د. إميل بديع يعقوب : المعجم المفصل في اللغة والأدب - دار العلم للملايين - ط 1 - ج 2 - ص 276

³ انظر ص 161 وما بعدها من هذا البحث

أنواع الإيقاع :

اهتم علماء البلاغة والنق اد العرب بدراسة الإيقاع ، وبذلوا جهوداً جبارة في بحث عناصره واكتشاف قوانينه.
والإيقاع نوعان : داخلي وخارجي

1. الإيقاع الخارجي:

ويشكل هذا النوع من الإيقاع البنية الخارجية للنص ، والمقصود به الوزن والقافية أو ما يصطلح عليه باسم : العروض.
وهو في الاصطلاح علم بأصول يعرف بها موزون الشعر من فاسده متناولا¹ التفعيلات والبحور وتغيراتها وما يتعلق بهما.⁽¹⁾
لقد اهتم علماء العروض بتفصيل مكونات الإيقاع الخارجي للشعر، وحد² الشعر عندهم : "الفظ، موزون، مقفّ، يدلّ على معنى. فهذه أربعة أشياء: اللفظ، المعنى، الوزن، القافية"⁽²⁾.
انطلاقاً من هذا التعريف للشعر حددوا مكونات الإيقاع في أمرين أساسيين هما : الوزن - والقافية.
فالإيقاع الخارجي مرتبط أساساً بالشعر ، وبالتالي فهو ليس موضوع هذا البحث.

2. الإيقاع الداخلي:

هو وحدة النغم التي يكون مبعثها انتقاء الألفاظ واختيار الأصوات المناسبة وتكرارها داخل التركيب لتشكيل بنية النص الداخلي .

¹ د. إميل بديع يعقوب : المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 (1411 هـ - 1991 م) - ص 336

² جار الله الزمخشري : القسطاس في علم العروض - تحقيق: د. فخر الدين قباوة - مكتبة المعارف - بيروت - ط 2 (1410 هـ - 1997 م) - ص 21

ومن مكونات الإيقاع الداخلي: ذلك الإيقاع الخاص لكل كلمة ، بالنظر إلى جرس الحروف وتواليها في النطق ، وطريقة ترتيبها في الكلمات ، ثم الجرس الذي يحدثه اجتماع الكلمات في التركيب اللغوي ، وفي النص بأكمله.⁽¹⁾

فالإيقاع كمصطلح فني له حدوده وقوانينه في الشعر والنثر معاً ، ينطلق من المفهوم العام وهو التنظيم ليمارس هذا الدور في السياقات اللغوية ، فلغة الشعر هي إعادة تنظيم للغة العادية . ويتم هذا التنظيم من خلال المستوى الصوتي للغة ، و الذي يقوم بهذا الدور التنظيمي هو الإيقاع لأنه الميزان الحاكم لهذه العملية.

الإيقاع القرآني :

خلصنا فيما سبق إلى أن الإيقاع ينتج من جرس الألفاظ وتناغم العبارات لإحداث التوافق الصوتي بين مجموعة من الحركات والسكنات لتأدية وظيفة سمعية والتأثير في المستمع .
والقرآن الكريم يمتاز في كل سورة منه وآية ، وفي كل مقطع منه وفقرة ، وفي كل مشهد فيه وقصة ، وفي كل مطلع منه وختام بأسلوب إيقاعي غني بالموسيقى ، مملوء نغماً⁽²⁾ . فالعربية لغة موسيقية ، والقرآن الكريم يسير على سنن العربية وأساليبها في التعبير فتميز أسلوبه بالإيقاع المعجز والجرس اللافت للنظر .
والإيقاع في القرآن الكريم صورة للتناسق الفني ، ومظهر من مظاهر تصوير معانيه ، وآية من آيات الإعجاز فيه. لقد جمع النسق القرآني بين مزايا الشعر والنثر ، فهو قد تجاوز قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة . وتضمن في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل

¹ محمد النويهي : المرجع السابق - ص 39 - 40

² د . صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن - دار العلم للملايين - بيروت - ط 24 - 2000م - ص 334

المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، والتقفية التي تغني عن القوافي⁽¹⁾ . فالموسيقى القرآنية إشعاع للنظم الخاص في كل موضع ، وتابعة لقصر الفواصل وطولها . كما أنها تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة ، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة.

فالعطاء الموسيقي في القرآن الكريم يأتي من اللغة ، لأن الموسيقى فيه لا تنبع من وزن شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي ، ولكنها تنبع من اللغة نفسها ، وهي اثتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة ، وفي سياق الألفاظ وتناسقها وتناغمها وأدائها للمعنى ودالاتها عليه .

إننا حين نقرأ القرآن قراءة سليمة نحس بذلك الإيقاع الداخلي فيه ، ينبعث منه نغم ساحر يبهر الأبواب ، ويسترق الأسماع ، ويستولي على الأحاسيس و الوجدان . ويلاحظ أن هذا الإيقاع " يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار والفواصل السريعة ، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة ، ويتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال ... ولكنه - على كل حال - ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني"⁽²⁾ .

يرى كثير من الباحثين أن الإيقاع القرآني يصعب شرحه لما يمتاز به من عمق وسحر لا يعرف مصدره تحديداً ، وإن كان من الممكن الحديث عنه أو تفسيره تخميناً . يقول سيد قطب : " على أن هناك نوعاً من الموسيقى الداخلية يلحظ ولا يشرح ، وهو كامن في نسيج اللفظة المفردة ، وتركيب الجملة الواحدة ، وهو يدرك بجاسة خفية وهبة لدنية"⁽³⁾

وتجرب الرافي قليلاً من سر هذه الموسيقى فيقول : " فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر ، لكان ذلك خللاً بيناً أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة ، وفي حس السمع وذوق اللسان ، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض

¹ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 102

² المرجع نفسه - ص 103

³ المرجع نفسه - ص 106

، ولرأيت لذلك هجنة في السمع كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاءه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولاً وبعضها عرضاً⁽¹⁾.

دور الإيقاع في بناء الدلالة:

والنغم القرآني ليس غاية في حد ذاته وإنما هو وسيلة للإيحاء والتأثير . وإن فكرة القيمة التعبيرية للصوت المفرد ودوره في بناء الدلالة ، والتي بحثها سيبويه ودافع عنها ابن جني ، قد انتقلت إلى الدراسات المتعلقة بالأوزان العروضية على أساس أن الأوزان هي الأخرى مبان ورموز قد يكون لها بعض الأثر في الدلالة.

وقد ذكر الفارابي أن اليونانيين كانوا السباقين إلى أفراد وزن خاص لكل غرض من الأغراض التي يطرقتها الشعراء ، يقول في ذلك : " فجعل الشعراء في الأمم الماضية والحاضرة الذين بلغنا أخبارهم خلطوا أوزان أشعارهم بأحوالها ، ولم يرتبوا لكل نوع من أنواع المعاني الشعرية وزناً معلوماً ، إلا اليونانيين فقط ، فإنهم جعلوا لكل نوع من أنواع الشعر نوعاً من أنواع الوزن ، مثل أن أوزان المدائح غير أوزان الأهاجي ، وأوزان الأهاجي غير أوزان المضحكات ، وكذلك سائرها " (2) .

يرتبط الإيقاع في القرآن الكريم بالدلالة ارتباطاً وثيقاً ، وتظهر العلاقة بينهما علاقة وطيدة ، ذلك أن الإيقاع القرآني لا يعمل بصورة منفردة وبمعزل عن السياقات المتنوعة في النص القرآني ، لأن النص القرآني منظومة متكاملة الأطراف يفضي بعضها إلى بعض في سياق تنظيمي فريد . فالإيقاع القرآني يتبع في نطاق عمله الموضوع الذي تتكلم عنه الآيات القرآنية ، ويتناسق مع جو التعبير ويؤدي وظيفة أساسية في البيان .

¹ الرفاعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ص 217

² الفارابي : رسالة في قوانين صناعة الشعراء - ص 152 - نقلاً عن : د. فايز الداية : علم الدلالة العربي - دار الفكر - دمشق - ط2 (1417 هـ - 1996 م) - ص 54

وقد حاول سيد قطب توضيح حقيقة ارتباط الإيقاع في القرآن بالمضمون الذي يحتويه السياق فقال جازماً: " فأما تنوع أسلوب الموسيقى وإيقاعها بتنوع الأجواء التي تطلق فيها ، فلدينا ما نعتمد عليه في الجزم بأنه يتبع نظاماً خاصاً ، وينسجم مع الجو العام باطراد لا يستثنى " (1)

تنوع الإيقاع بتنوع الموضوعات :

يتنوع الإيقاع القرآني بين الشدة والرخاوة ، ومن إيقاع سريع الحركة إلى آخر بطيء متموج ، تبعاً لتنوع الموضوعات التي تتناولها الآيات القرآنية ، يتضح ذلك من خلال النماذج التالية:

1. إيقاع الدعاء:

إن الدعاء بطبيعته ضرب من الابتهاال الصاعد إلى السماء ، فلا يجلو وقعه إلا إذا ألبس في ثوب من الموسيقى الرخية الطويلة ، التي تناسب جو الخشوع والإخبات والتضرع إلى الله.

نتأمل دعاء أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق ، إن ربي لسميع الدعاء ، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (2)

¹ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 110

² إبراهيم - 37 - 41

إنها موسيقى الدعاء الخاشعة ، بإيقاعها الطويل الدخي المتموج⁽¹⁾ بكثرة المدود ، التي تجعله يسترسل بنغماته مع أجواء التضرع والدعاء ، وظلال الابتهالات والمناجاة الصاعدة إلى السماء ، وقد جاءت فواصل الآيات متناسقة مع هذه الأجواء (السماء - اسحاق - الدعاء - دعاء - الحساب)

نلاحظ هذا النوع من الإيقاع في دعاء نبي الله زكرياء ، وهو قائم بين يدي الله ، يصلي في الحراب ينادي ربه نداء خفياً ، بصوت يملأه الشجى والحزن والأسى ، وقلب يغمره اليقين الصادق والإيمان الصافي : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكرياء اذ نادى ربه نداء خفياً ، قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً ، يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضياً ﴾⁽²⁾

وليست مواقف الدعاء كلها نداوة ولين ، ففي بعض المواقف الأخرى شدة وغلظة . فهذا نبي الله نوح - عليه السلام - وقد دأب يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، فلم يزدادوا منه إلا فراراً ، رغم إصراره على نصحهم في السر والعلن ، ولكنهم أصروا على كفرهم وعنادهم ، وتمادوا في غيهم وضلالهم ، فما كان من نوح - وقد أيس منهم وتملكه الغضب - إلا أن دعا عليهم بالهلاك والتبار فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾⁽³⁾ . دعى بهذه الموسيقى الرهيبة وهذا الإيقاع العنيف .

¹ سيد قطب : في ظلال القرآن - ج 4 - ص 412 - التصوير الفني في القرآن - ص 112

² مريم - 2 - 6

³ نوح - 26 - 28

وتجدد الإشارة هنا إلى أنه وسط هذا الهول الشديد ، نلحظ هدوءاً نسبياً يبدأ حين ينتقل نوح إلى الدعاء بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

2. إيقاع الطوفان :

إن نفس الموسيقى المتموجة ، بمداتها والتي صاحبت جو الدعاء الصالح لأنبياء الله إبراهيم وزكرياء ، نجدها ولكن بشكل مغاير فيه مزيد من العمق والارتفاع ، والهول الذي يتناسب مع أجواء المشهد الرهيب لأموج الطوفان العالية (1) : ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن من الكافرين قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ (2)

3. إيقاع الطمأنينة:

وهو إيقاع مشابه في تموجاته وانحناءاته لما مضى في الأمثلة السابقة ، ويختلف عنه في موسيقاه وفي جرس أصواته ، إذ يبدو أكثر هدوءاً ونداوة ورقة ، يفيض بنسمات الرضى والطمأنينة ، ليناسب أجواء الروحانية والتكريم ، حيث ينادي الباري جل جلاله من الملاء الأعلى هاته النفس المؤمنة في ثناء وتطمين: ﴿ يأتيها النفس مطمئنة ارجعي إلى ربك

¹ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن – ص 113

² هود – 42 – 43

راضية مرضية فادخلي في عبادي ﴿ المقربين المختارين ﴾ وادخلي جنتي ﴿ (1) في كنفي ورحمتي (2) .

4. إيقاع رحاب الملاء الأعلى :

نلمح هذا اللون من الإيقاع الذي لا يختلف عن سابقه في تموجه وانسيابه ، في مطلع سورة النجم :

يقول الله عز وجل : ﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ (3)

إنه إيقاع يأخذ النفس البشرية في رحلة إلى ذلك الأفق الوضيء الطليق المرفرف ، إلى الملكوت الأعلى حيث عرج بالني - صلى الله عليه وسلم - ، وهناك تلقى من الملاء الأعلى ورآى من آيات ربه الكبرى .

إيقاع ذو لون موسيقي خاص ، متحد تبعاً لاتحاد الفواصل والقوافي وتآلف جرس الحروف والكلمات ، متوسط الزمن ، مسترسل الروي ، يلحظ فيه التموج والانسياب ، وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة المرفرفة ، ومع المعاني واللمسات العلوية والأحداث النورانية والمشاهد الربانية التي يصفها هذا المقطع ومع الحركات الطليقة

¹ الفجر - 27 - 30

² سيد قطب : في ظلال القرآن - ج 8 - ص 37-38 - التصوير الفني في القرآن - ص 113

³ النجم - 1 - 18

للروح الأمين وهو يتراءى للرسول الكريم ، وقد كشفت عنه الحجب ، وأزيحت عنه الأستار ، ويتلقى من الملائة الأعلى ، يسمع ويرى ، ويحفظ ما وعى ، ويرى من آيات ربه الكبرى .

وهي لحظات خص بها ذلك القلب المصفى ، ولكن الله عز وجل بمنه وكرمه ، يصفها لعباده وصفاً موحياً مؤثراً ، ينقل أصداءها وظلالها وإيحاءها إلى قلوبهم ، يصف لهم رحلة هذا القلب المصفى ، في رحاب الملائة الأعلى ، خطوة خطوة ، ومشهداً مشهداً ، وحالة حالة ، كأنهم يشاهدونها.⁽¹⁾

5. إيقاع أهوال القيامة:

هذا اللون من الإيقاع يختلف تمام الاختلاف عن سابقه ، إيقاع سريع لاهث ، قوي راجف ، شديد يتناسق مع أهوال القيامة وأجوائها المرتجفة ، التي تبعث في النفس الفزع والخوف والهلع ، شبيه بالموسيقى التصويرية التي ترافق مشهداً من المشاهد أو قصة من القصص .

جاء الحديث عن أهوال يوم القيامة - على هذا النسق - في القرآن الكريم في مواطن كثيرة ، نورد فيما يلي بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر:

يقول الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمئذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمئذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي ، فَيَوْمئذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ، وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ ﴾⁽²⁾

ترسم هذه الآيات بإيقاعها الشديد الأسر ، وموسيقاها العسكرية سريعة النبض ، صورة مشهد عنيف مخيف ، ترجف له القلوب ، وتخضع له الأبصار ، فيه شد وقصف ودك

¹ سيد قطب : في ظلال القرآن - ج 7 - ص 52 - 53 - التصوير الفني في القرآن - 103 - 104

² الفجر - 21 - 26

للأرض دكاً دكاً ، وتحطيم لمعاملها وآثارها ، والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل، ويقف الملائكة صفاً صفاً . ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى!⁽¹⁾ إننا في مثل هذه المواقف التي يتجلى من خلالها تباين ألوان من الإيقاع تبعاً لتنوع الموضوعات " لسنا بحاجة إلى قواعد موسيقية ولا إلى اصطلاحات فنية، لنذكر الفرق بين الأسلوبين والإيقاعين ، فهو واضح لا يخفى " (2) ، وإن أدنى إرهاف في الحس يقودنا إلى التمييز والحكم بأن إيقاع هذه الآيات يختلف تماماً عنه في الآيات السابقة . وبالعودة مجدداً إلى الآية التي بين أيدينا ، نلمح أنه بمجرد انتقال سياق الآية من أهوال القيامة ، إلى الحديث عن حسرة الإنسان وندامته على فوات الفرصة ، حتى خف الإيقاع ولانت موجاته ، متناسقة مع جو التعبير عن الأسى والحسرة والندامة : ﴿ يوم يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول ياليتني قدمت لحياتي ﴾

الدلالة الصوتية في الفاصلة القرآنية:

تعتبر الفاصلة القرآنية عنصراً مهماً من عناصر الإيقاع في القرآن الكريم ، ومظهراً بارزاً تتجلى فيه بوضوح قوة الدلالة الصوتية واتحاد المعنى والمبنى .

1. تعريف الفاصلة :

الفاصلة لغة :

وردت مادة (ف ص ل) في القواميس والمعاجم العربية بمعنى البون ما بين الشيئين والحاجز بينهما. يقال: فصلت الشيء فانفصل ، أي قطعتة فانقطع. ويطلق (الفصل) ويراد به عدة معان : كمفاصل العظام ، والفصل: الحق من القول ، وقول فصل: حق ليس بباطل ، والتفصيل: التبيين...

¹سيد قطب : في ظلال القرآن - ج 8 - ص 37 - التصوير الفني في القرآن - ص 97

² سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ص 111

هذه أهم المعاني اللغوية لمادة (فصل) التي يدور معناها حول الفصل والحاجز بين الشيعين، وهي تقضي وجود ثلاثة عناصر: شيثان وفاصل بينهما.⁽¹⁾

الفاصلة اصطلاحاً :

عرفها الرماني يقول: " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن افهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب".⁽²⁾

وبنفس العبارات تقريبا عرفها القاضي أبو بكر الباقلاني بقوله: " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إفهام المعاني ، وفيها بلاغة ، والأسجاع عيب".⁽³⁾

أما السيوطي فقد عرفها بقوله: " الفاصلة كلمة آخر الآية ككافية الشعر وقرنية السجع"⁽⁴⁾

ونقل تعريف أبي عمرو الداني وفيه: " الفاصلة كلمة آخر الجملة " ثم يضيف: " الفواصل هي الكلام المنفصل عما بعده "⁽⁵⁾.

ومن المعاصرين الذين وضعوا تعريفاً للفاصلة: د. بكري الشيخ أمين عرفها بقوله: " النهاية التي تذييل الآية القرآنية ".⁽¹⁾

¹ : ابن منظور: لسان العرب – مادة (فصل) ج 11- ص521 – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط – تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط 8 (1426هـ - 2005م) – مادة (فصل) – ص 1042.

² : الرماني: النكت في إعجاز القرآن – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – ص 97

³ : أبو بكر الباقلاني – إعجاز القرآن – شرح وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي - دار الجبل – بيروت - ط1 (1411هـ - 1991م) - ص 299 .

⁴ : جلال الدين السيوطي : الاتقان في علوم القرآن – تعليق: د. مصطفى ديب البغا – دار ابن كثير – دمشق – بيروت – ط4 (1420هـ - 2000م) – ج 2 – ص 940.

⁵ : المصدر نفسه – ج 2 – ص 940 .

نخلص من خلال المقارنة بين هذه التعاريف إلى النتائج التالية :

- أن الفاصلة ليست مجرد حروف، ولا مجرد كلمة فحسب، فقد تكون أكثر من ذلك.

- أنها ليست دائماً رأس آية.⁽²⁾

- أنها تختلف عن السجع، وعن قافية الشعر.⁽³⁾

- أنها متصلة بما قبلها في المعنى، وتفصل الكلام عما بعده، قال الزركشي: "سميت فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان".⁽⁴⁾

وعليه فإن الفاصلة هي النهاية التي تذيّل بها آخر الجملة القرآنية، المتصلة بما قبلها، المنفصلة عما بعدها ، توجب حسن إفهام المعنى.

II. الفرق بين الفاصلة وبعض المشبهات:

1. بين الفاصلة والسجع:

السجع تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد في الآخر⁽⁵⁾ وقد اختلف الدارسون حول وجود السجع في القرآن ، ومدى اعتبار الفاصلة سجعاً :

¹ : د. بكري الشيخ أمين : التعبير الفني في القرآن الكريم - دار الشروق - بيروت - القاهرة - ط4 (1400 هـ - 1980 م) - ص 203

² : سيأتي بيانا لاحقا ص224 من هذا البحث

³ : سيأتي بيانه لاحقا ص 224 من هذا البحث

⁴ : الزركشي : البرهان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار التراث - القاهرة - ج1 - ص54

⁵ ابن الأثير: المثل السائر -ج1- ص 210 - الجرجاني - التعريفات - ص101

1. فذهب جماعة منهم الرماني والباقلاني إلى التفريق بين الفاصلة والسجع، ونفوا وجود السجع في القرآن ، والفرق عندهم بين الفاصلة والسجع أن "الفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، ذلك أن الفواصل تابعة للمعاني وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها" (1) ونتيجة لذلك سموها ما في القرآن فواصل ، ورفضوا إطلاق اسم السجع عليها ، لأن السجع في الكلام إنما أخذ من سجع الحمامة ، وشرف القرآن يتره أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر. (2)

كما استدلوا بحديث النبي ﷺ أنه قال لمن جاءوا وكلموه في شأن الجنين " كيف ندي من لا أكل ولا شرب ، ولا صاح فاستهل ، أليس دمه قد بطل " فقال : أسجاعة كسجاعة الجاهلية " وفي رواية " أسجعا كسجع الكهان " (3) (4)

وإذا كان النص قد جاء بنفي الشعر عن القرآن في قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ (5) فمن باب أولى نفي السجع عنه ، لأنه من عمل الكهان والكهانة تنافي النبوات النبوات (6).

2. وفي المقابل لم يتحرج فريق آخر من إطلاق السجع على الفواصل القرآنية ، وإثبات وجوده في القرآن. ومن أبرزهم أبو هلال العسكري وابن سنان الخفاجي وابن الأثير. يقول ابن الأثير في السجع : " وقد ذمه بعض أصحابنا ... ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن " (1)

¹ الرماني : المصدر السابق - ص 97

² الزركشي : المصدر السابق - ج 1 - ص 54

³ صحيح البخاري - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما جاء في اجتهاد القضاة بما أنزل الله تعالى - رقم 6887 - صحيح مسلم : كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمدة على عاقلة الجاني - حديث رقم 1682

⁴ الباقلاني : المصدر السابق - ص 111

⁵ الحاقة - 41

⁶ المصدر نفسه - ص 111

والسجع المحمود عنده : " أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى " (2) ، و المذموم الذي يكون المعنى فيه تابعا للفظ ، " وهو الذي يذم من السجع ويستقبح لما فيه من التكلف والتعسف ، وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف ، فإنه يجيء في غاية الحسن ، وهو أعلى درجات الكلام " (3)

والنهي الوارد في الحديث المقصود منه السجع المذموم إذ لو كره النبي ﷺ السجع مطلقاً لقال : أسجعا ؟ وسكت . وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان ، فلما قال : " أسجعا كسجع الكهان " ، صار المعنى معلقاً على أمر ، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه ، وأنه ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير . كيف وقد ورد في القرآن الكريم ، وفي كلام النبي (ص) منه الكثير . (4)

وخلاصة هذه الأقوال كلها أن الخلاف بين الفريقين في مجرد الاصطلاح هل تسمى الفواصل سجعا أم لا ؟ فهم متفقون على تزيه القرآن عن السجع المذموم المتكلف الذي يكون المعنى فيه تبعا للفظ ، أما ما كان فيه اللفظ تبعا للمعنى فقد سماه بعضهم فاصلة ولم يتحرج الآخرون في إطلاق مصطلح السجع عليه .

غير أن ابن سنان اعتبر الفاصلة أعم من السجع لأنها على ضربين : ضرب يكون سجعا وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع ، مثل ﴿ والطور وكتاب مسطور... ﴾ (5) ، وضرب

¹المصدر نفسه - ج 1 - ص 210

²المصدر نفسه - ج 1 - ص 213

³المصدر نفسه ر - ج 1 - ص 213

⁴المصدر نفسه - ج 1 - ص 211

⁵الطور - 1

لا يكون سجعاً ، وهو لما تقابلت حروفه في المقاطع مثل ﴿ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ﴾¹ .⁽²⁾

2. بين الفاصلة ورؤوس الآي :

فرق أبو عمرو الداني (444هـ) بين الفاصلة ورأس الآية فقال : "الفاصلة هي الكلام المنفصل عما بعده والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس ، وكذلك الفواصل ، يكن رؤوس أي وغيرها ، وكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية "⁽³⁾ فرأس الآي أعم من الفواصل ، ومثال فواصل التي ليست رؤوس أي قوله تعالى : ﴿ ما كنا نبغ ﴾⁽⁴⁾ ومثال الفواصل التي هي رؤوس أي قوله تعالى : ﴿ إذا يسر ﴾⁽⁵⁾

3. الفرق بين الفاصلة والقافية والروي :

القافية في الاصطلاح : الحرف الأخير من البيت ، وقيل : الكلمة الأخيرة منه ⁽⁶⁾ والروي بفتح الراء وتشديد الياء هو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة وتنسب إليه . فيقال : قافية لامية أو ميمية ⁽¹⁾

¹ الفاتحة - 1

² ابن سنان الخفاجي : المصدر السابق - ص 172

³ السيوطي - الإتقان - ج2-ص940 . الزركشي : المصدر السابق - ج - ص54

⁴ الكهف - 64

⁵ الفجر - 4

⁶ الجرجاني - التعريفات - ص 143

وقد فرق الإمام الزركشي بين الفاصلة وكل من القافية والروي ، لكون الأولى خاصة بكتاب الله ، بينما الأخيرتان تختصان بالشعر ، ولما كان القرآن مترها عن الشعر ، وجب قياساً أن يتره عن القافية والروي. (2)

III . مظاهر الدلالة الصوتية في الفواصل القرآنية:

من خصائص القرآن الكريم أنه تتنوع فيه الأساليب وطرائق التعبير ، تبعاً لتنوع الأغراض والمعاني ، نجد هذا الأمر بارزاً بقوة في الفواصل القرآنية ، التي يتنوع نظامها بتنوع المواضيع التي تعرضها ، " ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها وطريقة بناؤها اللفظي من حيث السهولة والخشونة ، وتخير الحرف الأخير الذي تختتم به ". (3)

تتجلى مظاهر هذا التنوع في الفواصل القرآنية ، بين القرآن المكي والمدني ، كما تتنوع الفواصل بين السور وحتى داخل السورة الواحدة ، تبعاً لتنوع الأغراض والمعاني.

1 - اختلاف الفواصل بين القرآن المكي والمدني :

لم يترل القرآن جملة واحدة ، بل نزل منجماً حسب الحوادث والأسباب ، نزل بعضه في المرحلة المكية وبعضه بعد الهجرة إلى المدينة ، لذلك فرق العلماء بين قسمين من القرآن : المكي والمدني.

¹ المصدر نفسه - ص - 98

² السيوطي : الإتقان - ج 2 - ص 942

³ د. عبد الله محمود شحاته - علوم القرآن - دار غريب القاهرة - ط 2002م - ص 139

ومهما اختلفت آراء العلماء في التفريق بين المكي والمدني ، إلا أن الراجح أن الضابط في ذلك هو معيار الزمان ، وليست العبرة بالمكان ، وعليه فالمكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله بمكة .⁽¹⁾

وتمتاز الآيات المكية في عمومها ببيان العقيدة ، والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك ، ومجادلة المشركين وإثبات الأدلة على وحدانية الله وعلى البعث والجزاء ، وفيها قصص الأنبياء والأمم السابقة للاعتبار بأحوالهم .

وأهم ما يميز القرآن المدني التفصيل في بيان الأحكام ، والتشريعات المتعلقة بالعبادات والمعاملات والحدود والنظم الاجتماعية والعلاقات الدولية ...

والقرآن المكي يغلب عليه قصر آياته ، ولذلك امتازت فواصله بالقصر والتقارب ، فتجبر القارئ أو المستمع على الوقوف عندها والتأمل .⁽²⁾

مثالها سورة الرحمن: ﴿ الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان... ﴾³

وسورة الشمس: ﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها... ﴾⁴

وسورة الفجر: ﴿ والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر... ﴾⁵

¹ د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن - ص 167 - 168

² محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن - دار الفكر العربي - ص 239-240

³ الرحمن - 1 - 4

⁴ الشمس - 1 - 3

⁵ الفجر - 1 - 4

بينما تمتاز الآيات المدنية بطول فواصلها ، لأن الطول يتناسب مع تفصيل الأحكام ، وبيان التكاليف الشرعية التي تحتاج إلى التوضيح ، ولا يكتفي فيها بالإجمال ، فسورة البقرة مثلاً¹ والنساء والمائدة ، طويلة فواصلها ، لأن فيها كثيراً من الأحكام الفقهية المتعلقة بالأسرة والمعاملات المالية وأحكام الجهاد...⁽¹⁾

ومنها آية المدائنة التي تعد أطول آية في القرآن : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب... ﴾⁽²⁾

إن الفواصل المكية القصار المتقاربة ، تجبر القارئ أو المستمع على الوقوف عندها ، لأن كل واحدة تصلح وحدها أن تكون موضع تدبر ، تقرأ مثلاً : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ فتجد في هذا المقطع الصغير آية من الآيات الكونية ، تستدعي لوحدها التأمل والتدبر ، ثم تقرأ بعدها ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ فتجدها آية كونية أخرى تستوجب الوقوف عندها ، وهكذا مع الفواصل الأخرى.

ومثلها أيضاً سورة الفجر ﴿ والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر... ﴾

وحتى القصص الذي يستوجب في الغالب الاسترسال في السرد ، ورد في هذه السورة موجزاً في كلمات جامعة ، بما يتناسب مع الجو العام للسورة : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الاوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد ﴾⁽³⁾.

¹ المرجع نفسه - ص 240

² البقرة - 282

³ الفجر : 6 - 14

كيف اختزلت قصة ثمود في آية واحدة ﴿ وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ ، وقصة فرعون طويت مراحلها في أربع فواصل قصيرة ، كل فاصلة تتضمن فصلاً من فصول القصة ، يستدعي التوقف عنده والتدبر.

و دور الفاصلة هنا أن تدعو إلى التوقف والتروي ، للتدبر في المعنى والوقوف على المغزى.⁽¹⁾

بينما ترد القصة في السورة المدنية طويلة فواصلها وآياتها ، ومثالها هذا المقطع من قصة بني إسرائيل في سورة البقرة : ﴿ وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ... ﴾⁽²⁾

فيها تفصيل وتعداد للنعم التي أفاضها الله على بني إسرائيل ، بعد أن ألحوا على نبيهم أن يدعوا الله بذلك ، ثم بين كيف قابلوها بالكفران والجحود ، وما حل بهم من العذاب.

هذا النوع من السرد تناسبه الفواصل الطويلة ، لأنه " موضوع يحتاج إلى التدبر في أو^{له} وآخره وأخذه جميعاً ... والتدبر في مجموعه لا في آحاده " ⁽³⁾ ومثله أيضاً آيات الأحكام ، كآية المدائنية التي تقدم ذكرها ⁽⁴⁾

2. تنوع الفواصل بتنوع الموضوعات :

الفواصل القرآنية ليست على نمط واحد ، إنها تتنوع بين الطول والقصر والتقارب والتماثل ، ويختلف الحرف الذي تنتهي به ، كل ذلك تبعاً لتنوع الموضوعات التي يتضمنها النص.

¹ محمد أبو زهرة : المرجع السابق -ص 246.

² البقرة : 61

³ محمد أبو زهرة : المرجع السابق -ص 244.

⁴ ص 227 من هذا البحث.

ويعد سيد قطب من أبرز من تتبعوا هذه الظاهرة في ثنايا القرآن الكريم ، من خلال تفسيره لكثير من السور من بينها :

سورة مريم :

يقول سيد قطب في تفسيره لهذه السورة : " تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا ، فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق " (1)

يقصد بذلك المقاطع التي تتحدث عن قصتي زكرياء ويحيى ، ومريم وعيسى عليهم السلام ، حيث وردت الفاصلة فيها بالياء الممدودة الرخية: خفيا ، رضيا ، سميّا... " فأما المواضع التي تقتضي الشدة والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشدّدة دالا في الغالب : مدّا ، ضدّا ، إذا ، أو زايا : عزّا ، أزّا " (2)

ويتابع بعد ذلك تحليل إيقاع السورة مركزا ً نظره على تنوع الفواصل بتنوع الأجواء والمواضيع ، وقد قسم السورة تبعاً لتنوع إيقاعاتها وفواصلها إلى أربعة مقاطع :

- **المقطع الأول :** من بداية السورة بقصة زكريا ويحيى إلى نهاية قصة مريم وعيسى عليهم السلام. حيث تنتهي الفاصلة بالياء الرخية الممدودة : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكرياء اذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا ً فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا... ﴾ (3)

¹ سيد قطب : في ظلال القرآن - ج 5 - ص 87

² المرجع نفسه - ج 5 - ص 87

³ مريم : 2 - 6

هذه الفاصلة تناسب أجواء القصتين ، اللتين تسودهما ظلال من الرحمة والرضا والحنان
والمناجاة ، فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكرياء ومناجاته ربه وتضرعه إليه ، فاستجاب
له ووهبه يحي وجعله رضيعاً : ﴿ وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً ، وبراً بوالديه ولم يكن
جباراً عصياً ﴾¹ (2)

نجد لمسات الرحمة والعطف أيضاً في قصة مريم ، وهي أحوج ما تكون إلى الرعاية والحنان ،
وهي تعاني ما تعانيه المرأة من آلام الحمل والوضع ، مع ما يضاف إليها من آلام نفسية ،
بسبب ما تعرضت له من التهم الباطلة.

– **المقطع الثاني :** ويأتي عقب انتهاء القصص مباشرة ، وفيه تعقيب لتقرير حقيقة

عيسى بن مريم ، والفصل في قضية بنوته . وهنا يختلف نظام الفواصل والقوافي ، فتطول
الفاصلة ، وتنتهي بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف ، لا بالياء الممدودة
الرخية ، على هذا النحو : " ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان لله
أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً³ فإنما يقول له كن فيكون ، وأن الله ربي وربكم
فاعبدوه هذا صراط مستقيم...³ (4)

إن طول الفاصلة هنا وتغيرها من حرف الياء الممدودة الرخية ، إلى حرفي النون أو الميم
الساكنتين المسبوقتين بمد طويل ، يناسب جو إصدار الحكم بعد نهاية القصة ، ولهجة الحكم
تقتضي أسلوباً تعبيرياً غير أسلوب الاستعراض والسرد ، وإيقاعاً قوياً رصيناً بدل إيقاع
القصة الرخي المسترسل.⁵

¹ مريم : 13

² سيد قطب : في ظلال القرآن – ج 5 – ص 87

³ مريم : 34 – 36

⁴ المرجع نفسه – ص 88

⁵ سيد قطب : في ظلال القرآن – ج 5 – ص 88

– **المقطع الثالث** : يبدأ بعد انتهاء التقرير السابق بالعودة إلى سياق قصص آخر ،

قصة إبراهيم وغيره من النبيين.

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم ياتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً... ﴾⁽¹⁾.

وبعودة السياق إلى جو القصص تعود فاصلة الياء الرخية الممدودة⁽²⁾

– **المقطع الرابع** : وفيه ذكر المكذبين وبيان ما ينتظرهم من عذاب وانتقام : ﴿ قل

من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدّاً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً ، ويزيد الله اهتدوا هدى... ﴾⁽³⁾ وفي هذا المقطع يتغير الإيقاع الموسيقي ، وتنقلب الفاصلة من ياء رخية ممدودة ، إلى دال شديدة تناسب مع الوعيد للمكذبين .

وفي موضع الاستنكار للفرية العظيمة وادعاء أن للرحمن ولداً ، يشتد الجرس ويزداد الإيقاع قوة وعنفاً ، بتشديد الدال في الفاصلة ، وكذا تشديد حروف أخرى في السياق (ط- ق- ر) : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً ادّاءً ، يكاد السموات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدأً ، أن دعوا للرحمن ولداً ﴾⁽⁴⁾

¹ مريم : 41 – 45

² سيد قطب : المرجع السابق – ج5 – ص88

³ مريم : 75 – 76

⁴ مريم : 88 – 91

وهنا ينتفض الإيقاع وجرس الفاصلة ، كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته ، لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته.⁽¹⁾

سورة الضحى :

تميز فيها ثلاثة مقاطع :

- **المقطع الأول :** ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى وسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ﴾²

الفاصلة تنتهي بحرف المد (الألف المقصورة) وما فيها من تموج يناسب لمسة الحنان ونسمة الرضا والعطف والود ، كأنّ يداً حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالروح والرضى والأمل ، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين ... كلها أنسام من الرحمة ، وأنداء من الود ، وألطف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخاطر المقلق ، والقلب الموجوع "⁽³⁾ وقد ورد في سبب نزولها ، أن الوحي فتر عن رسول الله ﷺ ، وأبطأ عليه جبريل عليه السلام ، فقال المشركون : ودّع محمداً ربه ، فأنزل الله تعالى هذه السورة ⁽⁴⁾

يتناسب إيقاع هذا المقطع بفواصله المنتهية بألف مد (الألف المقصورة) مع أجواء الحنان اللطيف ، والرحمة الوديعه ، والرضى الشامل ، والشجى الشفيف... ذلك الحنان وذلك الرضا وتلك الرحمة وهذا الشجى ، تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق

¹ سيد قطب : في ظلال القرآن ج 5-ص88

² الضحى : 1 - 5

³ سيد قطب : المصدر السابق - ج 8 - ص55

⁴ ابن كثير - ج 4 - ص875

اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير ، الموسيقى الرتيبة الحركات ، الوئيدة
الخطوات ، الرقيقة الأصداء ، الشجية الإيقاع " (1)

- المقطع الثاني : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ﴾²

تغيرت الفاصلة إلى حرف الراء المكرر ، الذي يناسب معاني القهر والنهر والزجر ، فبعد أن
أخبر الله نبيه بما أنعم عليه أمره بشكر هذه النعم ، وقد جعل الشكر هنا مناسبا للنعمة
المشكور عليها. فنهاه عن قهر اليتيم ، والقهر هنا الغلبة والإذلال ، وتكون بالفعل كالدّع³
والتحقير ، وتكون بالقول ، وتكون بالإشارة مثل عبوس الوجه. (3)

ونهاه أيضا عن زجر السائل ونهره ، والنهر : الزجر بالقول ، مثل أن يقول : إليك عني (4)
- المقطع الثالث : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾⁵

انتهت هذه الفاصلة الأخيرة بحرف " الثاء " ، ولا يوجد في السورة كلها حرف ثاء إلا
هذا ، ولم يقل " خير " ، مع أنها مناسبة للفاصلتين قبلها ، ليكون ذكر النعمة منه
حديثا لا ينساه ، يعيده مرة بعد أخرى ، ويوجده ساعة بعد ساعة. (6)

وكأن حرف الثاء المهموس الساكن ، الذي يستمر معه خروج النفس ، يكون مناسبا
للدلالة على استمرار شكر النعمة.

¹ التصوير الفني ص 125

² الضحى : 6 - 7

³ الطاهر بن عاشور : المصدر السابق - ج 30 - ص 434

⁴ نفسه - ص 304

⁵ الضحى - 8

⁶ فخر الدين الرازي : المصدر السابق - ج 31 - ص 210 - الألوسي : المصدر السابق - ج 14 - ص 530

الختامة

الختام

لقد حاولت في هذا البحث أن أقف على الدور الذي يمكن أن يلعبه الصوت في صياغة المعاني الفنية الدقيقة التي يقصد إليها القرآن ، ويهدف من ورائها تأدية المعاني المقصودة من الجهة التي هي أصح لتأديتها ، ويختار لها من الألفاظ ما هو أحص بها ، وأحدر بأن يكسبها نبلاً ومزية تجعلها فوق مجرد الإبلاغ موحية ومؤثرة في النفس والوجدان.

وقد استدعى مني ذلك أن أتناول دراسة الصوت اللغوي وماهية الدلالة ، قبل أن أُلج بجر الدلالة الصوتية ، وهو فعلاً بحر لا ساحل له ، ولكني - بفضل الله - خرجت من خلال هذه التجربة ببعض النتائج يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1. لقد اهتم علماء العربية القدامى بدراسة الأصوات ، وأولوها عناية خاصة ، وبالرغم من بساطة أدوات الملاحظة في عصرهم ، مقارنة بما هو متوفر حالياً من أجهزة مخبرية ، فلم يكن لهم من وسائل للملاحظة إلا الحس والذوق المرهف ، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت دقة ملاحظاتهم، وعمق تحليلاتهم ، وشفافية حسهم الفطري ، في تذوق الأصوات وتصنيفها . وتبقى المسائل التي لم تأت نتائجهم فيها متوافقة مع ما توصل إليه الدرس الحديث محل بحث ودراسة.

2. كما احتل موضوع الدلالة أيضاً في التراث اللساني العربي حيزاً واسعاً ، ونال قسطاً وافراً من الاهتمام في مختلف حقول المعرفة : المنطق ، الفلسفة ، اللغة ، البلاغة ، النقد والتفسير وأصول الفقه ... ، وقد أثمرت هذه الدراسات ثراءً فكرياً هاماً.

3. لقد بذل علماءنا جهوداً كبيرة في الكشف عن الدلالة الصوتية ، وقد تم الوقوف في هذه البحث على دقة ملاحظات ابن جني ، وعمق تحليله ، وكذا الإمام السهيلي الذي أضاف إضاءات أخرى في هذا المجال ، تبعه فيها ابن القيم ، وقد اهتم هؤلاء

- اللغويون بدراسة الدلالة الصوتية في مستوى الوضع اللغوي ، وهي قابلة لأن تمتد لتشمل دراسة النصوص الأدبية ، وفي ذلك إثراء بالغ لحقل الدراسات الأدبية والنقدية.
4. إن فكرة العلاقة بين الصوت والدلالة لا يمكن إنكارها، نظرا لطبيعة اللغة العربية وخصائصها الصوتية بسعة مدرجها الصوتي الذي تتوزع فيه أصواتها، ووجود صيغ صرفية تحمل دلالات معينة . و الصوت اللغوي بخصائصه النطقية والسماعية التي لها تأثيرها المحسوس في النفس البشرية ، يساهم في تلوين المعنى وصبغه صبغة دلالية وجمالية ، تمنحه وقعا خاصا في النفس .
5. وقد بلغت هذه الظاهرة - ارتباط الصوت بالدلالة - الغاية في النص القرآني ، الذي تألفت في ثناياه الأصوات والكلمات في نسيج لغوي بلغ منتهى الدقة والإحكام ، وسمح باستثمار أقصى ما يمكن من الطاقات الدلالية والإيحائية للصوت . مما يعطينا قناعة بأن العلاقة موجودة وظاهرة لمن تأملها ، بل هي وجه من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم .
6. إن ما يلاحظ أحيانا من اختلاف الرؤى حول قبول أو رفض المناسبة بين الصوت والمعنى ، مرده في الكثير من الأحيان إلى اختلاف مجالات الدراسة ومستوياتها ، حيث أن اعتراض بعض علماء اللسانيات على وجود أية علاقة بين الدال والمدلول سوى العلاقة الاعتبائية العرفية ، مبني على طبيعة دراستهم للغة باعتبارها نظاما من الرموز يكون التواضع فيه جوهر العلامة اللسانية .
- أما حين ننتقل إلى الدراسة الأسلوبية للنصوص الأدبية ، حيث تبرز الوظيفة الشعرية للغة ، ولا يقتصر دورها على نقل الرسالة اللسانية ، بقدر ما ينصب اهتمامها على تسليط تأثير على المتلقي ، فإن الدلالة الصوتية في هذا المقام تصبح أداة من أهم أدوات التأثير في المتلقي ، تجعله ينفعل للرسالة اللسانية بوجه من الوجوه.

7. القول باعتبارية العلامة اللسانية ، وأن أساسها التواضع والاصطلاح ، لا ينفي وجود بعض المشتركات الطبيعية بين الدال والمدلول ، فالتواضع وإن كان يعمل على إخفاء العلة ، ويجعلها تتوارى لصالح المعنى ، إلا أنه لا ينفىها تماما .

8. امتاز القرآن ببنائه الصوتي الذي لا يقترب منه في خصائصه أي بناء آخر ، ولعل الأساس في ذلك أن البناء الصوتي للقرآن غير قائم على ق والب جاهزة كما هو معروف في قوانين الشعر وعروضه وقوافيه ، لأن فرض قالب صوتي معين قد لا يكون موافقاً للموقف الذي يراد تصويره ورسمه ، وبذلك لم يقع التعبير القرآني أسير التوحد الشكلي في اختيار مفرداته ، ولا للقافية التي تفرض نفسها شكلاً لازماً في نهاية كل عبارة في الشعر ، فبالحرية الكاملة للتعبير الدقيق عن جميع أغراضه ، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر إيقاعه وموسيقاه الداخلية ، وهي في القرآن موزونة بميزان شديد الحساسية. فكان القرآن بذلك نهجا بديعا من الكلام المحكم البالغ الروعة في أدائه ، الشريف غاية الشرف في معانيه ومقاصده ، وكان منفردا بأسلوبه هذا الانفراد لأنه كلام الله.

9. اللغة وحدة متكاملة لا يمكن التفريق بين أجزائها ، والمعنى كل لا يتجزأ ، لذلك لا يمكن تصور دلالات للأصوات مجردة عن سائر الوحدات اللغوية الأخرى المسؤولة عن إنتاج الدلالة ، ومعاني الأصوات إنما هي معان تركيبية سياقية ، وليست معان إفرادية ، وهناك تفاعل دائم بين السياق والتشكيل الصوتي ، فلا بد من اختيار التشكيل الصوتي المناسب للسياق المعين من جهة ، ومن جهة أخرى فإن السياق بدوره يخلع على التشكيل الصوتي إيجاءاته المناسبة ، ويسمح له أن يشع طاقاته الدلالية . وعليه فإن القيمة الدلالية والتعبيرية للصوت إنما تظهر في مستوى الكلام والاستعمال ، وفي هذا المستوى يكون التباين الصوتي معيارا أساسيا لنفي فكرة الترادف في اللغة ، فاختلف

التشكيل الصوتي للألفاظ يتبعه بالضرورة اختلاف في الدلالة ، ولو كان هذا الاختلاف في حدود ضيقة وربما خفيفة.

10. ومن العناصر التي لها دور في توجيه الدلالة الصوتية ما يختص بطرفي العملية التواصلية ، وهما : المرسل - والمتلقي . فالمبدع يختار من وسائل اللغة وما تتيحه من أدوات للتعبير ، ما يناسب الغرض ويحقق المقصد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن للمتلقي دوراً في تحميل الأصوات إيحاءات يثيرها السياق العام للنص ، وتستدعيها أيضاً تجارب وخبرات المتلقي مع الكلمات والألفاظ وما تتركه تلك الخبرات من انطباعات ذاتية خاصة.

11. إن دراسة الدلالة الصوتية في القرآن الكريم ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار خصوصية النص القرآني المعجز ، الذي نزل بلغة العرب بخصائصها الصوتية التي تجعلها بحق لغة موسيقية ، تحتزن طاقات تعبيرية في إيحاءات أصواتها وصيغها وتراكيبها وإيقاعاتها . كما ينبغي أن تأخذ هذه الدراسة بعين الاعتبار طبيعة الرسالة التي يؤدبها النص القرآني ، فالقرآن كتاب دعوة وهداية قبل كل شيء ، وقد اتخذ من قوة الإيحاء في الأصوات والإيقاعات أداة فعالة للتأثير.

هذا ما أمكن استخلاصه من نتائج ، ويبقى الموضوع مجالاً خصباً للدراسة والبحث . وفي الأخير فقد بذلت ما استطعت من جهد ، واستفرغت في حدود الوقت المتاح ما لدي من وسع ، فما كان فيه من صواب فهو من توفيق الله عز وجل وحده ، وما كان فيه من خطأ فهو من قصور البشر وعجزهم ، أسأل المولى عز وجل أن يتجاوز عن زللي وخطيائي ، وأن ينفع بهذا البحث ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، ويتقبلني والجميع بقبول حسن ، ويجعلني ممن قال الله فيهم : " أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون "

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- قائمة المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	السورة - الآية	نص الآية
224	الفاحة - 1	﴿ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ﴾
73	البقرة - 60	﴿ و اذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾
228	البقرة : 61	﴿ واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها... ﴾
194	البقرة 96	﴿ وَمَا هُوَ بِمُزْحِرٍ حِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾
73	البقرة - 101	﴿ و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾
-67 68	البقرة - 158	﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾
196	البقرة : 214	﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾
187	البقرة : 258	﴿ فبهت الذي كفر ﴾
181	البقرة - 280	﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾
227	البقرة - 282	﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب... ﴾
194	آل عمران: 185	﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴾
201	النساء - 80	﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾

179	الأنعام - 26 - 25	﴿ حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الاولين وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾
64	الأنعام - 78	﴿ قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾
64	الأنعام - 79	﴿ وما أنا من المشركين ﴾
64	الأنعام - 80	﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ﴾
64	الأنعام - 81	﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ﴾
64	الأنعام - 82	﴿ الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون ﴾
64	الأنعام - 84	﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾
179	الأنعام - 157	﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾
200	الأنفال 13	﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾
202	التوبة 38	﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الارض ﴾
216	نوح - 26 - 28	﴿ رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ، ... ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾
203	هود - 28	﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾
217	هود - 42 - 43	﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ... وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾
187	هود - 48	﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾
197	يوسف: 23	﴿ وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْاَبْوَابَ ﴾ .

198	يوسف: 31	﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾
190	يوسف: 51	﴿ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾
215	إبراهيم - 41 - 37	﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾
178	الإسراء - 64	﴿ وَاسْتَفْزِرُوا مِنْ اسْتِطْعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾
178	الإسراء - 76	﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾
186	الكهف - 5	﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾
74	الكهف - 11	﴿ فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾
224	الكهف - 64	﴿ مَا كُنَّا نَبْعُ ﴾
201	الكهف - 78	﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَلْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾
201	الكهف - 82	﴿ ذَلِكَ تَلْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾
201	الكهف - 97	﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾
-216 229	مریم : 2 - 6	﴿ ذَكَرَ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ... ﴾
229	مریم : 13	﴿ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَوَاتٍ وَكَانَ تَقِيًّا ، وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾
177	مریم - 25	﴿ وَهَزَبْنَا بِإِذْنِكَ الْبَجْدَةَ تَسَاقَطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾
230	مریم : 34 - 36	﴿ ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ، مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ... ﴾
230	مریم : 41 - 45	﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي

		من العلم ما لم ياتك فاتبعني أهدك صراطا سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً... ﴿﴾
231	مریم : 75 - 76	﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن ملاً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكان وأضعف جنداً ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى... ﴾
177	مریم- 83	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾
231	مریم : 88 - 91	﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً ادّأً ، يكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدأً ، ان دعوا للرحمن ولداً ﴾
185	طه - 67	﴿ فأوحس في نفسه خيفة موسى ﴾
74	طه - 77	﴿ و لقد اوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر ﴾ .
187	الأنبياء 40	﴿ بل تاتيهم بغتة فنبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾
183	الأنبياء - 58	﴿ فجعلهم جذاذا ﴾
199	الأنبياء: 68	﴿ قالوا حرّقه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾
195	الحج - 1	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾
196	الحج - 2	﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾
192	الشعراء: 94	﴿ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنُ ﴾
	لقمان - 13	﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .
196	الاحزاب 11-10	﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنوننا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾

206	ق - 42	﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾
74	يس - 13	﴿ و اضرب لهم مثلاً اصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ .
203	الزمر : 29	﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ﴾
206	الزمر - 68	﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الارض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾
184	الذاريات - 29	﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾
223	الطور - 1	﴿ والطور وكتاب مسطور... ﴾
184	الطور - 13	﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ﴾
218	النجم - 18	﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ،... لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾
183	القمر - 7	﴿ كَانَهُمْ جُرَادٌ مُّتَشِيرٌ ﴾
226	الرحمن - 1 4-	﴿ الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان... ﴾
197	الرحمن : 76	﴿ مُتَكِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾
195	الواقعة : 4	﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾
200	الحشر : 4	﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾
180	الطلاق - 7	﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾
197	الحاقة : 6	﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾
206	الحاقة - 13	﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾
222	الحاقة - 41	﴿ وما هو بقول شاعر ﴾
181	المدثر - 9 10 -	﴿: فذلك يومئذ يومٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾
208	النازعات - 12 10 -	﴿ يقولون •أنا لمردودون في الحفرة إذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذن كرة خاسرة ﴾

205	النازعات - 14 - 13	﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾
208	النازعات - 16	﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى... ﴾
199	النازعات: 36	﴿ وَبَرَزَتْ الْجَحِيمَ لَمَنْ يَرَى ﴾
199	التكوير: 13 - 12	﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾
197	التكوير 17	﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾
224	الفجر - 1 4 -	﴿ وَالْفَجْرِ ، وَلِيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ... ﴾
227	الفجر : 6 14 -	﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، أَرَمَ ذَاتَ الْعِمَادِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ﴾
219	الفجر - 26 - 21	﴿ كَلَّا إِذَا دَكَتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا... ، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾
217	الفجر - 30 - 27	﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جناتي ﴾
226	الشمس - 3 - 1	﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاهَا... ﴾
191	الشمس: 14	﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾
181	الليل - 7	﴿ فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾
181	الليل - 10	﴿ فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾
231	الضحى : 1 5 -	﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَالْآخِرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾
232	الضحى : 6 7 -	﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾
232	الضحى - 8	﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

180	الشرح - 6-5	﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾
195	الزلزلة: 1	﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾
182	القارعة : 1 2 -	﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾
183	القارعة : 5 7 -	﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾
185	الماعون - 2	﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾
197	الناس 4-5	﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	نص الحديث	الرقم
71	حديث لما نزل قول الله تعالى: " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون " قال الصحابة: "وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي ﷺ: ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا قول العبد الصالح : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾	1
76	عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ - وأنا يومئذ حديث السن - : رأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ فما أرى على أحد شيئاً ألا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: كلا ، لو كانت كما تقول كانت: فلا جناح عليه أن ألا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار ، كانوا يهلون لمناة ، وكانت مناة حذو قديد ، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾	2
76	"خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة "	3
244	حديث النبي ﷺ أنه قال لمن جاءوا وكلموه في شأن الجنين " كيف ندي من لا أكل ولا شرب ، ولا صاح فاستهل ، أليس دمه قد بطل " فقال : أسجاعة كسجاعة الجاهلية " وفي رواية " أسجعا كسجع الكهان	4

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم : برواية ورش عن نافع

كتب الحديث :

- 1- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري :
الجامع الصحيح - دار ابن كثير - بيروت .
- 2- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري : صحيح مسلم-
دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- 3- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي : سنن الترمذي - دار إحياء التراث
العربي - بيروت .

كتب ومراجع عربية: (1)

- 1- الأمدي - أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي : الموازنة بين أبي تمام والبحتري
- تحقيق : السيد أحمد صقر - ط 4 - دار المعارف القاهرة
- 2- إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية- مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - 1971م
- 3- إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ - ط 5 (1984م) - مكتبة الأنجلو المصرية
- 4- ابن الأثير - ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - تحقيق: د.
أحمد الحوفي - د. بدوي طبانة - دار نهضة مصر - القاهرة - ط 2 -
- 5- أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي- عالم الكتب - القاهرة - ط 1990م
- 6- أحمد مختار عمر : علم الدلالة - عالم الكتب القاهرة - ط 5 - 1998م
- 7- الأسنوي - جمال الدين : نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول للقاضي
البيضاوي - عالم الكتب
- 8- الألوسي - شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي : روح المعاني في
تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - تحقيق : فؤاد سراج عبد الغفار - المكتبة
التوفيقية - القاهرة - ط 2008م

¹: اعتماداً على اسم المؤلف مع إسقاط (ال) التعريف و (ابن) و (أبو)

- 9-** ابن أمير - الحاج الحلبي : التقرير والتحبير شرح التحرير في أصول الفقه
لكمال الدين بن الهمام - ضبط وتصحيح : عبد الله محمود محمد عمر - دار
الكتب العلمية - بيروت - ط 1 (1419هـ - 1999م)
- 10-** إيميل بديع يعقوب : المعجم المفصل في اللغة والأدب — دار العلم للملايين -
ط 1
- 11-** إيميل بديع يعقوب : المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر
- دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 (1411 هـ - 1991م)
- 12-** الباقلائي - أبو بكر : إعجاز القرآن - شرح وتعليق : د. محمد عبد المنعم
خفاجي - دار الجيل - بيروت - ط 1 (1411هـ - 1991م)
- 13-** بشر - كمال : علم الأصوات - دار غريب - القاهرة - ط (2000م)
- 14-** البغوي - أبو محمد الحسين بن مسعود : معالم التنزيل - حقه وخرج
أحاديثه: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش
- دار طيبة للنشر والتوزيع - ط 4 (1417 هـ - 1997 م)
- 15-** بكرى شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن الكريم - دار الشروق - بيروت ،
القاهرة - ط 4 (1400هـ - 1980م)
- 16-** الثعالبي - أبو منصور : فقه اللغة وسر العربية - تحقيق : مصطفى السقا -
إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي - دار الفكر - ط 3
- 17-** الجاحظ - أبو عثمان عمرو : البيان والتبيين - تحقيق وشرح عبد السلام محمد
هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط 7 (1418 هـ - 1998م)
- 18-** الجاحظ : الحيوان - تحقيق وشرح : محمد عبد السلام هارون - ط 2 (1385
هـ - 1965 م) - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
- 19-** الجري - محمد رمضان : الأسلوب والأسلوبية - منشورات ELGA (مالطا)
- ط 2002م
- 20-** الجرجاني - عبد القاهر : دلائل الإعجاز - علق عليه : محمود محمد شاكر -
مطبعة المدني - القاهرة - ط 3 (1413هـ - 1992م)
- 21-** الجرجاني - القاضي علي بن عبد العزيز : الوساطة بين المتنبي وخصومه -
شرح وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - علي محمد البجاوي - ط 1 (1427
هـ - 2006 م) - المكتبة العصرية - بيروت
- 22-** ابن الجزري - أبو الخير محمد بن محمد : التمهيد في علم التجويد - تحقيق د.
علي حسين النواب - ط 1 (1405هـ - 1985م) - مكتبة المعارف - الرياض
(م ع السعودية)

- 23-** ابن الجزري - : النشر في القراءات العشر - قدم له: علي محمد الضباع - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 (1418هـ - 1998م)
- 24-** جمعة سيد يوسف : سيكولوجية اللغة والمرض العقلي - ط 1990 م - عالم المعرفة - الكويت
- 25-** ابن جني - أبو الفتح عثمان: الخصائص - تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - (1421هـ - 2001م)
- 26-** ابن جني - أبو الفتح عثمان : سر صناعة الأعراب : دراسة وتحقيق د. حسن هنداوي - دار القلم - دمشق - ط2 (1413 هـ - 1993 م)
- 27-** ابن الحاجب : الكافية - ضمن كتاب المجموع الكامل للمتون - جمعه وصححه محمد خالد العطار - دال الفكر - بيروت - ط 1 (1423هـ - 2002م)
- 28-** حجازي - محمود فهمي - علم اللغة العربية - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
- 29-** حساني - أحمد : مباحث في اللسانيات - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ط 1999م
- 30-** حسان - تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها- دار الثقافة - المغرب - ط 1994م
- 31-** أبو حيان الأندلسي - محمد بن يوسف : تفسير البحر المحيط - تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 (1413هـ-1993م)
- 32-** الخطابي - أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم : بيان إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق : محمد خلف الله - د. محمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر - ط2 (1387هـ - 1968م)
- 33-** الداية - فايز : علم الدلالة العربي - النظرية والتطبيق - دار الفكر - دمشق - ط 2 - (1417هـ - 1996م)
- 34-** أبو بكر بن دريد : كتاب جمهرة اللغة - تحقيق د . رمزي منير بعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت (لبنان) - (ط1 1987)
- 35-** ابن دريد - أبو بكر محمد بن الحسن : الاشتقاق - تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون - دار الجيل - بيروت - ط 1 (1411 هـ - 1999م)

- 36-** الراجحي - عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية – دار النهضة العربية – بيروت
- 37-** الرازي - فخر الدين : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب – دار الفكر – بيروت – ط1(1425هـ-2005م)
- 38-** الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن – تحقيق : نديم مرعشلي – دار الفكر بيروت
- 39-** الرافعي - مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية _ دار الكتاب العربي : بيروت (لبنان) - ط9 (1393هـ- -1973م
- 40-** الرماني - أبو الحسن علي بن عيسى : النكت في إعجاز القرآن – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق : محمد خلف الله – د. محمد زغلول سلام – ط 2 / 1387هـ - 1968م – دار المعارف بمصر
- 41-** رمضان عبد التواب : بحوث ومقالات في اللغة – مكتبة الخانجي بالقاهرة – ط 3 (1415هـ - 1995م)
- 42-** رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي- مكتبة الخانجي بالقاهرة - ط 3 (1417هـ - 1997م
- 43-** الزركشي - بدر الدين محمد بن عبد الله : البحر المحيط في أصول الفقه – راجعه : د. عمر سليمان الأشقر – دار الصفاة – مصر – ط2 (1413هـ – 1992م)
- 44-** الزركشي - بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار التراث – القاهرة
- 45-** الزمخشري - جار الله أبو القاسم محمود بن عمر : القسطاس في علم العروض - تحقيق: د. فخر الدين قباوة – مكتبة المعارف – بيروت – ط 2 (1410هـ-1997م)
- 46-** الزمخشري - جار الله: الكشف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض – مكتبة العبيكة - الرياض – ط 1 (1418هـ - 1998م)
- 47-** أبو زهرة - محمد: المعجزة الكبرى القرآن – دار الفكر العربي
- 48-** زيدان - جرجي زيدان : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية – دار الحدائثة – بيروت ط 2 (1982 م)

- 49-** السبكي - نقي الدين علي السبكي وولده تاج الدين : الإبهاج في شرح المنهاج (شرح منهاج الوصول إلي علم الأصول للقاضي البيضاوي) - دار الكتب العلمية - بيروت - ط (1416هـ - 1995 م)
- 50-** السكاكي : مفتاح العلوم - تحقيق د. عبد الحميد هنداوي - ط 1 (1420 هـ - 2000 م) - دار الكتب العلمية - بيروت (لبنان)
- 51-** ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 (1402 هـ - 1982 م)
- 52-** عبد الرحمن السهيلي : نتائج الفكر في النحو - تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض - دار الكتب العلمية بيروت - ط 1 (1412 هـ - 1992 م)
- 53-** سيويه - أبو بشر عمرو بن عثمان : الكتاب - تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون - ط 2 (1402 هـ - 1982 م) - مكتبة الخانجي بالقاهرة - دار الرفاعي بالرياض
- 54-** ابن سينا - أبو علي : أسباب حدوث الحروف - تحقيق : محمد حسان الطيان - يحيى مير علم - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق
- 55-** السيوطي - جلال الدين : الإتقان في علوم القرآن - تقديم : د. مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير- دمشق - بيروت - ط 4 (1420 هـ - 2000 م)
- 56-** السيوطي - جلال الدين : المزهرة في علوم اللغة - شرح وتعليق : محمد أحمد جاد المولى - محمد علي البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر -
- 57-** الشاطبي - أبو إسحق : الموافقات في أصول الشريعة - شرح : الشيخ عبد الله دراز - دار الحديث - القاهرة - (1427 هـ - 2006 م)
- 58-** شاكر - سالم : مدخل إلى علم الدلالة - ترجمة : محمد يحياتين - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر
- 59-** شامية - أحمد : في اللغة - دراسة تمهيدية منهجية متخصصة في مستويات البنية اللغوية - دار البلاغ - الجزائر ط 1 (1423 هـ - 2002 م)
- 60-** شحاته - عبد الله محمود - علوم القرآن - دار غريب القاهرة - ط 2002 م
- 61-** الشوكاني - محمد بن علي : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - تحقيق : سعيد محمد اللحام - دار الفكر - بيروت - ط (1421 هـ - 2001 م)

- 62-** صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن - دار العلم للملايين - بيروت - ط24 - 2000م
- 63-** ضيف - شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ - ط 9 - دار المعارف القاهرة
- 64-** الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن - تحقيق : أحمد محمد شاكر- مؤسسة الرسالة - ط1 - (1420 هـ - 2000م)
- 65-** طحان - ريمون : الألسنية العربية - سلسلة الألسنية - بإشراف د. أنيس فريخة - د. ريمون طحان - ط 2 (1981م) - دار الكتاب اللبناني - بيروت .
- 66-** الطيبي - شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد : التبيان في البيان - تحقيق ودراسة : د. عبد الستار حسن زموط - ط 1 (1416 هـ - 1996 م) دار الجبل- بيروت
- 67-** ابن عاشور - محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير - دار سحنون - تونس
- 68-** عبدالرحمن أيوب : أصوات اللغة - مطبعة الكيلاني - القاهرة - ط 2 - 1968م
- 69-** عبد الفتاح إبراهيم : مدخل في الصوتيات - دار الجنوب للنشر - تونس
- 70-** عبد القادر عبد الجليل : علم اللسانيات الحديثة - دار صفاء - عمان - ط1 (1422 هـ - 2002 م)
- 71-** العسكري - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل : كتاب الصناعتين - تحقيق : علي محمد البجاوي - أبو الفضل إبراهيم - ط 1 (1371 هـ - 1952 م) - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه
- 72-** ابن عطية - أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - دار ابن حزم - بيروت - ط 1 (1423 هـ - 2002م) -
- 73-** العقاد - عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة - ط يونيو 1995م
- 74-** الغزالي - أبو حامد : معيار العلم في فن المنطق - دار الأندلس - بيروت - ط 3 (1401 هـ - 1981 م)

- 75-** الغزالي - أبو حامد : إحياء علوم الدين _ علق عليه: أحمد علي سليمان - دار الغد الجديد - ط1(1426هـ-2005م)
- 76-** فضل حسن عباس : القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته - ص 158 - دار الشهاب (الجزائر) - ط (1989م)
- 77-** فضل - صلاح فضل : علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته - دار الشروق بيروت - ط 1 (1419 هـ - 1998 م)
- 78-** ابن قتيبة - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : الشعر والشعراء - تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر - ط 2 - دار المعارف - القاهرة
- 79-** قدامة بن جعفر- أبو الفرج : نقد الشعر - تحقيق وتعليق : د. محمد عبد المنعم خفاجي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
- 80-** القرطبي - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري : الجامع لأحكام القرآن - دار الغد الجديد - القاهرة - ط1 (1431هـ-2010م)
- 81-** القزويني - جلال الدين الخطيب : الإيضاح في علوم البلاغة - راجعه : عماد بسيوني زغلول - مؤسسة الكتب الثقافية بيروت
- 82-** قطب - سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - ط 14 (1413 هـ - 1993م) - دار الشروق - القاهرة
- 83-** قطب - سيد: في ظلال القرآن - دار إحياء الكتاب العربي - بيروت - ط 5 (1386هـ-1967م)
- 84-** قطب - سيد : مشاهد القيامة في القرآن - دار الشروق - القاهرة
- 85-** ابن قيم الجوزية : بدائع الفوائد - تحقيق : علي محمد العمران - دار عالم الفوائد - مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة
- 86-** ابن كثير- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم - دار الإمام مالك - الجزائر - ط2 (1430هـ-2009م)
- 87-** المبارك محمد : فقه اللغة وخصائص العربية - دار الفكر بيروت
- 88-** المبرد - أبو العباس محمد بن يزيد : كتاب المقتضب - تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة - المجلس الأعلى للمنشورات الإسلامية - وزارة الأوقاف - مصر - (1415 هـ - 1994م)
- 89-** المسدي عبد السلام : الأسلوبية والأسلوب - الدار العربية للكتاب - ليبيا -

- 90-** منقور عبد الجليل : علم الدلالة - أصوله ومباحثه في التراث العربي - ص 69 - من منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2001
- 91-** الميناوي - مخلوف : حاشية الشيخ مخلوف الميناوي على شرح الدمنهوري لمتن الإمام الأخصري المسمى الجوهر المكنون في المعاني والبيان والبدیع - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ط 1343هـ.
- 92-** ابن المنير - أحمد بن محمد بن منصور أبو العباس ناصر الدين المالكي الإسكندري : الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - مطبوع بهامش الكشاف للزمخشري - انتشارات آفتاب - تهران.
- 93-** مومن - أحمد : اللسانيات (النشأة والتطور) - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ط 2002م
- 94-** الواحدي- علي بن أحمد : أسباب النزول- دار ومكتبة الهلال- بيروت - ط 2 - 1985م
- 95-** ابن يعيش - موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش : شرح المفصل للزمخشري - إدارة الطباعة المنيرية بمصر

كتب ومراجع أجنبية:

- 1- ماريو باي : أسس علم اللغة - تر د. أحمد مختار عمر - منشورات جامعة طرابلس كلية التربية - ليبيا - 1973م
- 2- فردينان دي سوسير : دروس في الألسنية العامة - ترجمة : صالح القرمادي - محمد الشاوش - محمد عجينة - الدار العربية للكتاب ط 1985م
- 3- ج. فندريس : اللغة - تعريب : عبد الحميد الدواخلي - محمد القصاص - مكتبة الأنجلو المصرية
- 4- أندريه مارتيني : مبادئ في اللسانيات العامة - ترجمة : د. سعدي زبير - دار الآفاق - الجزائر
- 5- رينيه وليك- أوستين وارن : نظرية الأدب - تعريب : د. عادل سلامة - دار المريخ - م ع السعودية - ط (1412 هـ - 1992 م)

معاجم وموسوعات :

- 1-التهانوي - محمد علي : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم – تحقيق: د. علي دحروج – ترجمة: د. جورج زيناتي – مكتبة لبنان ناشرون- ط 1 (1996م)
- 2-الجرجاني - علي بن محمد الشريف : معجم التعريفات – تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي- دار الفضيلة – القاهرة
- 3-الخليل بن أحمد: كتاب العين – تحقيق: مهدي مخزومي – إبراهيم السامرائي - ج 1 – ص 57 – سلسلة المعاجم والفهارس
- 4-الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن – تحقيق : نديم مرعشلي – دار الفكر – بيروت
- 5-الفيروز آبادي - مجد الدين محمد بن يعقوب : القاموس المحيط – تحقيق : محمد نعيم العرقسوسي – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط 8 (1426هـ - 2005م)
- 6-مبارك مبارك : معجم المصطلحات الألسنية – دار الفكر اللبناني – بيروت – ط 1 - 1995م
- 7-بن منظور - أبو الفضل جمال الدين : لسان العرب – دار صادر – بيروت

رسائل وأطروحات:

- 1- حساني - أحمد: العلامة في التراث اللساني العربي – رسالة دكتوراة في اللسانيات – جامعة وهران – السنة 1998-1999

مقالات :

- 1- عبد الحميد هنداوي : جهود ابن جني في الكشف عن الدلالة الفنية للأصوات – دراسة نظرية تطبيقية – مطبوع بمقدمة كتاب الخصائص لابن جني
- 2-عبد الراجحي- علم اللغة والنقد الأدبي- مجلة فصول- المجلد الأول- العدد الثاني جانفي 1981

3- عبد القادر هني : قضية اللفظ والمعنى من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني
- مجلة الموافقات - العدد 2 / ذو الحجة 1423 هـ - جوان 1999 م - دار
الكلمة للنشر تيبازة الجزائر - ص 262 - 263

فهرس الموضوعات

الإهداء.....	2
شكروثناء.....	3
مقدمة.....	5
الفصل الأول: الصوت والدلالة	11
المبحث الأول: الصوت	12
المطلب الأول : ماهية الصوت	13
1. تعريف الصوت وكيفية حدوثه وانتقاله :.....	13
2. الصوت اللغوي:	15
المطلب الثاني :. تصنيف الأصوات	16
1. تقسيم الأصوات إلى صوامت وصوائت:.....	16
معايير التصنيف عند علماء العربية:.....	18
الواو والياء نظرة خاصة :.....	20
2. التقسيمات الفرعية :.....	21
أولا : تقسيم الصوامت باعتبار وضع الأوتار الصوتية :.....	22
ظاهرتا الجهر والهمس عند علماء العربية القدامى	23
ثانيا : تقسيم الصوامت باعتبار المخارج والأحياز :.....	24
مخارج الحروف عند علماء العربية :.....	29
ثالثا : تقسيم الصوامت باعتبار كيفية مرور الهواء :.....	33
رأي علماء العربية :.....	37
صفات الأصوات عند علماء العربية :.....	40
المبحث الثاني: الدلالة	46

المطلب الأول : ماهية الدلالة.....	47
1. تعريف الدلالة.....	47
2. الدال وأشكاله	49
3. الطبيعة النفسية للدال والمدلول	51
4. علاقة العلامة بالمرجع	54
المطلب الثاني : عناصر الدلالة	60
1. دلالة الصوت	60
- مستوى اللغة في الدراسات اللسانية	61
- مستوى الكلام في الدراسات الأسلوبية	64
2. دلالة الصيغ الصرفية	65
3. الدلالة النحوية	68
4. دلالة السياق	72
- السياق اللغوي	73
- سياق الحال (المقام)	74
المطلب الثالث: تصنيف الدلالات	82
1. مستوى المعنى	82
- المعنى المركزي	82
- المعنى السياقي	83
2. مستوى فوق المعنى	85
- معان حافة فردية	88
- معان حافة جماعية أو ثقافية	89
تصنيف الدلالات في التراث اللساني العربي	89
الفصل الثاني : الدلالة الصوتية - دراسة نظرية لعلاقة الصوت بالدلالة	94
المبحث الأول : الدلالة الصوتية عند المتقدمين والمتأخرين	95
المطلب الأول : الدلالة الصوتية عند علماء العرب القدماء	97
1. الدراسات الجمالية عند النقاد والبلاغيين	99

- 99 الفصاحة -
- 113..... قضية اللفظ والمعنى -
- 124..... 2. الدراسات الدلالية عند اللغويين
- 124..... الخليل بن أحمد (ت175هـ) -
- 125..... سيويه (180هـ) -
- 127..... ابن جني (ت392هـ) -
- 134..... ابن دريد (361هـ) -
- 136..... أبو عبد الرحمن السهيلي وابن القيم -
- 143..... **المطلب الثاني : الدلالة الصوتية في الدراسات الحديثة :**
- 143..... 1. الدلالة الصوتية في الدراسات اللسانية الحديثة:
- 143..... دي سوسير -
- 145..... ببير جيرو : -
- 148..... ج.فندريس: -
- 153..... همبات : -
- 154..... جسبرسن: -
- 155..... اللغويون العرب المحدثون : -
- 160..... 2. الدلالة الصوتية في الدراسات الأسلوبية :
- 167..... **المبحث الثاني : الصوت والنفس البشرية :**
- 169..... **المطلب الأول : الصوت انعكاس للنفس البشرية :**
- 171..... **المطلب الثاني : تأثي الصوت في النفس البشرية :**
- 177..... **المبحث الثالث : الخصائص الصوتية للقرآن الكريم:**
- 178..... **المطلب الأول : الخصائص الصوتية للغة العربية :**
- 179..... مخارج الحروف : -
- 180..... ائتلاف الحروف وترتيبها في الكلمة : -
- 183..... القيمة التعبيرية للحرف في العربية : -
- 184..... الاشتقاق : (الميزان الصرفي) : -
- 186..... المناسبة بين الوزن والمعنى : -

188.....	المطلب الثاني: الخصائص الصوتية للغة القرآن
195.....	الفصل الثالث : الدلالة الصوتية – دراسة تطبيقية
196.....	<u>المبحث الأول</u> : دلالة السمات الصوتية
197.....	1. إبدال الأصوات المتقاربة:
203.....	2. دلالة السمات النطقية والسماعية للأصوات:
211.....	<u>المبحث الثاني</u> : دلالة الصيغ الصرفية
212.....	1. التكرار في المصادر الرباعية:
219.....	2. تضعيف العين في الفعل الثلاثي:
222.....	3. الإدغام:
225.....	4. دلالة الصيغة بين الخفة والنقل (التعقيد والسهولة):
227.....	5. التفاعل بين التشكيل الصوتي والسياق:
232.....	<u>المبحث الثالث</u> : دلالة الإيقاع
233.....	تعريف الإيقاع:
234.....	أنواع الإيقاع:
235.....	الإيقاع القرآني:
237.....	دور الإيقاع في بناء الدلالة:
238.....	تنوع الإيقاع بتنوع الموضوعات:
238.....	1. إيقاع الدعاء:
240.....	2. إيقاع الطوفان:
240.....	3. إيقاع الطمأنينة:
241.....	4. إيقاع رحاب الملأ الأعلى:
242.....	5. إيقاع أهوال القيامة:
243.....	الدلالة الصوتية في الفاصلة القرآنية:
243.....	1. تعريف الفاصلة:
245.....	2. الفرق بين الفاصلة وبعض المشبهات:
245.....	1. بين الفاصلة والسجع:

248.....	2. بين الفاصلة ورؤوس الآي :
248.....	3. الفرق بين الفاصلة والقافية والروي :
249.....	3. مظاهر الدلالة الصوتية في الفواصل القرآنية :
249.....	1 اختلاف الفواصل بين القرآن المكي والمدني :
252.....	2 تنوع الفواصل بتنوع الموضوعات :
258.....	الخاتمة
264.....	فهرس الآيات القرآنية
271.....	فهرس الأحاديث النبوية
272.....	قائمة المصادر والمراجع
282.....	فهرس الموضوعات

ملخص

يتناول هذا البحث بالدرس والتحليل قضية هامة من القضايا اللغوية وهي العلاقة بين الصوت والدلالة ، ومدى اعتبار الصوت عنصراً هاماً من عناصر إنتاج الدلالة وإفادة المعنى وتشكيله وتلوينه وإضفاء ظلال من الإيحاءات والقيم الفنية التعبيرية عليه. وفضلت أن تكون دراسة هذه الظاهرة من خلال نصوص القرآن الكريم لأنه النص الإلهي الذي يقدم لنا أكمل صورة للعلاقة التوحيدية بين الصوت والمعنى ، تبرز فيه بجلاء واضح الطاقات الدلالية والإيحائية للأصوات ، وذلك بالنظر إلى المناسبة بين السمات النطقية والسماعية للأصوات وبين المعاني المعبر عنها، إضافة إلى دلالة الصيغ والأوزان الصرفية وكذا دلالة إيقاع الجمل والعبارات. وتكمن أهمية البحث في كونه يكشف جانباً دقيقاً من جوانب الإعجاز القرآني ، ذلك أن ظاهرة الدلالة الصوتية ومناسبة الأصوات للمعاني بارزة بشكل واضح في نصوص القرآن الكريم يشعر بها كل من لامس نصوصه أو قرأ آياته. وإن أول ما يثير انتباه القارئ للقرآن الكريم جرس ألفاظه ونغم عباراته التي تترك آثارها في النفس والوجدان وترسم في المخيلة ظلالاً للمعنى. يحسها ويلمس آثارها القارئ والمستمع بغض النظر عن معرفته لمعاني الألفاظ والعبارات.

الكلمات المفتاحية:

الصوت؛ الدلالة؛ اللفظ؛ المعنى؛ الدلالة الصوتية؛ السمات النطقية للأصوات؛ السمات السماعية للأصوات؛ الصيغ الصرفية؛ الأوزان الصرفية؛ الإيقاع؛ الدلالة الإيحائية.

نوقشت يوم 20 جوان 2013